مجلة

كلية الآداب

جامعة الإسكندرية



المجلدان السادس والسابع

١٩٥٢ - ١٩٥٣

تطلب هذه المجلة من مكتبة جامعة الاسكندرية بالشاطبى

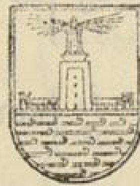
وتوجه المكاتبات الخاصة بالناحية العلمية

الى الدكتور جمال الدين الشيال سكرتير التحرير

مطابع رمسيس بالاسكندرية ـ تليفون ٢١٩١٢

هيئة تحرير المجـلة:

مجلة
كلية الآداب
جامعة الاسكندرية



المجلدان السادس والسابع

١٩٥٢ – ١٩٥٣

تطلب هذه المجلة من مكتبة جامعة الاسكندرية بالشاطبى

وتوجه المكاتبات الخاصة بالناحية العلمية

الى الدكتور جمال الدين الشيال سكرتير التحرير

مطابع رمسيس بالاسكندرية – تليفون ٢١٩١٢

فهرس القسم العربى

النقد والكتب

الفولكلور في ضوء علم الاجتماع
(محاولة فى المناهج)

للدكتور م . ث . الفندى

« ان الخرافات والاساطير اكثر حقيقة من التاريخ . وليس فى ذلك أدنى مغالطة اذ يتوقف الامر هنا على معني « الحقيقة » من الوجهة الاجتماعية . فعند علماء الاجتماع تبدو الخرافة أو الاسطورة اكثر حقيقة من التاريخ لانها منتشرة فى المجتمع وتكون واقعة اجتماعية ربما كان لها خطرها ، وكم من الاساطير أثار حروبا ، وحطم دولا ، وكم منها انتظم فى صورة أديان لها أتباع كثيرون » .

فى محاولة الانسان لفهم ذاته تناول « بالبحث العلمى » جميع آثاره الفكرية حتى البسيط التافه منها كالاساطير والقصص الخرافية الشائعة عند الشعوب جميعها قديمها وحديثها : فلقد امتدت المناهج العلمية أخيرا الى عالم الخرافات بعد عالم الواقع ، فتألف من الاساطير القديمة والقصص الخرافية المعاصرة المنتشرة علم « الفولكور » الذى يشق فى عسر شديد طريقه بين العلوم الانسانية الاخرى . وسبب العسر هو أنه لم يهتد بعد الى تتويج أبحاثه ونتائجه بالمبدأ القويم الذى يفسرها ، وبالنظرية العامة التى تلقى ضوءا ناصعا على تلك المادة الفلكورية الكثيفة التى أخذت تنمو على مر الايام ، فالنقص أذن يبدو أنه نقص فى طرائق هذا العلم وعسر فى استكمال مناهجه الخاصة . وذلك لان الناظر فى أحدث المؤلفات فى هذا

الموضوع لا يسعه الا أن يلحظ أنها دراسات مازالت تمر بمرحلتين تنقصهما مرحلة ثالثة وضرورية .

أما المرحلة الاولى ونقطة البداية فهى جمع القصص الخرافية والاساطير فى القديم أو الحديث حسب البلاد أو العصور ووصفها وتمحيصها . وتلك هى المرحلة التى تشبه مرحلة جمع الوثائق التاريخية فى التاريخ ، أو الوقائع العلمية فى العلوم الطبيعية والانسانية .

أما المرحلة الثانية فهى دراسة تلك القصص الشعبية على أساس التشابه والاختلاف ، والارتداد بها الى «نماذج» عامة مهما اختلفت تفاصيلها وعصورها . وتلك هى مرحلة « التصنيف » المعروفة بصفة خاصة فى علوم الحياة حين ترد الكائنات الحية المختلفة الى أنواع وفصائل مختلفة . ولقد نجحت للدهشة الشديدة تلك المرحلة فى الدراسات الفلكورية بحيث أصبحت هناك أصناف أو نماذج معينة يدور البحث فى كل نموذج منها على حدة : كنموذج « ألسست » (Alceste) الذى درسه ليسكى Lesky بصفة خاصة ، ونموذج « أوديب » (Œdipe) الذى درسه الكثيرون واشتهر بصفة خاصة فى الابحاث الفرويدية ، ونموذج نزال الاب والابن الذى أفرد له فان جنيب Van Gennep بحثا طريفا

أما ما بعد هاتين المرحلتين من مراحل المنهج فى الابحاث الفلكورية ، فيشعر الناظر بخيبة أمل شديدة ، ونقص ذريع ، حين لا يجد الا النذر اليسير من المحاولات الجادة فى تفسير تلك «النماذج» العامة وفى فهم مغازيها ووظائفها . ذلك لان العلم والفهم العلمى ليسا مجرد جمع للوقائع وتصنيف لها ، بل لابد من « تفسير » الوقائع المصنفة ، أى ادراك سبب كونها على هذا النحو وليست على نحو آخر . فالادراك «بالسبب» أو القانون أو العلة هو الادراك العلمى فى أكمل درجاته ولا يوجد علم جدير بصفة العلمية الا بعد أن يستوفى التعليل . تلك هى المرحلة الثالثة للمنهج العلمى التى تبدو أنها غير مستوفاة فى أغلب الدراسات الفلكلورية ، ويترك عدم استيفائها شعورا بخيبة أمل فى قيمة تلك الدراسات وأهميتها ومغزاها . ويلوح أن

السبب فى عدم استيفائها هو تخبط علماء الفولكلور فى الاتجاه الصحيح نحو العلم أو النظرية التى تكون بمثابة المفتاح الذى يفضى الى سر تلك الوقائع المصنفة : أهى الميتافيزيقا أم علم الفلك أم علم النفس أم علم الاجتماع أم غير ذلك من العلوم التى هى أثبت قدما وأكثر استقرارا ، بيد أن هذا التخبط ليس هو السبب الوحيد ، اذ لابد من الاعتراف أيضا بأن علم الاجتماع لم ينضج بعد كل النضج ولم يستطع أن يقدم من جهته كل مايضمن نجاح ولوج تلك الاسرار فى وضح النهار . ومع ذلك يبدو أن فيما خطاه علم الاجتماع المعاصر من خطوات موفقة ما يمكنه من اماطة اللثام عن تلك الوقائع الفلكلورية ويفسر مغزاها تفسيرا مرضيا ويحدد لها وظيفة فى حياة الانسان . وبهذا التوجيه نحو علم الاجتماع تستوفى ـ فيما يبدو ـ المرحلة المنهجية الثالثة فى الدراسات الفلكلورية على نحو علمى سديد كما سيتضح مما نعرضه الآن فيما يختص بفهم بعض الاساطير القديمة على ضوء علم الاجتماع

وينبغى أولا أن نستبعد كل تلك التأويلات الهينة الشائعة فى الكتب الادبية والفلسفية فيما يختص بتفسير الاساطير :

فليست الاساطير مجرد ابداع شعرى تفتق عنه الخيال الخصب والاحساس بالجمال فى الاوساط الشعبية . فالاسطورة لاتولد كما تولد القصيدة وليست من وحى فرد عبقرى .

كذلك ليست الاسطورة تعويضا عن النقائص التى جبل عليها الانسان ، وتنفيسا عن رغباته المكبوتة فى ليل الوجدان كما يؤخذ من آراء فرويد فيما أسماه « عقدة أوديب » مثلا . ذلك لان الحب المنحرف الذى يمكن أن يستخلص من أسطورة اوديب ليس تفسيره الممكن الوحيد الغريزة الجنسية المكبوتة .

وأخيرا ليست الاسطورة رمزا معنويا أو ميتا فيزيقيا لبقا قصد بها أن تخفى بمهارة وراء صورها تعاليم خلقية أو دينية أو ميتافيزيقية ، كما يؤخذ مثلا من كتابات باشوفن Bachoven التى حملت بعض الاساطير المشهورة

تطورا ميزيفيا ابتداء مما أسماه المبدأ الارضى الى المبدأ الشمسى ، أو من المادة الى الروح ، أو من الشيوعية الى الفردية ، مما استغله كارل ماركس وتلميذه انجلز فى اثبات قدم الشيوعية عند الانسان . ومن هذا القبيل أيضا ما حمله برديايف Berdyaev من معان فلسفيـة عميقة لاسطورة أندروجين Androgyne التى نجـدها فى أفلاطون وعنـد الفيلسوف يعقوب بوهم Jacob Boehme . فالاسطورة لاتحمل معنى ميتا فيزيقيا مقصودا أو غير مقصود ولا يصح فلسفيا أن تبنى عليها فلسفة ما .

مثل هذه التفسيرات الهينة الشائعة فى الدراسات الادبية والفلسفيـة أضحت بالية عتيقة منذ أن جـدد علم الاجتماع طرقه ومناهجه بعـد تردد طويل فى الاهتـداء الى أوثقهـا وأقومها . لقد تعثر علم الاجتماع طويلا فاستند فى حلول مسائله تارة الى علوم الحيـاة وتارة الى البيئة الجغرافية وتارة الى علم النفس وتارة الى غير ذلك من العـلوم . ولم يستقم كعلم مستقل الا عنـدما أخذ يفسر الظواهر الاجتماعيـة بالمجتمع نفسه ، أعنى بعادات وتقاليد وتصورات المجتمع . فأصبح هنـاك نوع من « الحتمية الاجتماعية » البحتة ترتبط فى داخلها الظواهر الاجتماعية المختلفة برباط العلة والمعلول ، أعنى برباط القانون . ويبـدو الآن أن الاساطير الشائعـة فى المجتمعات لاتشذ على مثل هذا التفسير الاجتماعى ، وأنهما خاضعة للحتمية الاجتماعية لانها فى صميمها انعكاس لحالات اجتماعيـة بحتة ليس لشاعرية الفرد ، أو لاحلامه المنطلقة عن كبت الغريزة الجنسية ، أو لقدرته على الرمز والابداع الميتافيزيقى الا أقل أثر ونصيب فى ابرازها .

وقبل نضوج علم الاجتماع حاول مؤلفون كثيرون فى القرن التاسع عشر تفسير الاساطير تفسيرا مصطنعا وان دل على ذكاء وفير عندما ربطوا بين صورها وخيالاتها الرمزية وبين الظواهر الفلكية . والتفسير الفلكى للاشياء التى تبدو غير مفهومة لغرابتها كان مألوفا فى القرن التاسع عشر : مثلا نشأة الاديان والآلهة البـدائية كانت تعزى بسهـولة الى الكواكب السماوية وما تتركه من رهبة فى نفوس الناس . ففى أسطورة أوديب التى

تمثـــل ميـــل الابن (أوديب) عن أبيــــه الى أمـــه رأى باشـوفن السـابق الـذكر أن أوديب يمثـل الشمس التى تنتصر على القمر (الاب) • وفى أسطورة ألسست Alceste بطلة الوفاء لزوجها ، التى قبلت التضحية بالذهاب الى الجحيم لكى تطيل فى حياته لان حياته ما كانت تطول فى الجحيم الا بتضحيــة واحد من أقاربه ، رأى مؤلفون أمثال البرت كونت Albert Kunnt وروشيه Rocher ودوشادم Decharme أن الزوج (أدميت Admète) يرمز الى الشمس التى تتحد عنـد طلوعها بالفجر وهو « ألسست » نفسها كما أن هذه الاخيرة هى أيضا الاصيل الذى يودع كل يوم الشمس الغاربة ويموت من أجلها لكى تطلع من جديد • تلك التفسيرات تنم عن ذكاء وقاد وتخريج ماهر فحسب لا عن علم يربط الوقائع المختلفــة برباط العلة والمعلول ولذلك فهى غير جديرة بالنقد •

وفى القرن التاسع عشر أيضا عنـدما كانت طرق علم الاجتماع دون الغـاية فسر الاجتماعيون الاســاطير فى ضوء الحياة الزراعيــة للانسان ، أو على نحو أدق ربطوا بينها وبين فصول الزراعة • وفريزر Frazer صاحب « الغصن الذهبى » المشهـور هو القائل بتلك النظـرية ، وعلى غراره درس كل من ايفـانز Evans وبرسـون Person اديان جزيرة كريت وأديان ما قبل الحضارة اليونانية وقالا أنها تعبر باختلاف شعائرها عن تعاقب الفصول : ففى الشتاء مثلا تقام شعـائر البكاء والنواح لآلهة الطبيعــة النائمــة الجرداء • وفى الربيع تقام مسابقات الثيران الشهــيرة استنهاضا لآلهة الحياة والنمو وتنشيطا للقوة الحيوية فى الاحياء • ولقـد امكن لهؤلاء المؤلفين وعلى رأسهم فريزر تفسير الاديان الشرقية القديمة كلها على هذا النحو الزراعى : فأسطورة أوزوريس ، وأسطورة اتيس ، وأسطورة أدونيس ، وأسطورة ديمترو برسفون ، ليس لها عنـد فريزر من معنى على اختلافها الشديد غير هــذا التعاقب الدائم بين استعادة الطبيعة لشبابها وقوتها فى الربيع وبين شيخوختها ووهنها فى الشتاء •

واذا كانت الاساطير فى هذه النظرية اصبحت مسألة اجتماعية تعبر عن صلة المجتمع ببيئته الزراعية ، فان النظرية نفسها ما زالت بعيدة كل البعد عن جادة الصواب • حقيقة لقد نجحت النظرية كل النجاح فى ايجاد تفسير عام لكل تلك الاساطير ، ومفتاح موحد يؤدى الى سرها المغلق ، ولكنها مع ذلك نظرية غير علمية بكل معانى الكلمة لانها لم تحسب حساب الفوارق الكثيرة المعقدة التى لاتوجد بين الاساطير المختلفة فحسب ، بل أيضا بين الصور المختلفة التى تروى بها اسطورة بعينها • فالنقص الملحوظ فى هذه النظرية أنها أغفلت الفوارق بين « النماذج » المختلفة للاساطير كما أغفلت الفوارق فى داخل كل نموذج على حدة بين صوره العديدة المتغيرة • ولابد من طريقة أخرى لتفسير تلك الفوارق الكثيرة وهى الطريقة التى تضع موضع الاعتبار الاول أن الاساطير انما هى انعكاس لحالة اجتماعية وتحمل طابع المجتمع الذى تنبت منه وتعيش فيه كأن تعبر عن نظمه العائلية أو الدينية أو الاقتصادية أو الخلقية أو الحربية أو الطبقية أو القانونية أو غير ذلك مما يكون مجموع التصورات الجماعية لذلك المجتمع على حد تعبير أميل دوركيم **Durkheim**• فاذا قدر لهذه الطريقة النجاح فان علم الاجتماع يصبح بدون شك العلم الذى يلقى الضوء كله على حقيقة الاساطير وينقل فى الوقت ذاته علم الفولكلور من مجرد علم يصف وقائعه ويصنفها الى علم «تفسيرى» يربط بين الوقائع وأسبابها من وجهة نظر علم الاجتماع انما الاسطورة مجرد انعكاس لحالة اجتماعية معينة فى صورة قصة شعبية • وهنا ينبغى تبرير ذلك الحكم : فالدراسات المقارنة للاساطير دلت على أن شعوبا متباعدة فى حضاراتها زمانا ومكانا عبرت — رغم تباعدها — عن عواطفها ونظمها بأساطير متقاربة ومتشابهة • وهذا مما يدل على أن الانسان أينما كان انما يعبر تعبيرا متشابها عن عواطف ومعان دائمة ثابتة • ولكن مهما تشابهت التعبيرات الاسطورية بسبب وحدة العواطف فى النوع الانسانى فانه مما لاشك فيه لابد أن يبقى دائما فارق ولو بسيط يشير الى ما يميز مجتمعا عن غيره ويحمل طابعه الخاص • وهذا مايدعو دائما

الى ربط كل أسطورة بمجتمعها أكثر مما فعلت النظرية السابقة بحيث تبدو الاساطير انعكاسا حقيقيا لنظم المجتمعات .

بيد أن هذا التبرير أولى أو «قبلى» كما يقول الفلاسفة ، وهو لكى يصبح «بعديا» كما يقول الفلاسفة أيضا لابد من استخلاصه من الوقائع والامثلة ولذلك نتناول فيما يلى بعض النماذج الاسطورية بالتحليل .

وأول ما نتناوله من تلك النماذج أسطورة «ألسست» التى عنى ليسكى السابق الذكر بجمع رواياتها المختلفة . وتلك اسطورة لايخلو منها فولكلور شعب من الشعوب :

ففى المانيا الشمالية نجد فتاة تتوسل الى بحار مجهول ألا يبحر بها فى سفينته . وبعد أن أعياها التوسل لجأت الى ابويها ظنا منها بأنهما يفتديانها بكل ما يملكان ولما خاب ظنها ظهر فجأة حبيبها الذى شق عليه رؤيتها تخاطر بالسفر الى بحر مجهول وآثر أن يفتديها بشخصه فأخذ مكانها الى جوار البحار الذى هو بالطبع رمز الموت .

وفى أغنية يونانية حديثة بعض الشىء آتية من طرابزون نجد فتى اسمه «يانس» يتأهب للزواج وعلى حين غرة يباغته الموت ، فيقترح يانس مبارزته فيرفض الموت ، ثم يتوسل يانس الى قديس أن يدعو الله أن يصرف الموت عنه ويطيل فى عمره فيقبل الله الدعاء بشرط أن يتنازل أبوه أو أمه عن نصف ماتبقى له أولها من حياة . وهنا يرفض الابوان التضحية المريرة على حين تقبلها عن طيب خاطر حبيبته لتنقذ حياته . وتنتهى الاغنية بزواجهما .

وتوجد أسطورة ألسست فى صور مختلفة أيضا فى امريكا وفى الهند وعند السلافيين وفى الصين ، ويمكن استخلاص العنصر الثابت فيها كما يأتى : يحضر الموت فردا فى ريعان الشباب يطلب حياته أو حياة أخرى بدلا عنها . ويرفض أقرب الناس اليه وهما الابوان أدنى تضحية ، ويقبل الحبيب وحده تلك التضحية .

لقد نبعت تلك الاقصوصة عن عواطف أولية في الانسان ولكنها اختلفت في تفاصيلها وألوانها باختلاف المجتمعات ، وعبرت عن نظمها الاجتماعية المختلفة : فعند الجرمانيين والسلافيين والشعوب الشمالية يضحى الفتى فى سبيل محبوبته ، أما عند شعوب البحر الابيض المتوسط فتضحى الفتاة فى سبيل حبيبها . لماذا هذا الاختلاف ؟ لان النظم الاجتماعية مختلفة وهى التى تنعكس على الاسطورة وتلونها بلونها الخاص :

وفى الواقع ليست المرأة عند شعوب البحر الابيض المتوسط شخصا هاما . أما الرجل فهو الذى يكون الاسرة بمعناها الرومانى « genos » وعليه تقع تبعة بقائها خلال التاريخ ، وهو كاهنها الدينى الذى تحل فيه أرواح الاسلاف ــ وهو من جهة أخرى سيد الاسرة مع عبيدها ، والمحارب فى سبيلهم جميعا اذا ما شنت الدولة حربا . واذن فحياته تهم الاسرة والدين والدولة معا فى حين أن حياة المرأة لاتهم المجتمع أو الالهة ولذلك تقع عليها التضحية أو الفداء .

أما الحضارات السلافية والجرمانية والشمالية على وجه العموم فقد كانت على العكس من ذلك ضعيفة البنيان الدينى والاجتماعى ، ولم يكن فيها للرجل غير قوة زراعية فحسب : فلم يكن كاهنا ولم تحل فيه روح الاسلاف . فكان بذلك مجردا عن كل قيمة عليا ترفعه فوق مستوى المرأة ، على حين أن المرأة تمتاز بسحرها ودلالها ومن ثم وجب على الرجل التضحية فى سبيلها . واذن فالنظم الاجتماعية وحدها هى التى تلقى ضوءا على الاسطورة .

وهناك أسطورة عالمية أخرى هى أسطورة قتال الابن والاب التى درسها فان جنيب السابق الذكر . ومؤداها أن بطلا كثير الاسفار تسوقه قدماه الى بلد فتصل شهرته الى ملكها الذى يستضيفه فى بيته . فتراه ابنته الجميلة وتطلب اليه أن تلد منه بطلا مثله . ويغادرها البطل بعد أن يترك علامة لابنه (غير الشرعى) . وعندما يبلغ الابن رشده ينشد معرفة أبيه فيجوب

بدوره البلاد ويشتبك فى نزال مع بطل مثله هو أبوه ولكنه لايعرف ذلك الا عند احتضارهما أو احتضار أحدهما بسبب ذلك القتال .

تلك أسطورة لها نظيرها فى أقاصيصنا المصرية ، وهى عالمية فيما يختص بالقتال بين الاب والابن على الاقل . ومثل هذا القتال فى ذاته أمر ممكن فى كل المجتمعات والحضارات وخاصة فى الاوساط الحربية والاقطاعية التجارية ، وقد سجل التاريخ اقتتال ملوك تربط بينهم رباط الابوة والبنوة . ولكن الامر الذى ليس عاما أو شائعا هو أنه حول تلك النواة البسيطة يوجد الكثير من التفاصيل الدالة على نظم جماعة بعينها دون أخرى . مثلا طلب الفتاة ابنا غير شرعى وسفر البطل مباشرة بعد معاشرته لها انما يعبر عن حالة اجتماعية كانت المرأة فيها سيدة متصرفة ومستقلة بحيث تختار من تشاء من الرجال . وتلك حالة معروفة فى كل الحضارات التى كانت فيها البنوة « أمية » (نسبة الى الام) . لقد أثبت علم الاجتماع منذ أواسط القرن التاسع عشر بما لايدع مجالا للشك أن نقطة البداية فى أنساب الابناء هو النسب الامى ، ولا يزال مثل ذلك النسب مشاهدا عند بعض الشعوب البدائية العائشة الآن . وفى بعض شعوب أفريقيا ليس الزواج ثابتا بل مؤقتا ، أعنى أن الرجل يعيش فى قبيلة امرأته خادما فى بيتها حتى اذا سئم الخدمة والعبودية عاد الى قبيلته دون أولاده وزوجه . واذن فحادث عودة البطل بعد معاشرة زوجية مؤقتة دون مطاردته وتعقبه لايذائه وهو الحادث الذى يتكرر فى مختلف صور هذه الاسطورة ليس اختراعا شعريا ولا تهجما على التقاليد وانما هو تراث وذكرى متخلفة عن نظم وعادات قديمة يمكن أن تشاهد حاليا فى بعض الشعوب .

لقد انتقلت الاسرة بفضل ثبات الشعوب فوق الارض وتدهور النظام الطوطمى وقيام الرجل بوظائف دينية واجتماعية هامة من « البنوة الامية » الى « البنوة الابوية » . وهذا مايشاهد بوضوح محكم فى روما القديمة . ومنذ هذا التحول الى النسب الابوى أصبح الرجل هو الذى يختار زوجه ، كما أصبح الزواج وخاصة اذا اعترفت به الهيئة الدينية ثابتا لاتنفصم عراه

بسهولة • ولقد فرض القانون الرومانى فوق هذا المساكنة الزوجيــة فى منزل واحـد • ولكن يجب ألا ننسى أن هـذا التحول لم يكن مفاجئــا ولا سريعا ، بل كان لابد من وجود فترة طويلة تداخل فيها النظامان القديم والحديث ، والنسب الامى والنسب الابوى • وهذا ما يفسر لنا كيف أنه فى الكثير من روايات هذه الاسطورة حيث تؤكد البنوة الاميــة وحيث يجهل الابن أباه لايرضى الابن أن يظل مجهول الاب معروف الام وحدها، فيبحث جاهدا عن أبيه • بل نجد أحيانا فى بعض روايات هذه الاسطورة أن الابن يحنق على أمه ويحتقرها • مما يدل على أن هذه الاسطورة على اختلاف رواياتها انما نبتت فى عصر انتقال من البنوة الاميــة الى البنوة الابوية • أما اقتتال الابن مع أبيه فيكون حينئــذ مجرد رمز للصراع بين النظم الامية التى فى طريقها الى الزوال ، والنظم الابويةالآخذة فىالاستقرار فى المشاعر والاذواق • على كل حال يبدو أن ماوصل اليه علماء الاجتماع من أنظار فى تطور نظام الاسرة أو نظام البنوة يلقى ضوءا ناصعا على هذا النموذج من الاساطير •

هناك نموذج آخر من الاســاطير يسمى باسم « أوديب » لان هـذه القصة أشهر ما ينتمى اليه وهى قصة مختلفة الروايات اختــلافا كبيرا فى فولكلور الســلافيين وسكان البحر الابيض المتوسط وفيها يولد الابن عن زواج مستقر ثابت وليس عن مجرد لقاء عابر بين ذكر وأنثى كمــا فى النموذج السابق ، ومن ثم يمكن القول بأن الحالة الاجتماعية التى تنتمى اليها هذه الاسطورة وتعكسها لنا انما هى حالة البنوة الابوية التى انتقلت اليها المجتمعات الانسانية فى مرحلة متأخرة من مراحل تطورها •

لقد استغلت هذه الاسطورة فى دراسات متنوعة ، ميتافيزيقية ونفسية، منذ كتابات باشوفن فى القرن الماضى الى كتابات فرويد المعاصرة • ولقد تناولها أيضا علماء الاجتماع فدرسها هاريسون Harisson (فى TheSocial Origin ofGreek Religion) فى محيط الحضارة اليونانية كما درسها جورج دوميزيل Dumezil (Jupiter,Mars,Quirinus,Harace et les Curiaces) فى محيط

الحضارة الرومانية ، وفسرها كل منهما تفسيراً مختلفا باختلاف الحضارتين ولكنه اجتماعى على كل حال .

يبدأ هاريسون من فكرة الموازاة التامة بين تطور الديانة اليونانية وتطور المجتمع اليونانى . ولقد مرت الديانة اليونانية بدورين : أولهما الديانة البدائية المتصلة اتصالا وثيقا بالنسب الامى ، والثانى الديانة الاولمبية القائمة على النسب الابوى . أما أن الديانة البدائية كانت أمية فتثبته نقوش فى جدران معبد الكابيتول حيث نرى الام ثم الابن الالهى (Hermis) تلده أمه ، ثم تغذيه عنزة هى طوطم الام ، ثم هو يمتطى العنزة كما لو كان فوق عرش . أما الاب (Kronos) فلا أثر له فى هذه الاسرة . ويستخلص هاريسون أن هذه القصة تمثل عصرا لم تكن للابوة فيه اعتبار اجتماعى وكان المجتمع العائلى يقوم على البنوة الامية وحدها . وعند بداية ظهور دور الاب (كرونوس) فى ذلك المجتمع الامى كان دوره مضحكا : فهو رغم كونه أبا كان يقوم بوظيفة أم لان صوره الاولى كانت ذات طابع نسائى ، فجسمه نسائى ، وكان يحمل بين ذراعيه الابن الالهى ويعنى بشئونه عناية أم حقيقية ، وبالجملة هو لايشبه زيوس (Zeus) فى الديانة الاولمبية .

وعلى العكس من ذلك كانت الديانة الاولمبية معبرة عن أسرة أبوية . فزيوس يمثل الاب والسيد والاله . وهو فاتح جاء من الشمال ليأخذ عنوة « هيرا » (Hera) أميرة البلاد . كان مستبدا وقويا وغضوبا وشجاعا ، وهو حارس القوانين وكاهن المعبد وحامى الاولمب ورب الاسرة .

كيف نفهم اجتماعيا هذين الوضعين المختلفين للاب ومكانته فى الاسرة؟ هنا يلجأ هاريسون الى أعياد اليونان : أعياد Tripatores وأعياد Apatouria التى تمثل نظم اجتماعية مختلفة فيبين أنه فى الاعياد الاولى يصلى الرجال لكى يلدوا هم أنفسهم أولادا . لقد كان يهولهم أنهم لايشاركون النساء فى الولادة ويتمنون لو استطاعوا أن يلدوا كما تلد النساء . فكأنهم بذلك

كانوا يشعرون هم أنفسهم بعـدم أهميتهم بالنسبة الى المرأة فى أحضـان الاسرة ، وبذلك لم يكونوا ركنا من أركانها . أما الاعيـاد الثانية فتمثل انتصار الاب والبنوة الابوية ، وغرضها الوحيد الاحتفال بالبنوة الابوية : ففيها تمجد عشيرة الاب أعنى قرابة الدم الابوى ، وتحرق البخور لزيوس وابنته أثينا Athena وابنه ابولون Apolon الذين يؤلفون ثلاثتهم فقط (دون الام) نموذج الاسرة التامة السعيدة ، ويؤيد هاريسون رأيه بما كتبه المؤلف اليونانى القديم اشيل Eschyle ى (Eurmerides) حيث يقول أن الام لاقرابة لها بأولادها واذا كانت بلاد اليونان كلها لاتفصل أثينا عن عن أخيها ابولون فما ذلك الا لكونهما من أب واحد فحسب . وكأنما الام بذلك غير موجودة . وفى الواقع تذهب الخرافات اليونانية الى أن أثينا انما نبعت من رأس زيوس وحده دون حاجة الى أم .

فاسطورة أوديب تعكس لنا اذن هذا المجتمع الابوى الذى تطورت اليه بلاد اليونان واستأثر الاب فيه بكل شىء فى الاسرة بحيث يحس فيه الابن أوديب حنينا ملحوظا الى أمه المبعدة عن نطاق الاسرة مما فسره فرويد تفسيرا جنسيا فحسب فى حين أن الحياة الاجتماعية وحدها هى التى تلقى الضوء كله على هذا التعلق الخفى بالام كما رأينا .

وفيما يختص بروما جاء دوميزيل بتفسير لقصـة « هوراس » (التى تقابل أوديب اليونانية) على نحو يختلف عما تقدم . فعنده أن الاساطير الرومانية ليست الا صدى لحالة اجتماعية « هندو أوروبية » وهى حالة انقسام المجتمعات الهندو أوروربية الى طبقـات ثلاث : (١) رجال الدين (٢) المحاربون (٣) الزراع والرعاة . وهو انقسام له أثره الواضح أيضـا فى ثلاثية الالهة الرومانية : جوبتر ، ومارس ، وكويرينوس ، الذين يمثلون الطبقات الثـلاثة على الترتيب ، كما له أثره أيضـا فى تـتابع ملوك روما القديمة : فروميلوس (Romelus) يمثل الطبقة الاولى ، وتولوس (Tullus) الثانية ، وتاتيوس (Tatius) الثالثة . وعلى ضوء هذا الانقسام الطبقى الذى يهيمن على كل النظم الرومانية يرى دوميزيل أن قصة هوراس انمـا

هى ابراز أهمية الوظيفة الحربية التى يقوم بها الابن (هوراس) وبالتالى الطبقة الثانية ودورها فى انشاء المجتمع الرومانى .

ويبدو أن مثل هذا التفسير الاجتماعى فيه تخريج بعيد ، ولربما كان من الابسط أن تضاء قصة هوراس كما اضيئت قصة أوديب اليونانية بفكرة انتصار المجتمع الابوى انتصارا حاسما فنرى حينئذ ما قد يدفع الابن الى مقاومة أبيه المستبد حنانا بأمه التى لم تعد لها مكانة ما فى أحضان الاسرة .

يمكن أن نشير أخيرا الى نموذج أسطورة ايروس (Eros أو الحب) وبسيكه (Psyché أو النفس وهو أيضا اسم فتاة) الموجودة عند كل الشعوب والتى ابدعت ريش الرسامين فى ابرازها على لوحات خالدة . ومؤدى القصة اليونانية أن بسيكه تحترق حبا لزوجها المتخفى الذى لايزورها الا فى ظلام الليل وتود لو أنها عرفته فى وضح النهار . وعندما استبد بها حب التطلع ودفعتها اختها الحاسدة لها على حبها وأقدمت على سؤال زوجها عن اسمه فان زوجها ـ وهو الحب بعينه ـ هجرها نهائيا وتركها فى آلام مبرحة .

تلك هى أيضا القصة التى سمعناها مرارا فى أعماق الصعيد عن الزواج « بجنية » أو « جنى » والتى ترد أيضا فى أقاصيصنا الشعبية القديمة .

فقصة بسيكه وقصة الزواج بجنية أو جنى التى تشابهها كثيرا ، يمكن تفسيرهما أيضا على ضوء ماكشفه لنا علم الاجتماع عن فكرة « المحرمات» أو « التابو » Tabous عند الشعوب البدائية . والواقع أنه لاتوجد محرمات أكثر عددا وتعقيدا عند الشعوب البدائية من تلك التى تخص تحديد العلاقات الجنسية بين الرجل والمرأة . فعند بعض الشعوب يحرم على الرجل والمرأة الحديثى الزواج أن يتلاقيا فى وضح النهار . وأحيانا كثيرة ليس للمرأة حق النطق باسم زوجها . وعند قبائل الزولو تتحاشى

المرأة بأعجوبة فائقة أن تنطق حتى بالمقاطع التى يتألف منها اسم زوجها • وفى قبائل أخرى لايصح للرجال الذهاب الى أكواخ نسائهم الا فى جنح الظلام • مثل تلك المحرمات وغيرها انما يراعى أداؤها حرفيا فى المجتمعات البدائية ، واذا خرج عليها الانسان حلت به لعنة الطوطم (Totem) وهذا هو ما حل ببسيكه عندما خرجت على المحرمات وأرادت أن تنطق بالاسم •

تلك أمثلة يسيرة من نماذج الاساطير التى صنفها الفولكلوريون ، أردنا أن نبين بصددها أن الاقاصيص الشعبية منظومة أو منثورة ليست من اختراع خيال شعرى ، وليست رموزا لتعاليم يراد اخفاؤها ، وليست أيضا مجرد أحلام تعرض عن النقائص المحتومة على الانسان ، ولا يمكن تفسيرها تفسيرا علميا سليما على ضوء علم النفس أو علم الفلك أو غير ذلك مما لجأ اليه بعض المفكرين ، وان الوسيلة العلمية السديدة الى فض أسرارها وادراك وظيفتها انما هو علم الاجتماع • لقد بينا بمناسبة كل نموذج أسطورى أى النظم أو الحالات الاجتماعية يشف عنه النموذج ويرتبط النموذج به ارتباط النتيجة بمقدمتها أو المعلول بعلته • فأثرنا من علم الاجتماع بعض المسائل (كالنسب الامى والنسب الابوى والطبقات والتابو والمحرمات وغير ذلك) وأومأنا اليها عابرين دون الوقوف عندها لان هنا فى غير موضعه ، ولاننا انما هدفنا قبل كل شىء الى بيان ضرورة استكمال مناهج الفولكلور بمرحلة « تفسيرية » تتوج تلك المناهج وتلقى ضوءا على ظلام الاساطير ، واعتقدنا أننا وجدنا تلك المرحلة التفسيرية فى ما يقدمه لنا علم الاجتماع المعاصر من حلول ومسائل ، وهذا هو الطريق القويم الذى سلكه كل من هاريسون ودوميزيل بصفة خاصة ويتحتم على الفولكلوريين اتباعه منذ الآن • كذلك هدفنا من وراء هذا كله التنبيه الى العناية بجمع الفولكلور المصرى على ضوء المبادىء المنهجية التى ذكرناها •

م • ث • الفندى

تخريج نصوص ارسطالية

فى كتاب الحيوان للجاحظ

للدكتور طه الحاجرى

اذا كان الجاحظ يعد ، بحق ، من أكبر شخصيات عصره تمثلا لثقافة هذا العصر واحاطة بها وتمثيلا لها فى وجوهها المختلفة ، فان كتابه الحيوان يعد من أول آثاره وفاء بهذه الناحية ، حتى لتعد دراسته وتبين مصادره من أهم مايكشف لنا عن صور هذه الثقافة واتجاهاتها وينابيعها ، ومدى ما تأثر به العقل الاسلامى فى هذه المرحلة من تاريخه .

ومن بين المصادر التى صدر الجاحظ عنها فى وضع كتابه هذا كتاب الحيوان لأرسطو . وكان هذا الكتاب من أوائل الكتب التى نقلت الى العربية ، وقد ظفر غير مرة بعناية المترجمين به . ذكر ذلك ابن النديم فى الفصل الذى عقده لأخبار أرسطاليس وترتيب كتبه ، قال : « الكلام على كتاب الحيوان ، وهو تسع عشرة مقالة نقله ابن البطريق . وقد يوجد سريانيا نقلا قديما أجود من العربى . وله جوامع قديمة ، كذا قرأت بخط يحيى بن عدى فى فهرست كتبه . ولنيقولاوس اختصار لهذا الكتاب ... وقد ابتدأ أبو على بن زرعة بنقله الى العربى وتصحيحه » «[1]» .

---

(١) الفهرست ص ٣٥٢ ط مصر ، وهو نص ما ذكره القفطى عنه (اخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ٣١ ط مصر ، ١٣٢٦ هـ) ، الا ان عبارة ابن النديم تدل على أن ابن زرعة لم يكن قد اتم ترجمته بعد ، ولذلك لانجد لهذه الترجمة ذكرا فى بيان كتبه كما اورده ، فأما القفطى فتدل عبارته على أنه اتمها ، ويختم نصه بقوله : « وملكت منه نسخة والحمد لله تعالى » . وكذلك يذكر هذه الترجمة بين كتبه التى ترجمها عن ارسطاليس ، كما يذكر بينها أيضا كتاب منافع اعضاء الحيوان بتفسير يحيى النحوى (ص١٦٤) .

أما أبو على بن زرعة هـذا فهو عيسى بن اسحاق بن زرعة ، أحد المتقدمين فى علم المنطق وعلوم الفلسفة والنقلة المجودين ، كما يذكر فى صفته القفطى وابن أبى أصيبعة ، وكان من أهل القرن الرابع «[١]» . فلم تكن ترجمته اذن لكتاب الحيوان هى الترجمة التى عرف بها الجاحظ هذا الكتاب وصدر بها عنه ، فاذا لم يكن لحيوان أرسطو ترجمة أخرى غير ماذكر ابن النديم تعين أنه لم يكن هناك وقت أن كتب الجاحظ كتابه غير ترجمة ابن البطريق .

وأما ابن البطريق المقصود هنا فهو أبو زكريا ، يحيى (أويوحنا) بن البطريق . كان أبوه أحد النقلة فى أيام المنصور ، وكان هو فى جملة الحسن بن سهل ، كما يقول صاحب الفهرست . فأما القفطى فيذكر انه مولى المأمون ، ولا تعارض ، وأنه « كان أمينا على الترجمة ، حسن التأدية للمعانى ، الكن اللسان فى العربية ، وكانت الفلسفة أغلب عليه من الطب ، وهو تولى ترجمة كتب ارسطاليس خاصة ، وترجم من كتب بقراط ، مثل حنين وغيره » «[٢]» . وأما ابن أبى اصبيعة فيقول فى صفته انه « كان لايعرف العربية حق معرفتها ، ولا اليونانية ، وانما كان لطينيا يعرف لغة الروم اليوم وكتابتها ، وهى الحروف المتصلة لا المنفصلة اليونانية القديمة » «[٣]» ولاندرى مبلغ ما فى هذا القول من الصحة أو الدقة .

ويذكره الجاحظ فى بعض الفصول التى صدر بها كتاب الحيوان أول من يذكر من مترجمي أرسطاليس ، اذ يقول: « فمتى كان رحمه الله تعالى ابن البطريق وابن ناعمه وأبو قره وابن فهريز وتيوفيلى وابن المقفع مثل

---

(١) يختلف القفطى وابن اصبيعة فى تاريخ مولده ووفاته ، فبينما يذكر القفطى ان مولده سنة ٣٣١ ووفاته سنة ٣٩٨ يذكر ابن ابى اصبيعة انه ولد سنة ٣٧١ ومات سنة ٤٤٨ ، وهو يقول فى سياق ترجمته له انه كان كثير الصحبة والملازمة ليحيى بن عدى (عيون الانباء ١ : ٢٣٥) ، ويحيى بن عدى توفى سنة ٣٦٤ . فالصحيح اذن هو ما ذكره القفطى .

(٢) اخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ٢٤٨ — (٣) عيون الانباء ١ : ٢٠٥

ارسطاليس » «(١)» ، وكل هؤلاء يذكرون بترجمتهم لأرسطو خاصة، وينفرد ابن البطريق منهم بأنه هو الذى ترجم كتاب الحيوان ، مما يظاهر افتراض القول بأن الترجمة التى كانت بين يدى الجاحظ لحيوان أرسطو هى ترجمة أبى زكريا ابن البطريق هذا

ولم يكن موقف الجاحظ من هذه الترجمة موقف التسليم لها ، فقد كان يحول دون ذلك رأيه فى الترجمة عامة ، ومبلغ ماتستطيع أن تؤديه عن الاصل ، وكان يعرف أسباب النقص التى تعتور هذا العمل ، وتقف به دون الغاية المرجو لها ، من قصور المعرفة ، وضعف الآلة ، ثم ما يعرض للكتب القديمة من أسباب المسخ والتشويه

فعنده « ان الترجمان لايؤدى ابدا ماقال الحكيم ، على خصائص معانيه، وحقائق مذاهبه ، ودقائق اختصاراته ، وخفيات حدوده ، ولايقدر أن يوفيها حقوقها ، ويؤدى الامانة فيها ، ويقوم بما يلزم الوكيل ، ويجب على الجرى . وكيف يقدر على أدائها وتسليم معانيها ، والاخبار عنها على حقها وصدقها ، الا أن يكون فى العلم بمعانيها ، واستعمال تصاريف ألفاظها ، وتأويلات مخارجها ، مثل مؤلف الكتاب وواضعه ... ولابد للترجمان من أن يكون بيانه فى نفس الترجمة فى وزن علمه فى نفس المعرفة ، وينبغى أن يكون أعلم الناس باللغة المنقولة والمنقول اليها ، حتى يكون فيهما سواء وغاية . ومتى وجدناه أيضا قد تكلم بلسانين علمنا أنه قد أدخل الضيم عليهما ... وكلما كان الباب من العلم أعسر وأضيق ، والعلماء به أقل ، كان أشد على المترجم، وأجدر أن يخطىء فيه ، ولن تجد البتة مترجما يفى بواحد من هؤلاء العلماء » «(٢)» .

فهذه هى شرائط الترجمة الصحيحة المؤدية لحقائق الاصل المنقول: معرفة دقيقة أصيلة محيطة بالموضوع ، وعلم تام بالغ باللغة المنقولة والمنقول اليها ، وهذا ما لاسبيل عند الجاحظ اليه ، فاذا أضيف الى ذلك أن الكتاب

---

(١) الحيوان ١ : ٧٦ ـ (٢) المصدر نفسه ١ : ٧٥ ـ ٧٧ .

القديم «قد تداولته اللغات واختلاف الاقلام وأجناس خطوط الملل والامم» فصار لايؤمن عليه ضروب التبديل والفساد . « ولايزال الكتاب تتداوله الايدى الجانية ، والاعراض المفسدة ، حتى يصير غلطا صرفا وكذبا مصمتا . فما ظنكم بكتاب تتعاقبه المترجمون بالافساد ، وتتعاوده الخطاط بشر من ذلك أو بمثله » «[١]» كما يقول الجاحظ ، فقد أصبحت هذه الكتب المترجمة عنده مغمورة بالريب ، لايسكن اليها ، ولا يطمئن الى صحتها .

وكذلك كان رأيه فى مترجم حيوان أرسطو خاصة . نجد هذا فى سياق كلامه عن بعض الدعاوى فى السمك مما جاء عن أرسطو وغيره ، وذلك فى تعليقه على خبر من هذا القبيل محكى عن اياس بن معاوية ،أخطأ فيه الخطأ البين ، اذ يقول فى هـذا التعليق : « فكيف أسكن بعـد هذا الى أخبار البحريين وأحاديث السماكين ، والى ما فى كتاب رجل لعله أن لو وجد هذا المترجم أن يقيمه على المصطبة ، ويبرأ الى الناس من كذبه عليه ومن افساده معانيه بسوء ترجمته » «[٢]» .

ولعل هذا هو وجه قوله فى موضع آخر : « وقد سمعنا ما قال صاحب المنطق من قبل (يعنى : فى الخلق المركب) . وما نظن بمثله أن يخلد على نفسه فى الكتب شهادات لايحققها الامتحان ، ولا يعرف صدقها أشباهه من العلماء » «[٣]» .

ولكن ارتياب الجاحظ فى هذه الصورة التى بين يديه من كتاب أرسطو لم تمنعه من الرجوع اليها فى تأليف كتابه فقـد أراد أن يكون كتابه هذا صورة مجتمعة للمعارف المختلفة فى الحيوان ، ما صح منها عنـده وما لم يصح ، وحسبه أن ينقد مايراه خطأ ، ويذكر الشبهة حين تعرض له

وقد تتبعنا فى هـذا البحث النصوص التى أخذها الجاحظ من كتاب الحيوان لأرسطو ، وتعرفنا مواضعها من هذا الكتاب ، وأخذنا فى المقارنة

(١) المصـدرنفسه ١ : ٧٩ ــ (٢) المصدر نفسه ٦ : ١٩ ــ (٣) المصدر نفسه ١ : ١٨٥

بين كل منها فى الصورة التى أوردها الجاحظ والصورة التى جاءت فى كتاب أرسطو ، على النحـو الذى وصـل الينا . وكان من حق البحث العلمى الرجوع الى الاصـل اليونانى ، ولكنا لم نجـد بدا من الاكتفاء فى هـذا بالترجمة الفرنسية التى قام بها العلامة سانتلير Barthélemy Saint Hilaire «[1]»

وسنرى أن هذه المقارنة تكشف لنا عن كثير من المسائل الجديرة بالبحث ، وأنها تصحح كثيرا من الاخطاء التى وقعت فى النشرتين اللتين بين أيدينا من حيوان الجاحظ «[2]» ، كما أنها تتضمن فوق هـذا مايفيد الباحث فى نص أرسطو ، وما قد يجد فيه أداة جديدة لتحرير عبارته ، والموازنة بين قراءاته المختلفة فى النص اليونانى

وهاهى ذى نصوص أرسطو مرتبة حسب مواقعهـا فى كتاب الحيوان للجاحظ :

الجزء الاول :

نقل الجاحظ عن أرسطو فى الجزء الاول من الحيوان غير مرة ، وان تكن الطبعة الثانية لاتقدم لنا الا قطعة مبتورة ، هى هذا النص الذى أورده عنه فى سياق كلامه عن الخلق المركب :

١ ـ « وزعم صـاحب المنطق أن أصنافا أخر من السباع المتزاوجات المتـلاقحات ، مع اختـلاف الجنس والصـورة ، معروفة النتـاج ، مثل الذئاب التى تسفد الكلاب فى أرض رومية . قال : وتتولد أيضا كلاب سلوقية من ثعالب وكلاب . قال : وبين الحيوان الذى يسمى باليونانيـة

---

(١) يقع حيـوان ارسطو كما ترجمـه سانتلير فى هـذه الكتب الثلاثة : Histoire des animaux; Traité des parties des animaux et de la marche des animaux; Traité de la génération des animaux

وقد طبعت فى باريس فى سنة ١٨٨٣ ، ١٨٨٥ ، ١٨٨٧ ـ (٢) الطبعة الاولى بين سنة ١٣٢٣ وسنـة ١٣٢٥ هـ ، والطبعة الثانيـة تحقيق وشرح الاستاذ عبد السلام هرون ، ط مصطفى البابى الحلبى بين سنة ١٣٥٦ (١٩٣٨ م) وسنة ١٣٦٤ (١٩٤٥ م)

(طاغريس) وبين الكلب تحدث هذه الكلاب الهندية . قال : وليس يكون ذلك من الولادة الاولى » «[١]» .

وينتهى النقل عن أرسطو فى هذه الطبعة عند هذا الحد ، أما فى الطبعة الاولى فيمضى النص محكيا عن أرسطو هكذا : « وزعم أن نتاج الاولى يخرج صعبا وحشيا لايألف ولا يؤلف : وزعم أن الكلبة تعرض لهذا السبع حتى تلقح ، ثم تعرض لمثله مرارا ، حتى يكون جرو البطن الثالث قليل الصعـوبة يقبل التلقين . وأنهم يأخذون اناث الكلاب ويربطونها فى تلك البرارى ، فتجىء هذه السباع وتسفـدها . وليس فى الارض انثى يجتمع على حب سفادها ، ولاذكر يجتمع له من النزوع الى سفاد الاجناس المختلفة، أكثر فى ذلك من الكلب والكلبة . قال : واذا رابطوا هذه الكلاب الاناث فى تلك البرارى فاذا كانت هذه السباع هائجة سفدتها ، وان لم يكن السبع هائجا فالكلبة مأكولة » «[٢]» .

وهـذا الجزء الثانى من النص فصلت الطبعـة الثانية بينه وبين الجزء الاول ، اعتمادا على احـدى المخطوطات التى اعتبرها الناشر أجود النسخ وأصحها ، وهى مخطوطة كوبريلى ، بما يجعـل الجزء الاول هو وحـده المروى عن أرسطو . أما الجزء الثانى فقد صـدر القول بأن نتاج الاولى يخرج صعبا وحشيا الخ بهذه العبارة : « قال أبو عثمان عن بعض البصريين عن أصحابه ، قال : وزعموا ... » ، كما وضع بين يدى سائر النص بعد ذلك هذه العبارة : « وزعم لى بعضهم عن رجـل من أهل الكوفة من بنى تميم .. »

ويقابل هذا النص من حيوان أرسطو ماجاء فى الكتاب الثامن من تاريخ الحيوان ، وهاهو ذا منقولا الى العربية عن الترجمة الفرنسية لسانتيلير :

---

(١) ١ : ١٨٣ – ١٨٤

(٢) ١ : ٨٥

« وهناك حيوانات تتولد من اختــلاط جنسين مختلفين ، ففي قورينا (Cyrènes) تتسافد الذئاب وأناث الكلاب فتنتج ، وكلاب لكونا (Laconie) تجيء من ثعلب وكلب ، ويؤكدون أيضــا أن كلاب الهند تتولد بين النمر والكلبة ، ولكن ذلك لايكون فى أول تناج ، بل فى الجيل الثالث ، لأن تناج الجيل الاول ما يزال بعد حيوانا أشقر اللون . وهم لذلك يذهبون بأناث الكلاب الى البرية ، ويربطونها هنالك ، وكثيرا ما تفترسها النمور قبل أن تجد واحدا منها تدفعه اليها الرغبة الملحة فى السفاد » «[1]» .

وأول ما يبدو من المقارنة بين نص أرسطو كما أورده الجاحظ ، ونصه كما نقله سانتيلير أنه فى العربية مبسوط وفى اليونانية موجز . ولكن مهمـا يكن من أمر هذا الخلاف ، فان النص كما جاء فى حيوان أرسطو لايدع شكا فى أن حق النص الذى يرويه الجاحظ أن يكون كما جاء فى الطبعة الاولى وأن مازادته الطبعة الثانية عن مخطوطة كبريلى مقحم لاوجه له .

والشيء الآخر الذى تدل عليه المقارنة هو أن كلمة « رومية » ليست الا تصحيفا لكلمة « قورينة » كما أن كلمة سلوقية انما هى كذلك تصحيف لكلمة « لقونة »

على أن هنالك فى هــذا الجزء الاول مواضع يبدو أن الجاحظ صدر بمعارفه فيها عن حيوان أرسطو ، وان لم تجيء مسبوقة بالنسبة اليــه ، كما هو شأنه ، من ذلك بعض حديثه عن الخصاء ، كقوله :

٢ — « ومتى خصى قبل الانبات لم ينبت ، واذا خصى بعد استحـكام نبات الشعر فى مواضعــه تساقط كله الا شعر العــانة ، فانه وان نقص من غلظه ومقدار عــدده فان الباقى كثير ، ولايعرض ذلك لشعر الرأس ، فان شعر الرأس والحاجبين وأشفار العينين يكون مع الولادة » «[2]» .

---

(1) Histoire des animaux, v. 3, p. 120 - 121

(٢) ١ : ١١٣ — ١١٤

فقارئ هـذا النص ، وان لم يكن مسبوقا بما يدل على حكايته عن أرسطو ، لايملك الا أن يقف امام الشبه القوى بينه وبين قول أرسـطو فى الفصل السابع والثلاثين من الكتاب التاسع من تاريخ الحيوان ، اذ يقول فى سياق الكلام عن الظواهر التى تنشأ عن خصاء بعض انواع الحيوان :

« ومثل هـذا يحدث حتى للرجال ، فاذا بترت أعضاؤهم التناسلية فى طفولتهم ، فان الشعر الذى ينبت بعـد الولادة لاينمو ، وكذلك الصوت لايتغير ، بل يبقى له رنينه الحاد ، أما اذا خصى الرجال بعد البلوغ ، فان هذا الشعر يسقط ، الا شعر العانة ، فانه يبقى ، وان يكن يقل ويضعف ، أما شعر الولادة فلا يختفى ، اذ أن الخصى لايصيبه الصلع مطلقا » «[1]»

وهكذا نرى أن النص يكاد يكون واحدا فى حيوان الجاحظ وحيوان أرسطو ، الى الحد الذى يبعد فيه لدينا أن يكون شيئا من قبيل التوارد ، ويحتمل معه عندنا احتمالا قويا أن يكون لفظ النسبة قد سقط من النسخ التى صدرت عنها النسخة التى بين أيدينا . وذلك أمر غير قليل .

الجزء الثانى :

وفى الجزء الثانى من حيـوان الجاحظ كثير من النصوص المنقولة عن حيوان أرسطو

٣ـ قال : « وزعم صاحب المنطق أن الكلاب اذا كان فى أجوافها دود أكلت سنبل القمح فتبرأ . وزعم أن الكلاب تأتى حشيشة تعرفها بعينهـا ، فتأكل منها فتبرأ » «[2]» .

وهذا النص مؤلف ـ كما نرى ـ من جزءين . وكلاهما يقع فى الفصل السابع من الكتاب التاسع ، من تاريخ الحيوان ، ولكن غير متجاورين

---

(١) v. 3, p. 292-293 ـ (٢) ٢ : ٥٠ .

فأما الجزء الأول فيقع فى الفقرة السادسة من ذلك الفصل ، كما هو فى هذه الترجمة العربية التى أوردها الجاحظ ، حتى لتلتقى الترجمتان التقاء تاما :
«Quand les chiens ont des vers, ils mangent du blé en herbe (١)
وأما الجزء الثانى فيقع فى الفقرة الثانيـة من هـذا الفصل فى تطابق يكاد يكون تاما : «Les chiens malades savent se faire vomir en allant manger de certaine herbe» : (٢)
لولا أن النص العربى لم يتضمن معنى القىء ، وليس يبعد عندى أن تكون كلمة «بعينها» فيه مصحفة عن : «تقيئها»

ويلى هذه الفقرة فى حيوان الجاحظ فصل عقده عن عداوة بعض الحيوان لبعض ، ونقل معظمه عن حيوان أرسطو . قال :

٤ ــ « وزعم صاحب المنطق أن العقاب تأكل الحيات ، وان بينهما عداوة ، لان الحية أيضا تطلب بيضها وفراخها . قال : والغداف يقاتل البومة ، لان الغداف يخطف بيض البومة نهارا ، وتشد البومة على بيض الغداف ليـلا فتأكله ، لان البومة ذليلة بالنهار ردية النظر ، واذا كان الليل لم يقو عليها شىء من الطير ، والطير كلها تعرف البومة بذلك وصنيعها بالليل ، فهى تطير حول البـومة وتضربها وتنتف ريشها ، ومن أجـل ذلك صار الصيادون ينصبونها للصيد . والغداف يقاتل ابن عرس ليأكل بيضه وفراخه . قال : وبين الحدأة والغداف قتال ، لان الحدأة تخطف بيض الغداف ، لانها أشد مخالب وأسرع طيرانا . وبين الاطرغلة والشقراق قتال ، لانه يقتل الاطرغلة ويطالبها ، وبين العنكبوت والعظاية عداوة ، والعظـاية تأكل العنكبوت . وعصفور الشوك يعبث بالحمار ، وعبثه ذلك قتال له ، لان الحمار اذا مر بالشوك وكانت به دبرة أو جرب ، تحكك به ، ولذلك متى نهق الحمـار

---

(١) v. 3, p. 158

(٢) v. 3, p. 156 وقد ورد هذا المعنى فى موضع آخر ، فى الفصل السابع من الكتاب الثامن ، فى سياق الحديث عن الحيوان آكل اللحم (v. 3, p. 40)

سقط بيض عصفور الشوك ، وجعلت فراخه تخرج من عشها ، ولهذه العلة يطير العصفور وراء الحمار وينقر رأسه . والذئب مخالف للثور والحمار والثعلب جميعا ، لانه يأكل اللحم النيىء ، ولذلك يقع على البقر والحمير والثعالب . وبين الثعالب والزرق خلاف لهذه العلة ، لانهما جميعا يأكلان اللحم . والغراب يخالف الثور ويخالف الحمار جميعا ، ويطير حولهما وربما نقر عيونهما ... قال : والحية تقاتل الخنزير وتقاتل ابن عرس وانما تقاتل ابن عرس اذ كان مأواهما فى بيت واحد ، وتقاتل الخنزير لان الخنزير يأكل الحيات . ويزعمون أن الذى يأكل الحيات القنافذ والاوعال والخنازير والعقبان. قال : فالحية تعرف هذا من الخنزير ، فهى تطالبه . قال: والغراب مصادق الثعلب ، والثعلب مصادق الحية ، والاسد والنمر مختلفان . قال : وبين الفيلة اختلاف شديد ، وكذلك ذكورها وأناثها ، وهى تستعمل الانياب اذا قاتل بعضها بعضا ، وتعتمد بها على الحيطان فتهدمها ، وتزحم النخلة بجنبها فتصرعها . واذا صعب من ذكورتها شىء احتالوا له حتى يكومه آخر فاذا كامه خضع أبدا ، واذا اشتد خلقه وصعب عصبوا رجليه فسكن» [1]

وهذا الفصل مأخوذ من الفصل الثانى من الكتاب التاسع من تاريخ الحيوان ، حيث تحدث أرسطو عن أسباب العداوة بين الحيوان ، ثم انتقل الى عرض طائفة من مظاهر هذه العداوة ، فقال :

«والعقاب والحية عدوان ، لان العقاب تغتذى بالحيات ... والغداف يقاتل البومة ، فاذا كانت البومة لاترى جيدا وسط النهار ، فان الغداف يأخذ بيضها ويأكله ، فاما بالليل فان البومة هى التى تأكل بيض الغداف ، فأحدهما أقوى من الآخر أثناء النهار ، والثانى أقوى أثناء الليل ... وفى النهار تطير كل صغار الطير حول البومة ، ويقال أن ذلك من أجل الاعجاب بها ، ولكنها وهى تطير حولها تنتف ريشها ، وهكذا يصطاد الصيادون صغار العصافير من كل نوع بواسطة البومة التى تجتذبها اليها . وبين الطائر

(١) ٢ : ٥٠ - ٥٣

الملقب بالشيخ (le sénateur) والغداف وابن عرس عداوة ، لان الشيخ وابن عرس يأكلان بيض الغداف وصغاره ... وبين النقار (le bic vert) والليبى والحدأة والغراب قتال ، لان الحدأة تخطف من الغراب كل ما يفترسه لنفسه ، ولأن الحدأة أشد مخالب وأسرع طيرانا .. والحرب سائدة أيضا بين العظاية (le stellion) والعنكبوت ، لان العظاية تأكله.. وبين الأجيث (l'ægithe) والحمار قتال ، واليك السبب : فالحمار يمر بالشوك يحك به قروحه ، فاذا أخذ فى التمرغ فيه ورعيه ، اسقط البيض، وتفزع الصغار فتخرج من أعشاشها ، فيطير الأجيث فوق الحمار ينقر قروحه ، ليدفع ذلك الخسران . وبين الذئب وبين الحمار والثور والثعلب عداوة . واذا كان من أكلة اللحم فهو يعدو على البقر والحمير والثعالب ، وذلك هو سبب ما بين الثعلب والزرق من عداوة ، فالزرق من أكلة اللحم وله مخالب ، فينقض على الثعلب ، ويضربه ، فيحدث له جروحا خطيرة . والغراب عدو الثور والحمار ، يطير فوقهما ويضربهما وينقر عيونهما ... والحية تقاتل ابن عرس والخنزير ، فهى تقاتل ابن عرس حين يكون كلاهما فى جحر واحد ، اذ يشتركان فى طعام واحد ، وأما الخنزير فهو يأكل الحيات، وعلى العكس من ذلك يتوافق الغراب والثعلب فى يسر .. والاسد والتوس (le thôs) عدوان لاتهدأ عداوتهما ، والفيلة تقتتل فيما بينها قتالا عنيفا ، مستعملة أنيابها ... ويستعمل الهنود الفيلة فى الحرب ذكورها واناثها، وان تكن الاناث أصغر جرما وأقل شجاعة ، وللفيل من القوة مايهدم به الجدران اذ يضربها بأنيابه الضخمة ، كما يعتمد على النخيل بجبينه حتى تنحنى ، وعندئذ يدوسها بأقدامه حتى تقع على الارض بطولها كله . وهاهى ذى الطريقة التى يصطاد بها الفيل : يطارد جماعة من الناس يركبون فيلة مروضة جسورة فيلة أخرى ، حتى اذا لحقوا بها جعلوا الفيلة التى يركبونها تضربها، حتى تخضع خضوعا تاما ، وحينئذ يركب سائق ويسوقها برمحه (sa faulx) فتذل وسرعان ما تخضع وتطيع ، وتظل الفيلة خاضعة مادام السائق راكبا ، فاذا وضع على الارض قدميه ، ظل بعضها طيعا ، ولكن الاخرى

تترك طواعيتها ، ولتذليل هـذه توثق سوقها الامامية بحبال قوية ، فتظل ساكنة » «(١)

فهذا هو نص كلام ارسطو كما تؤديه الينا ترجمة سانتيلير ، وهو – كما نرى – يتفق مع ماجاء منسوبا اليه فى حيوان الجاحظ الى حد غير قليل ، فى جملة القول ، وفى كثير من التفاصيل ، ثم يقع بينهما بعض الخلاف الذى لابد من وقوع مثله فى مثل ما نحن فيـه . والترجمة دائما عرضة لخطأ الفهم وخطأ الرأى وخطأ التعبير . والامر هنا ليس أمر الترجمة فحسب ، ولكنه فوق ذلك أمر اختلاف النسخ فى اليونانية والعربية جميعا فى العهود المختلفة المتطاولة

وقد عرفنا من قبـل سوء رأى الجاحظ فى المترجمين عامة ، ومترجم حيوان أرسطو خاصة ، وفى خلال هذا الفصل الذى أوردناه نجد شاهدا جديدا على ذلك ، اذ نجده يعبر عن ريبته فى الترجمة فى التعليق على احدى فقرات ذلك الفصل ، وهى : « وبين الثعالب والزرق خـلاف لهـذه العلة لانهما جميعا يأكلان اللحم » ، فيقول : « ولا أعرف هذا من قول صاحب المنطق ، لان الثعلب لايجـوز أن يعادى من بين أحرار الطير وجوارحهـا الزرق وحده ، وغير الزرق آكل اللحم ، وان كان سبب عداوته له اجتماعهما على أكل اللحم ، فليبغض العقـاب من الطير ، والذئب من ذوات الأربع . والثعلب الى أن يحسد ما هو كذلك أقرب وأولى فى القياس . فلو زعم أنه يعم أكلة اللحم بالعداوة ، حتى يعطى الزرق من ذلك نصيبه كان ذلك أجوز ولعل المترجم قد اساء فى الأخبار عنه »

وهكذا أنصف الجاحظ أرسطو ، اذ كبر عليه أن يخطىء صاحب المنطق فى القياس ، ورجح أن يكون مرد الامر الى اساءة المترجم فى الاداء عنه . فاذا نحن قارنا هنا بين ترجمة هذا المترجم . والنص فى هذه الترجمة الفرنسية ، وجدنا أن عداوة الثعلب للزرق لاترجع الى اجتماعهما على أكل اللحم ، كما يؤخذ من قول الترجمة العربية ، مما جعل الجاحظ يتوقف ويعترض ، فليس

---

(1) v. 3, p. 134 - 143

فى الترجمة الفرنسية ما يدل على هـذا ، وانما الامر بين الثعلب والزرق ، هو ما بين الذئب والثور ، كما رأينا فى الجملة السابقة . وليس الثور من آكلة اللحم .

ومن الخلاف الذى يلفت النظر بين النصين وضع الترجمة العربية كلمة (عصفور الشوك) فى المكان الذى وضعت فيه الترجمة الفرنسية كلمـة (ægithe) ، وقد علق سانتيلير على هذه الكلمة بأنه رأى نفسه مضطرا الى ايراد هذه الكلمة اليونانية كما هى فى الأصل ، اذ كان من غير الممكن معرفة حقيقة الطائر الذى كان يدل بهذه الكلمة عليه ، فأما الترجمة العربية فقد رأت أن الأجيث هذا يقابله فى العربية عصفور الشوك ، فهل كان لهذه الكلمة مدلول متعين فى البيئة التى كان المترجم يعيش فيها ؛ أم أنه استنتج هذا الاسم استنتاجا ووضعـه وضعا من القصة التى وردت فيه ؟ على أن أرسطو ذكر فى فصل سابق على هـذا الفصل ، عقـده للكلام على طعام العصافير ، عصفورا آخر سمـاه بما يمكن ترجمته فى العربية بالشوكى أو عصفور الشوك ، وكذلك سماه سانتيلير épinier وقال ان هذه التسمية هى ترجمة الكلمة اليونانية ، وهو انما سمى بذلك لانه يغتذى بالشوك«[1]» فهل كان ذلك مما سوغ لصاحب الترجمة العربية أن يتجوز ويطلق هـذا الاسم أيضا على الأجيث ؟

ومن هذا القبيل أيضا اطلاق الترجمة العربية كلمة (النمر) على ما أطلقت عليـه الترجمة الفرنسية كلمة (thôs . وهى الكلمة اليونانيـة نفسها أوردها المترجم كما هى ، وقال: انه لايعرف بالضبط أى شيء هذا الحيوان، ولعله ابن آوى أو شيء من فصيلة السنانير المتوحشة (civette) «[2]»

---

(1) Histoire des animaux, v. 3, p. 31

(٢) لايلبث سانتيلير أن يعدل عن هذا الرأى بعد ذلك ، اذ يقول فى بعض تعليقاته : « حسبنا زمنا طويلا أن التوس هو ابن آوى ، ولـكن يجب العدول عن هذا الفرض ، لان ابن آوى لايتخذ فراء فى الشتاء وقد يكون لنا أن نفترض انه فهد الشمال le lynx du nord ، ولكن فهد الشمـال ليس من القوة بحيث يقاتل الاسـد كما يقاتله الحيوان الذى يتحـدث ارسطو عنه » (.V 3, p. 279)

وهو على كل حال شيء غير النمر الذى أطلقته الترجمة العربية ، فهل يرجع هذا الى شيء من التسامح والمساهلة فى هذه الترجمة ، أم يرجع الى اختلاف الاصل الذى صدرت عنه ؟

على أنه يظهر لنا من مقارنة النصين ، فى هـذا الفصل ، أن الترجمة العربية موجزة مقتضبة ، تغفل الكثير اغفالا يحملها على الخطـأ فى بعض الاحيان ، على النحو الذى نراه فى الجزء الاخير من هـذا الفصل ، وهو الفقرة الخاصة بتذليل الفيلة وترويضها ، فالمدى بعيد ــ كما هو ظاهر ــ بين الترجمة العربية والترجمة الفرنسية • وكأنما كان صاحب هذه الترجمة العربية ينظر وهو يترجم ذلك الجزء الى ذلك المعنى المتداول بين النـاس هنالك ، وهو الذى عقب به الجاحظ عليه اذ يقول : « ويقال ان البعير اذا صعب وخافه القوم ، استعانوا عليه ، فابركوه وعقلوه حتى يكومه فحل آخر ، فاذا فعل به ذلك ذل » ، فهو ــ فى أكبر الظن ــ انما يخمن المعنى تخمينا ، متأثرا فى ذلك بمدركاته ، أكثر من تأثره بالنص فى نفسه •

٥ ــ « قال صاحب المنطق (فى كتابه الذى يقال له الحيوان ، فى موضع ذكر فيه الاسد) ، قال : اذا ضرب الاسـد بمخالبه ، رأيت موضع آثار مخالبه فى أقدار شرط الحجام أو أزيد قليلا ، الا أنه من داخل أوسع خرزا ، كأن الجلد ينضم على سم مخالبه ، فيأكل ماهنالك • فأما عضته فان دواءها دواء عضة الكلب » «[١]» •

والذى يقابل هذا النص فى حيوان أرسطو هو هذه الفقرة التى وردت فى الفصل الحادى والثلاثين من الكتاب التاسع ، من تاريخ الحيوان ، حيث جعل الكلام عن الاسد :

« وعضات الاسد أو تمزيق مخالبـه تحدث جروحا يخرج منهـا قيح شديد الصفرة ، لايمكن حبسه ، لا بالاربطة ولا بالاسفنج • ولكن دواءه

(١) ٢ : ٥٥

هو دواء الجروح التى تحدث عن عضة الكلب » «[١]» .

والخلاف هنا يبدو أنه خلاف لايرجع الى المسامحة والمساهلة أو شىء مما ذكرنا قبل . واذ كنا لانملك معرفة النص اليونانى الذى ترجم عنه ، فانا لانملك أن نفسر هذا الخلاف .

٦ ـ وفى عقب هذه القطعة أورد الجاحظ قطعة أخرى عن أرسطو . وسياق الكلام عند الجاحظ هو ما أشبه فيه الكلب الاسد قال : « ومما أشبه فيه الكلب الأسد انطباق أسنانه ، ومما أشبه فيه الكلب الاسد النهم ، فان الاسد يأكل أكلا شديدا ، ويمضغ مضغا متداركا ، ويبتلع البضع الكبار من حاق الرغبة ، ومن الحرص ، وكالذى يخاف الفوت » ... « قال : والاسد وان كان مما لايفارق الغياض ولا يفارق الماء فانه قليل الشرب للماء ، وليس يلقى رجعه الا مرة فى اليوم، وربما كان فى اليومين والثلاثة ، ورجعه يابس شديد اليبس متعلق ، شبيه برجيع الكلب . ويشبهه أيضا من جهة أخرى ، وذلك أنهما اذا بالا شغرا «[٢]»

ونظير هذا النص فى كتاب أرسطو هو ماجاء فى الفصل السابع من الكتاب الثامن من تاريخ الحيوان :

« والاسد من أكلة اللحم كجميع ذوات الاربع المتوحشة التى لها أسنان محددة (فى هيئة المنشار) . وهو يأكل بشره ، ويبتلع البضع كاملة دون أن يمزقها ، وهو يبقى يومين أو ثلاثة أيام دون أن يأكل ، وهو يستطيع ذلك دون عناء ، بعد أن يكون قد شبع غاية الشبع . والاسد قليل الشرب و لايلقى رجيعه الا على فترات قليلة ، كل ثلاثة أيام أو كلما وجد ذلك .

ورجيعه جاف صلب كرجيع الكلاب ، وهو يطلق رياحا شديدة النتن ، ولبوله رائحة قوية جدا . وكذلك تعرف الكلاب الشجر التى يقف الاسد عندها ، لانه يبول رافعا رجله كما تصنع الكلاب تماما » «[٣]» .

---

(١) v.3, p. 279 – (٢) ٢ : ٥٥ – ٥٦ – (٣) v. 3, p. 42-43

وليس لنا ما نعلق به على المقارنة بين هذين النصين ، الا مايبدو من أن الجاحظ تصرف فيها شيئا من التصرف ، لتساير ماهو بصـدد تقريره من من وجود المناسبة بين الكلب والاسد .

٧ ـ وقد عقد الجاحظ بعد ذلك نوعا من المناسبة بين الكلب والخنزير ، وقد بنى بعض ذلك فيما يبدو على ما أورده أرسطو فى الفصل الثامن من الكتاب الثامن من تاريخ الحيوان ، حيث جعل يتكلم عن مبلغ استفادة الخنزير من الغذاء .

قال الجاحظ : « والكلب يشبه الخنزير ، فان الخنزير يسمن فى أسبوع ، وان جاع أياما ثم شبع شبعة تبين ذلك تبينا ظاهرا » «[١]» .

وقال أرسطو عن الخنزير : « وهو أيضا أسرع الحيوانات استـفادة من غذائه وسمنا بالنسبة الى حجمه ، فحسبه ستون يوما كى يسمن ، والذين يصطنعون هذه العملية يعلمون حين يأخذونه هزيلا الى أى حد هو سريع الاسـتفادة بغـذائه ، وهم يجيعونه ثلاثة أيام كاملة قبل أن يأخـذوا فى تسمينه » «[٢]» .

فأكبر الظن عندنا أن الجاحظ صدر عن ذلك بهـذا الذى أورده عن الخنزير . ولعل اختلاف عدد الايام بين « سبعة » و « ستين » يرجع الى اختلاف القراءة أو اختلاف النسخ .

٨ ـ وفى سياق الكلام عن عظال الكلاب يقول الجاحظ :

« وزعم صاحب المنطق وغيره أن الذباب فى ذلك كالكلب » «[٣]» .

وهاهو ذا ما يقوله أرسطو فى هـذا ، فى الفصل السابع من الكتاب الخامس ، من تاريخ الحيوان اذ يتحدث عن سفاد الحشرات :

---

(١) ٢ : ٥٦

(٢) v. 3, p. 46 ـ (٣) ٢ : ٥٨

« ويمكن أن يرى هذا واضحا فى التفريق بين الذباب فى حال السفاد ، فهو لايفترق الا بعد لأى ، ذلك أن سفاده يظل أمدا طويلا جدا » «(١)»

٩ ــ ثم هانحن أولاء الآن بازاء نص يجىء فى سياق الكلام عن عجائب الحيوان وحسن تهديه والهام غريزته ، حيث يسوق الجاحظ الكلام دون أن تقدمه الاشارة الى أنه مأخوذ عن أرسطو ، ولكن الصلة بينه وبين حيوان أرسطو صلة واضحة قوية ، كما سنرى فى ايراد النصين .

يقول الجاحظ : « وأعجب من هذا الطائر الذى يقال له كاسر العظام ، فانه يبلغ من بر الفراخ كلها ، بعد القيام بشأن فراخ نفسه ، انه يتعاهد فرخ العقاب الثالث ، الذى تخرجه من عشها ، لانها أشره وأرغب بطنا ، وأقسى قلبا ، وأسوأ خلقا ، من أن تحتمل اطعام ثلاثة ، وهى مع ذلك سريعة الجزع ، فتخرج ما فضل عن فرخين ، فاذا أخرجته قبله كاسر العظام وأطعمه ، لان العقاب من اللاتى تبيض ثلاث بيضات فى أكثر حالاتها » «(٢)» .

ويقول أرسطو فى الفصل الثالث والعشرين من الكتاب التاسع ، من تاريخ الحيوان :

« والطائر الذى يسمى النسر (orfraie) كثير الرعاية لصغاره ، وهو يحصل أسباب عيشه فى يسر ، ثم يحمل اليها طعاما وفيرا ، وهو وديع جدا ، يربى ــ الى جانب تربيته صغاره ــ صغار العقاب ، فيضمهم اليه ، حين يطردهم العقاب من وكره ، اذ كان يطردهم قبل الاوان ، حين يكونون ما يزالون فى حاجة الى من يطعمهم ، وما يزالون أضعف من أن يطيروا . ويبدو أن العقاب لايدفع صغاره هكذا الا بدافع من الغيرة والانانية ، فهو غيور بطبعه ، شديد الشراسة ، قوى الشره الى فريسته ، فحين يأخذ فى الطعام يلزمه منه القدر الضخم ، وبذلك يصبح عدوا لصغاره حين يأخذون فى الكبر ، لانهم حينئذ بحيث يطعمون فيبعدهم بمخالبه ، والصغار من جانبهم

---

(١) v. 2, p. 142 — (٢) ٢ : ١٥٩

يتنازعون مكانهم من الوكر ونصيبهم من الطعام ، فحينئذ يطردهم العقاب ضاربا لهم ، فيتصايحون ، واذ ذاك يجيء النسر فيضمهم اليه » «[1]» .

ويقول فى موضع آخر ، فى الفصل السادس من الكتاب السادس ، من تاريخ الحيوان :

« والعقاب يبيض ثلاث بيضات ، ولكنه لا يفقس الا اثنتين ، كذلك يقول الشعر المنسوب الى موزيه Musée : « يبيض العقاب ثلاث بيضات ، ولكنه لايفقس الا اثنتين ، ولا يربى الا واحدا » . وهذا فى الواقع ما يحدث فى أكثر الاحوال . وحين يكبر أحد الفرخين يطرده العقاب، لانه يكلفه كثيرا من العناء فى اطعامه » «[2]»

فمن الظاهر الجلى أن نص الجاحظ الذى أوردناه يرجع الى كلام أرسطو هذا .

وهناك نص آخر للجاحظ فى هذا الموضوع ، لابأس من ايراده الى جانب النص الاول ، دون أن ننتظر به دوره ، وان كان هذا النص يصور ماكان يدور حول العقاب من آراء مختلفة . قال :

« والعقاب تبيض ثلاث بيضات ، فيخرج لها فرخان . واختلفوا فقال بعضهم : لانها لاتحضن الا بيضتين ، وقال آخرون : قد تحضن ويخرج لها ثلاثة أفراخ ، ولكنها ترمى بواحد استثقالا للتكسب على ثلاثة ، وقال آخرون : ليس ذلك الا بما يعتريها من الضعف عن الصيد ، كما يعترى النفساء من الوهن والضعف ، وقال آخرون : العقاب طائر سيء الخلق ، رديء التربية ، وليس يستعان على تربية الاولاد الا بالصبر . وقال آخرون : لا ، ولكنها شديدة النهم والشره ، واذا لم تكن أم الفراخ ذات اثرة ضاعت ... وقالوا : وأما الفرخ الذى يخرجه العقاب ، فان المكلفة ، وهى طائر يقال لها كاسر العظام ، تقبله وتربيه » «[3]»

(1) v. 3, p. 209 - (2) v. 2, p. 282 - (3) ٣ : ١٧٩ - ١٨٠

والامر الذى يلفت النظر حقا ويثير فى النفس ألوانا من التساؤل وضع كلمة « كاسر العظام » فى الترجمة العربية ، بازاء ذلك النوع من النسور الذى أطلق عليه فى النص اليونانى كلمة Phéné • وقد كانت ترجمة هذه الكلمة موضع حيرة سانتيلير ، فكلمة نسر vautour لاتتفق فى شىء — كما يقول فى تعليقه على النص الاول — مع التفصيلات التى ذكرها أرسطو عن هذا الطائر • ثم يقول ان من الممكن أنه يعنى الطائر المسمى orfraie ، وذلك على الاقل — كما يقول — هو ما وضعه بوفون Buffon (من علماء القرن الثامن عشر) فى كتابه الضخم (التاريخ الطبيعى) بازاء كلمة Phéné فى هذا النص •

وكلمة orfraie هذه ليست الا الكلمة اللاتينية (ossifraga) • واذا لم تكن هذه الكلمة فى معنى كاسر العظام ، المستعملة فى النص العربى ، تماما ، فان بين الكلمتين صلة واضحة • واذن فكيف اتيح لصاحب الترجمة العربية أن يضع هــذه الكلمة بازاء الكلمة اليونانية ، وليس فى اشتقاقها — كما يظهر — ما يدل على هذا المعنى ، ويشير الى هــذا اللفظ ؟ مهما يكن من أمر فلا ريب أن هذه الترجمة العربية كفيلة — الى حد ما — بترجيح ماذهب اليه بوفون ، وازالة الحيرة التى لابست سانتيلير •

وفى النص الثانى من نصى الجاحظ شىء آخر جدير بأن نقف عنده • ذلك أن احدى مخطوطات حيوان الجاحظ ، وهى مخطوطة كبريلى ، وضعت فى موضع كلمة « كاسر العظام » كلمة أخرى بدلا منها ، رسمتها المخطوطة بهذه الصورة (قينا) • وقد اعتبر الناشر هذه الكلمة لامعنى لها ، فأعرض عنها ، بالرغم من حسن رأيه فى النسخة التى جاءت بها ، وظاهر أن هــذه الــكلمة لايمكن أن تكون تحريفــا لكاسر العظام التى جاءت فى ســائر المخطوطات ، فكيف جاءت اذن ؟ يبدو لى أن هذه الكلمة ليست الا كلمة « فينا » التى هى الصورة العربية لكلمة Phéné اليونانية • وبذلك نرى أن هذه الكلمة كانت تنقل الى العربية مرة من طريق تعريب اللفظ اليونانى نفسه ، ومرة أخرى بوضع كلمة عربية بازائه •

١٠ ــ وهذا النص يجيء فى حيوان الجاحظ غير مسبوق الا بكلمة « قال » مبهمة لافاعل لها . أهو صاحب الكلب ، اذ كان مذكورا فى سياق هذه المناظرة ، أم هو صاحب الحيوان أى الجاحظ نفسه ؟ أم هو لا هذا ولا ذاك ، بل هو صاحب المنطق ، وقد سقطت الاشارة اليه من النص . وذلك هو ما نرى ، استئناسا بما نلاحظ من شبه قريب بين هذا النص والنص الآخر الذى نورده بعد من كلام أرسطو .

قال الجاحظ : « قال : والكلبة كثيرة الاطباء ، وكذلك الخنزيرة . وللفهدة أربعة أطباء من لدن صدرها وقرب ابطيها الى رفغيها . وللفيل حلمتان تصغران عن جثته ، وهما مما يلى الصدر ، مثل الانسان . والذكر فى ذلك يشبه بالرجل ، لان للرجل ثديين صغيرين عن جثته » «[١]» .

وقال أرسطو : « ولبعض الحيوانات أثداء على مقدم الصدر أو قريبا منه . فلها ثديان وحلمتان ، كما هو عند الانسان وعند الفيل . وهذا الحيوان الاخير تقع حلمتاه تحت ابطيه تقريبا ، وحلمتا الانثى غاية فى الصغر ، وصغرهما ــ بالقياس الى جثتها ــ تجعلهما بحيث لايريان اذا نظر اليهما من جانب ، ولذكورة الفيلة أيضا حلمات كما لاناثها ، وليست أصغر من تلك ... وهناك حيوانات ليس لها أثداء لا على صدرها ولا على فخذيها ، بل على بطنها كالكلبة والخنزيرة ، فلهما عدد كبير من الأثداء ، غير متساوية ، ولكثير من الحيوانات أكثر من أربعة أثداء ، غير أن الفهدة ليس لها الا أربعة على بطنها » «[٢]» .

فالصلة واضحة بين النصين ، وان كان النص الاول موجزا ، كأنه مختصر ما قال أرسطو ، وهذا نراه كثيرا فيما هو منسوب صراحة الى صاحب المنطق .

١١ ــ وهذا نص آخر يعرض لنا مسبوقا بهذه العبارة : « وقال

---

(١) ٢ : ١٩٥ ــ (٢) v. 1, p. 121

صاحب الكلب » ، وانما ينبغي أن تكون : « وقال صاحب المنطق » ، كما يظهر ذلك صريحا قاطعا من مقارنة النصين .

قال الجاحظ : « قال صاحب الكلب (كذا) : يعرف فتاء الكلب وهرمه بالاسنان ، فاذا كانت سوداء ، كانت دليلا على كبره ، واذا كانت بيضاء حادة ، دلت على الفتاء والحداثة . وقال - أسنان الذكر أكثر » «(١)» .

وقال أرسطو : « انه بالاسنان يمكن معرفة ما اذا كانت الكلاب فتية أم هرمة ، فالاسنان لدى الكلاب الفتية بيضاء محددة ، ولدى الهرمة حادة ، دلت على الفتاء والحداثة . وقال : أسنان الذكر أكثر » «(٢)» .

فالنصان متفقان — كما نرى — أدق اتفاق ، حتى لايمكن أن تكون هناك شبهة فى أن كلمة « صاحب الكلب » قد انسلت فى غفلة من الناسخ ، وأخذت مكان « صاحب المنطق » .

« يتبع » طه الحاجرى

(١) ٢ : ٢١٢ (٤) v. 1, p. 103-131

علاقات فرنسا بشمال افريقية

فى النصف الثانى للقرن التاسع عشر

للدكتور محمد مصطفى صفوت

لم تهتم فرنسا اهتماما حقيقيا بأمر شمال افريقية (١) الا فى اوائل الربع الثانى للقرن التاسع عشر ، الا بعد ان رسخت اقدامها رسوخا تاما فى الجزائر. حقيقة لقد كانت لفرنسا علاقات بشمال افريقية وخاصة تونس والجزائر منذ القرن السابع عشر ، ولكنها كانت علاقات ذات صبغة تجارية اقتصادية فى الغالب . وكانت فرنسا اول دولة اوربية قررت ان يكون لها ممثلون سياسيون او قناصل عامون (جنرالات) فى بعض المناطق من الشاطىء الافريقى الشمالى. وكان لها بعض من نفوذ فى هذه الجهات بحكم المعاهدات التى عقدتها مع الدولة العثمانية التى كانت تسيطر على شرقى البحر المتوسط جميعه وعلى شمال افريقية الى حدود مراكش الشرقية (٢) . وطوال القرن السابع عشر كان للقناصل الفرنسيين حق (هو اسمى فى حقيقة الامر) فى رعاية او حماية الرعايا الاوربيين الكاثوليك المقيمين فى هذه الاقطار .

ولكن فرنسا لم تقرر نهائيا خطة سياسية محدودة بازاء تونس التى تقع فى منتصف شمال افريقية تقريبا وبازاء مراكش الا قرب اواخر الربع الثانى للقرن التاسع عشر ، ولقد اتبعت فرنسا هذه الخطة ، او السياسة التقليدية كما اسمتها ، بكل دقة وبقوة لاتعرف التراجع او التسليم او الوهن الى ان فرضت حمايتها نهائيا على تونس فى اوائل صيف سنة ١٨٨١ وبسطت سيطرتها على مراكش فى السنوات الاربع الاولى للقرن العشرين .

لقد كان فتح مدينة الجزائر فى سنة ١٨٣٠ خطوة جريئة وقوية معا قام بها ملوك البربون الفرنسيون حين شعروا بازدياد ضعف مركزهم الداخلى فى فرنسا ، وحين احسوا قيام معارضة قوية ضدهم من جانب الجمهوريين

---

(١) المقصود بشمال افريقية هنا الجزائر وتونس ومراكش وطرابلس

(٢) لم تخضع مراكش فى يوم من الايام للعثمانيين بعكس الجزائر وتونس وطرابلس .

والملكيين الاحرار الدستوريين . فأرادوا شغل الراى العام الفرنسى عن مناقشة سياستهم الداخلية الرجعية وانتقادها ، وارادوا فى نفس الوقت تقوية مركز الملكية البربونية الداخلى وتثبيته بانتصار خارجى مدو لايكلف فى نفس الوقت فرنسا كثيرا . فاستغلوا اهانة داى الجزائر لقنصلهم فى هذه المدينة، وطالبوا بتعويضات وحقوق لم يعترف بها هذا الحاكم ، ولايستطيع الاعتراف بها ، وحينئذ ارسلوا حملة بحرية ضربت مدينة الجزائر واحتلتها . وبذلك انتهى عهد الاستقلال الفعلى لهذه البلاد ، وانتهت سيادة السلطان العثمانى الاسمية ، وزال نفوذ الاتراك نهائيا ذلك النفوذ الذى استمر اكثر من قرنين من الزمان .

وضع البربون اذن ، وهم لايشعرون ، اساس الامبراطورية الفرنسية الحديثة فى افريقية . ولكن اساس دولتهم فى فرنسا لم يستمر فلقد انهار فى نفس السنة التى فتحت فيها مدينة الجزائر . ولكن ملكية آل ارليان احتفظت بمدينة الجزائر فلم تجل القوات الفرنسية عنها بل وقاومت ناجحة كل راى أو فكرة ترمى الى الانسحاب من شمال افريقية . ولم تقتصر على ذلك ، بل وأرسلت القوات الفرنسية من مدينة الجزائر قاهرة وفاتحة الى المناطق المجاورة الى أن استطاعت فى آخر الامر اتمام فتح بلاد الجزائر جميعها فى نهاية النصف الاول للقرن التاسع عشر .

فى الجزائر قامت فرنسا باكبر تجربة استعمارية عرفتها فى تاريخها الحديث . واعتبرت بلاد الجزائر ، من النصف الثانى للقرن التاسع عشر الى الوقت الحاضر ، امتدادا لاراضى فرنسا وجزء لايتجزأ منها ، بل لقد اعتبرتها بعض الحكومات الفرنسية موئلا اخيرا تلجأ اليه اذا أصابت فرنسا فى القارة الاوربية كارثة أودت بقوتها البرية .

لقد اصبحت فرنسا بعد اتمام فتح بلاد الجزائر ، وقد تم لها ذلك بعد بذل جهد عنيف وتضحيات كبيرة فى الاموال والانفس ، اصبحت فرنسا مقيمة فى بلاد اسلامية تتاخم حدودها دولتين اسلاميتين ، وكان من الطبيعى ان يكون اثرها كبيرا فى ذلك العالم الاسلامى القريب منها والمجاور لها ، وان تتأثر به ايضا . فلم تعد حينئذ مصالح الدولة الفرنسية أوربية ومسيحية فحسب، بل افريقية واسلامية كذلك . واصبح لزاما على كل حكومة تتولى زمام الحكم فى فرنسا أن تعنى عناية خاصة بأمور ذلك العالم الجديد ، وما يجد فيه من حوادث ، وما يتعاقب عليه من انقلابات وتغيرات . لان هذه الحوادث والانقلابات لابد وأن تحدث صدى كبيرا فى الممتلكات الفرنسية فى شمال افريقية .

حقيقة كان لفتح الفرنسيين دوى هائل فى شمال افريقية . فلقد تزلزلت كل النظم الموجودة هناك وتضعضعت ، ولم تعد دولتا تونس ومراكش المجاورتان

للجزائر فى مأمن من الخطر الفرنسى الذى كان يزداد نمـوا وعنفـا كل يوم . وانتهى عهد الاطمئنان بالنسبة لهاتين الدولتين اللتين كانتا قد اخذتا فى طريق الضعف السيـاسى والاقتصادى ، وسيأتى يوم يشاء القـدر فيه وتحكم فيه الظروف الجغرافية وتطور الاحـداث التاريخيـة أن تقع فيه الدولتان تحت سيطرة فرنسا والحكم الفرنسى .

وبالنسبة لدولة تونس كان الخطر اعظم وأقرب لصغر مساحتها وجنوح أهلها للسلم . وهى بعد ذلك لها من الثروة الغنى والموارد الطبيعية والمركز الجغرافى فى البحر الابيض المتوسط ما يجعلها أكثر جاذبية لجيرانها الجدد الفرنسيين . كذلك لاتوجد حدود طبيعة ولاسياسة ولاعنصرية حقيقية ولادينية تفصل بينها وبين البلاد الجزائرية . واذا كانت الحكومات الفرنسيـة المتعاقبة قد قررت الاحتفاظ بالجزائر فكان لزاما عليها كما رأت ان تراقب بدقة مايحدث فى القطرين التونسى والمراكشى . فاحتفاظ فرنسا بالجزائر دعاها الى متابعـة الاهتمـام بأمور تونس . لانه فى شمال افريقية ــ كما اعتقد الفرنسيون فى القرن التاسع عشر وكمـا لايزالون يعتقدون تستطيع فرنسا التعبير عن نشاطها المتـدفق وحيويتها الفائقة ، تستطيع تدريب قواتها العسكرية واعداد اعظم جنودها . لقـد أصبحت الجزائر مركزا للتوسـع الفرنسى فى شمـال افريقيـة واعظم مدرسة لتدريب الجنـد ــ كانت مدرسة عملية للحرب والصبر تخرج فيهـا معظم قادة فرنسـا من رجال الحرب ، وتيير Thiers ــ وقد تولى الاشراف على الحكومة فى فرنسا مرارا ابان القرن التاسع عشر ، يشـير دائما الى الجزائر كمدرسة عملية يتدرب فيها الجيش الفرنسى على تحمل المكاره والمشاق ومقابلة الخطر المتجدد المستحكم ، واليقظة وحضور الذهن ، فاحسن الجنود الفرنسيون هم الذين مارسوا أمور الحرب امام الحصان الابيض وامام الجزائريين (١)

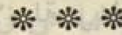
لقد ارتسمت فرنسا لنفسها سياسة استعمارية فى الجزائر نمت وتطورت خلال القرن التاسع عشر والقرن العشرين وتنطوى آخر مراحل هذه السياسة على ضم هذه البلاد نهائيا الى فرنسا بحيث تصبح الجزائر فى آخر الامر ارضا فرنسية سكانها مواطنون فرنسيون من حيث الحقوق والواجبات السياسية . لقد رمت السياسة الاستعمارية لفرنسا فى اول الامر الى استغلال موارد الجزائر الطبيعية والاقتصادية ، وعملت على اقامة حكم فرنسى قوى للوصول الى ذلك الفرض ، واستخدمت شتى الوسائل لتثبيت دعائم ذلك الحكم من ابقاء جيش قوى على قدم الاستعداد فى كل لحظة وانشاء فرق أجنبية تتكون من المغامرين

---

(١) De Remusat : Thiers ص ٦٨ و ٦٩

من كل دولة وملة للمساعدة فى قمع الثورات ، وتشجيع الفرنسيين على الهجرة وتعضيد كل من كانت له ميول فرنسية فى هذه البلاد ، واستغلال رؤوس الاموال الفرنسية فى تنمية موارد الثروة .

ومرت السياسة الفرنسية فى الجزائر فى مراحل ابان القرن التاسع عشر . فكانت فى أول الامر سياسة قوة وعنف وقمع وفتح واستيلاء وارغام الاهلين على قبول الخضوع للحكم الفرنسى . ولكنها بمرور الزمن اخذت تتحول بالتدريج الى رغبة فى استصلاح الجزائريين عن طريق منحهم بعض الحقوق ليقبلوا الحكم الفرنسى راضين . ولكن يظهر ان كلتى السياستين لم تفوزا بنجاح كبير وخاصة بعد نمو حركة الجامعة الاسلامية فى الربع الاخير للقرن التاسع عشر ونمو الشعور القومى . فالعوامل القومية واختلاف الدين والعنصر (الجنس) لها اثر كبير فى بقاء مشكلة الجزائر الى الوقت الحاضر .



ولو ترك الامر للسلطات الحربية الفرنسية فى الجزائر تفعل ما تريد لاستولت بقوة السلاح على تونس بالذات لولا معارضة حكومة لوى فيليب ونابليون الثالث وفى اوائل الربع الثانى للقرن التاسع عشر وضع الوزير الانجليزى بامستون Palmerston سياسة انجلترا التقليدية ازاء تونس(١) وكان لذلك اثره بلا ريب فى السياسة الفرنسية ، فبعد ان كانت سياسة العمل على التوسع السريع الجارف فى شمال افريقية ، اصبحت سياسة المحافظة على الحالة الراهنة فى كل من تونس ومراكش . وبذا عملت كل من انجلترا وفرنسا على الابقاء على الموقف السياسى الموجود فى ذلك الوقت ، وان تباينت دوافعها واختلفا فى ذلك فهما لذلك الموقف . فلم تكن معالم ذلك الموقف محدودة ولا متفقا عليها . وكانت السياسة الفرنسية ترحب بذلك الغموض ، وتجد فيه فائدة كبيرة لها تتفق واغراضها الامبراطورية الاستعمارية .

كانت السياسة الفرنسية ابان القرن التاسع عشر الى سنة ١٨٨١ بالنسبة لتونس قائمة على أساسين : اولا كرهها لان تكون لها حدود سياسية مشتركة مع ممتلكات الباب العالى ، وثانيا المحافظة على ممتلكات فرنسا الجزائرية فلقد كانت اهمية الجزائر عند الفرنسيين مشابهة لاهمية الهند عند الانجليز .

ولو ان الباب العالى ترك تونس وامورها ولم يتدخل فى شئونها ؟ ! الا ان مركز الدولة العثمانية القوى فى طرابلس حتم عليها التدخل فى امور تونس

---

(١) وكانت هذه السياسة تقتضى بالاعتراف بتونس كجزء من ممتلكات الدولة العثمانية مع الاحتفاظ باستقلالها فى تصريف امورها الداخلية .

ومحاولة استرجاع سلطانها فيها . ففى تونس يستطيع الباب العالى الاتصال بالقبائل الجزائرية ، فيثير مشاكل خطيرة لفرنسا لاعداد لها . ولذا فبالرغم من أن فرنسا قررت مؤقتا الا تتوسع على حساب اراضى تونس الا أنها صممت بعزم وقوة على منع الباب العالى من استرجاع نفوذه فى تونس ، أو التدخل فى شئونها تدخلا ينقص من استقلالها الذى تتمتع به ، فلا عجب اذن اذا بينت الحكومات الفرنسية المتعاقبة فى المدة ما بين سنتى ١٨٣٥ ، ١٨٨١ للحكومات العثمانية ، وذلك بوضوح لامزيد عليه ، انها لن تعترف بحقوق الباب العالى فى تونس ، وليست له حقوق ، ولن تقبل اى تدخل من جانبه ، وانها ستلتجىء الى القوة اذا قام بأية محاولة لبسط سلطانه على هذه البلاد (١)

والى جانب ذلك احاطت فرنسا بايات تونس علما بانه لا سبيل الى التنازل عن شىء من حقوقهم او مظاهر سلطتهم للباب العالى ، وان مصالحهم تختلف تماما مع مصالح السلطان ، وانه لاصلة تربطهم بتركيا سوى صلة الدين ، وان هذه الصلة لاتعنى شيئا من الناحية السياسية . وضمنت للبايات الاعتراف باستقلالهم (٢) . وغالت فرنسا فى محاولاتها العمل على ضم حكام تونس ووزرائها الى الجانب الفرنسى ، فأهدتهم النياشين الرفيعة الكثيرة ، وقدمت لهم الهدايا الثمينة . واستقبلت الباى احمد باشا حين زار باريس استقبال الملوك . ولم تأبه مطلقا لاحتجاجات السفير العثمانى فى باريس ، وقبلت النياشين التى منحها الباى لضباطها ومبعوثيها السياسيين او القنصليين . واما من حيث محاولات انجلترا لتوثيق الصلات بين البايات والباب العالى ، فلقد وضعت فرنسا فى سبيلها كل العراقيل الممكنة . وافهمت البايات جيدا أن ما تهدف اليه حكومة انجلترا هو أن تجعل منهم ولاة اذلة خاضعين للسلطان (٢)

اخذت فرنسا اذن على عاتقها حماية استقلال تونس ضد مطامع السلطان العثمانى ، وجعلت هذه السياسة سياسة تقليدية لها . ووضع اسس هذه السياسة الوزيران الفرنسيان تيير وجيزو . ولم تأل الحكومات الفرنسية جهدا فى توضيح وجهة نظرها هذه للباب العالى فى الفترات المختلفة ، ولم تتورع بالفعل عن ارسال اساطيلها الى المياه التونسية حين وجدت ان الباب العالى يحاول ان يتدخل فى أمور هذه البلاد . بل وهددت مصير الدولة العثمانية نفسها ان لم تحترم وجهة النظر الفرنسية ، ففى سنة ١٨٦٤ مثلا اعلن دى

---

(١) انظر مذكرة القنصل الانجليزى ود Wood لوزارة الخارجية الانجليزية F. O. 102/58 Aug. 26, 1859

(٢) نفس المرجع

موستير De Moustier السفير الفرنسى فى القسطنطينية للحكومة العثمانية ان فرنسا لن ترحب بجوار العثمانيين فى تونس ، وطلب الا يعطى الباب العالى لفرنسا فرصة العمل على انهيار الدولة العثمانية (١) .

وكذلك وضحت فرنسا لانجلترا سياستها هـذه بانها لن تصبر ابدا على تدخل الباب العالى فى امور تونس ، وانه للمحافظة على ممتلكاتها فى الجزائر لا مناص لها من المحافظة على الموقف السياسى الراهن فى تونس . فيقول درون دى لوى Drouyn de Lhuys وزير الخارجية الفرنسية لكولى Cowley سفير انجلترا فى باريس فى أوائل النصف الثانى للقرن التاسع عشر ان سياسة فرنسا بأزاء هذه المسألة واحدة لن تحيد عنها ، ففرنسا لها مصالح مهمة وحيوية فى الجزائر ، وان من مصلحة فرنسا ومن مصلحة الباب العالى نفسه ان تتعامل فرنسا مع تونس وحدها لا مع السلطان ، فجيرة فرنسا ليست مريحة للسلطان وستخلق له بلاريب مشاكل لاحصر لها هى فى غنى عنها (٢) ويقصد الوزير الفرنسى بذلك اثارة المسألة الشرقية وتدمير الدولة العثمانية .

كذلك عملت فرنسا على ان يكون لها وحدها التفوق السياسى والاقتصادى فى تونس ، وعلى ألا تكون الفرص متساوية امام جميع الدول الاوربية التى لها مصالح فى هذه البلاد ، فيجب أن يكون لمصالح الفرنسيين التقدم على مصالح الدول الاخرى . وهنا قد يوضع هـذا السؤال . الى اى حد أثرت المصالح الاقتصادية فى سياسة فرنسا نحو هذه البلاد ؟ فى الواقع ان أهم الدوافع كانت دوافع سياسية واستراتيجية ، وهذه الدوافع هى فى الغالب التى دعت الدول الاخرى مثل انجلترا بل وايطاليا الى ارسال رؤوس أموالها الى هذه البلاد واستخدامها فى مشاريع الغنم الاقتصادى العاجل منها ضعيف لايشفى غليل رجال المال ولا يقنع الاقتصاديين .

ولقد عمل على تفوق النفوذ الفرنسى فى نفس القوات الضخمة التى حشدتها فرنسا على الحدود بين البلدين ، ثم المظاهرات البحرية التى كانت تقوم بها من حين لآخر فى المياه التونسية ، ووسائل التهديد والوعيد التى كانت نستخدمها ، ثم النياشين والهدايا التى كانت تغدقها فى المناسبات المختلفة على الباى وعلى وزرائه . كان معظم الموظفين الاجانب فى كثير من الاوقات فرنسيين ، وقام بعدد كبير من المشاريع فرنسيون . فلا عجب اذن اذا وجد القنصل الانجليزى فى سنة ١٨٥٦ زميله القنصل الفرنسى يتمتع بنفوذ هائل لا نظير له.

---

(١) نفس المرجع

(٢) وثائق وزارة الخارجية الانجليزية Cowleyts Russell رقم ١٨٠١٠٥٤ ديسمبر ١٨٦٤

ولذا كرس نشاطه السياسى، وكان كبيرا لمحاربة ذلك النفوذ وهدمه اذا استطاع الى ذلك سبيلا .

ولذا قام النزاع حامى الوطيس بين القنصلين الانجليزى والفرنسى على النفوذ السياسى والتفوق الاقتصادى . فكان التنازع على أشده بين سير توماس ريد Reade ودى لسبس ، وكذلك كان التنافس شديدا بين خلفائهما على نيل الامتيازات واحتكار المشاريع ، واتهم كل من القنصلين الآخر بالعمل على عرقلته والاساءة الى سمعته ومحاولة القضاء على مصالح مواطنيه .

وبالرغم من كفاح القنصل الانجليزى Richard Wood ظل النفوذ الفرنسى متفوقا الى سنة ١٨٧٠ ، ووجد ود ان نصائحه التى كان كريما فى اسدائها للباى ليست بذات كبير غناء امام نفوذ زميله الفرنسى الذى كان يؤيده ستون الف جندى مرابطين على الحدود الجزائرية وبحرية كثيرة التردد على موانى تونس (٢) .

كان الراى مختلفا فى الدوائر السياسية الفرنسية بالسبة لاحتلال تونس ففريق من رجال الحكومة لايؤيد سياسة القمع والقهر والاستيلاء على هذه البلاد بالقوة ، بل يرى اتباع سياسة التريث والانتظار ، وفريق آخر يرى استعمال الوسائل السلمية لضم تونس الى الجزائر ، وذلك باحتكار المشاريع واقناع الباى بصداقة فرنسا . وكانت آراء الفريق الثانى هى الراجحة ، ويظهر ان آراء الفريقين كانت مجمعة على مد حدود الجزائر الى نهر مجرده ، بحيث تكون بنزرت فى المنطقة الفرنسية ، وذلك اذا أرغمت الظروف فرنسا على اتخاذ موقف حاسم . وكانت السلطات الفرنسية الحربية فى الجزائر تؤيد بحماس هذه الفكرة وتسعى الى تنفيذها فى أقرب وقت مستطاع . وهناك فريق ثالث يرى ان فرنسا لديها من المشاغل الكثيرة والمشاكل المعقدة ما يجب ان يصرفها عن التفكير فى خلق مشاكل جديدة بضم تونس ، لاسيما وأن ذلك الفريق يرى ان فرنسا قد لاقت الوانا من المتاعب فى الجزائر . وان تجربة الاستعمار فى الجزائر نفسها ليست ناجحة بحال من الاحوال ، فلقد استنزفت جانبا كبيرا من أموال فرنسا ودماء ابنائها .

وهناك نابليون الثالث تملأ مخيلته افكار غريبة عن شمال افريقية ، فلقد

---

(٢) انظر المذكرات والتقارير التى دونها القنصل الانجليزى ريتشارد الى حكومته فى السنوات التى بين ١٨٥٧ ، ١٨٦٠ ، وتمتاز هذه المذكرات بطولها وبكثرة التفاصيل عن موقف الفرنسيين فى تونس والجزائر ، وهذه المذكرات والتقارير موجودة فى وزارة الخارجية الانجليزية تحت عنوان تونس T.O.102

كان يظن ان من السهل تطبيق فكرة القومية فى هذه الارجاء ، فكان يحلم بانشاء مملكة عربية فى الجزائر صديقة لفرنسا وموالية لها . ولكنه كان فى نفس الوقت يفكر فى انشاء اتحاد أوروبى مرماه السلام — وظن أن الدول تستطيع ان تنسى ما بينها من حزازات وخلافات اذا اقتسمت فيما بينها الممتلكات الاسلامية الواقعة على البحر المتوسط . ولكن مبادىء السياسة التقليدية الفرنسية ومصالح رجال الجنوب فى فرنسا كانت تدفعهم دائما الى المطالبة باتباع سياسة نشيطة فى شمال افريقية والبحر الابيض المتوسط ، وكانت لآرائهم قيمة كبيرة فى توجيه السياسة الفعلية للحكومة الفرنسية .

ولقد انصرفت الافكار فى فرنسا عن تونس مؤقتا حين عاد الخطر الالمانى الى الظهور شرقى نهر الرين ، فما كانت الحكومة الفرنسية بقادرة على أن تفرط فى صداقتها لانجلترا وايطاليا باتباع سياسة قوية فى تونس قد تضطر هاتين الدولتين الى ان تتخذا موقف العداء نحو فرنسا .

ثم جاءت الكارثة الحربية والسياسية التى حلت بفرنسا فى سنة ١٨٧٠ فغيرت الى حين الموقف السياسى فى تونس ، فازداد أمل الانجليز والطليان فى اضعاف النفوذ الفرنسى والانفراد بالنفوذ فى هذه البلاد . ولكن فرنسا نهضت من كبوتها بسرعة ، وعادت الى نشاطها فى تونس ، فعاد الموقف الى التغير وخاصة بعد ان عينت فرنسا Roustan ممثلا سياسيا وقنصلا جنرالا فى تونس .

وروستان رجل يمتاز بالدهاء واللباقة وبعد النظر ، ثم بنشاط متدفق وايمان بمهمة فرنسا السياسية والحضارية فى البحر الابيض المتوسط ، واليه يرجع الفضل الى حد كبير فى تمهيد الطريق لبسط الحماية الفرنسية على تونس . فشخصيته وصبره وسعة ثقافته وتجاربه وحسن اعداده لوظيفته بعث على احترام الرجال له وتعلق النساء به ! ولقد لعبت المراة دورا هاما فى مسالة تونس !

تلقى روستان تعليمه العالى السياسى والنظرى المنظم فى باريس ، وذلك بعكس ود القنصل الانجليزى الذى لم يزد تعليمه على مدرسة ثانوية فى أكستر . ومن سنة ١٨٥٦ الى سنة ١٨٧٤ مثل روستان دولته فى جملة مناصب قنصلية مهمة فى الشرق الادنى ، فى ازمير والقاهرة والاسكندرية وبيروت . فتدرب تدريبا عمليا ممتازا ، وعرف الكثير عن أحوال الامم الاسلامية ودرس الشرقيين دراسة وافية ولذا اذا كان البحر الابيض المتوسط فى نظر الانجليز اهم حلقة فى سلسلة المواصلات الامبراطورية البريطانية الى الهند ، فهو يمثل فى نظر روستان بحيرة فرنسية ممتلئة بالذكريات الفرنسية المجيدة ، ذكريات صليبييها وبحارتها وتجارها ، فروستان مؤمن بمستقبل بلاده ، ويرى ضرورة تفوق فرنسا فى ذلك البحر الذى تطل عليه سواحلها الجنوبية .

لقد وجد روستان فى سنة ١٨٧٤ أن نفوذ فرنسا فى تونس لايزال يعانى من هزيمتها الكبرى أمام الالمان فى سيدان ، ومن سوء تصرف القناصل قبله . فبوتمليو Botmiliau كان قد بلغ من الكبر عتيا والم به اليأس فى سنة ١٨٧٠ فلم يترك له أملا فى اصلاح مركز فرنسا بعد هزيمتها الساحقة . وجاء بعده دى فلا de Vallat الذى جعل مهمته طرد الوزير التونسى الخزنة دارمن الحكم . وأفلح بعض الشيء فى اصلاح مركز فرنسا . الا أن بسمارك المستشار الالمانى ساءه مايتمتع به الفرنسيون من نفوذ فنصح للباى بالا يقيم كبير وزن لمركز فرنسا . ما بقى من نفوذ فرنسا اضاع معظمه دى بلنج de Billing الذى سمح لزوجته الانجليزية بالتدخل فى امور السياسة ولم يكن له ولا لزوجه من بعد النظر والحكمة السياسية ما يمكنه من تقوية مركز بلاده . فاشتبك هو وزوجه فى دسائس عقيمة هبطت بمركز فرنسا وانتهت باستدعاء حكومته له فى آخر الامر وتعيين روستان محله .

وما منع نفوذ فرنسا من الانهيار تماما فى سنة ١٨٧١ هو أن شروط الصلح بينها وبين الالمان لم تمس امبراطوريتها الاستعمارية . وبالرغم من الضعف الشديد الذى الم بفرنسا فى هذه السنة فان ساستها صمموا على المحافظةعلى الامبراطورية بكل ما فى وسعهم ، فقضوا قضاء مبرما على الثورة العنيفة التى قامت فى الجزائر فى سنة ١٨٧١ . فكان ذلك دليلا ناصعا على ان فرنسا لازالت قوية فى شمال افريقية . ولكن نمو النفوذ الفرنسى فى تونس يرجع بلا ريب الى روستان ، فلقد نجح فى تدعيم النفوذ الفرنسى فى تونس بمكافحة النفوذ الانجليزى والحصول على امتيازات متنوعة لبلاده ، كان اهمها الخط الحديدى من تونس الى حدود الجزائر لشركة بونا جلما الفرنسية ، واهمية ذلك المشروع كبيرة فهو يمر فى اخصب اراضى تونس واغناها ، ثم قيمته لاتقدر فى تسهيل نقل الجنود من الجزائر الى تونس فى الوقت المناسب . ولقد وجد روستان كل تأييد من حكومته ، فكل من دى برجلى Broglie ودكاز Decazes (وزيرى فرنساللامو رالخارجية) اتبع بكل دقة وعزم سنة الوزارات الفرنسية قبله فيما يختص بالسياسة التقليدية ، فتونس فى نظر الرجلين « مدخل الجزائر ومفتاح ممتلكات فرنسا فى شمال افريقية » (١)

على ان مسألة تونس بعد سنة ١٨٧٠ لم تعد مسألة فرنسية انجليزية ايطالية فحسب ، فلقد اصبحت مسألة دولية قبل كل شيء . وسنجد ان البت فى مصير تونس لم يعد فى يد انجلترا او فرنسا او ايطاليا وانما كان الى حد كبير بيد المستشار الالمانى بسمارك ، فلاتستطيع واحدة من الدول السابقة

---

(١) عن Langer : European Alliances ص ٢١٨

اتخاذ موقف حاسم دون الحصول على موافقته وتأييده . ولقد وجد بزمرك فى صيف سنة ١٨٧٨ انمصلحة المانيا تقتضى التفاهم مع انجلترا فى هذا الشأن، وان يعطى الفرنسيين الحرية ليفعلوا ماشاءوا فى هذه البلاد ، ولتفصيل ذلك نقول :

ان مسألة تونس اصبحت وثيقة الصلة بالعلاقات الالمانية الفرنسية منذ سنة ١٨٧١ ، ولقد تطورت هذه العلاقات خلال السنوات بين ١٨٧١ ، ١٨٧٨ من علاقات تحد وعد الى علاقات ود ومجاملة وصفاء .

من بعد سنة ١٨٧٠ اتخذ بسمارك موقف المعارضة لسياسة التوسع الفرنسية بصفة عامة ، وفى تونس بصفة خاصة . وذلك راجع بلا شك الى استمرار العداء بين الدولتين ، فالاحوال فى فرنسا ما كانت عاملة على كسب ثقته واسترضائه ، ومن هنا كانت محاولاته لوضع العقبات أمام نمو النفوذ الفرنسى فى تونس .

كانت سياسة بسمارك فى أول الامر قائمة على قمع فرنسا وارهابها ، فما كانت سيطرة العناصر الكاثوليكية فى باريس ، وماكان وجود حزب الانتقال عاملا على ارتياحه أو تهيئة الجو لان يمد يد الصداقة لفرنسا ، وخاصة وان حكومات اليمين الى سنة ١٨٧٥ كانت تعمل جاهدة على التقرب من روسيا . وكانت سياسة بسمارك وجهوده مدى حياته تعمل دائما على الا توجد المانيا فى موقف يضطرها الى الحرب فى جبهتين فى وقت واحد . ولذا كانت سياسة المستشار الالمانى الى سنة ٨١٧٥ العمل على عزله فرنسا من الناحية السياسية ومنعها من عقد محالفات مع روسيا او ايطاليا والوقوف أمام مطامعها الاستعمارية .

ولكن أزمة سنة ١٨٧٥ التى استحكمت بين فرنسا والمانيا بينت له أن سياسة القمع والتهديد والوعيد لم تكن سياسة حكيمة . ولذا راى اتباع سياسة استصلاح الدول الكبرى جميعا وخاصة فرنسا على حساب الدولة العثمانية التى لم يكن يهتم بمصيرها ولا بضياع حقوقها فى ذلك الوقت . ولذا ففى نظره تستطيع روسيا ان ترضى مطامعها فى البلقان ، وتستطيع انجلترا اخذ مصر ، بينما تستطيع فرنسا الذهاب الى تونس اذا أرادت . على شرط ان تتبع سياسة مرضية لالمانيا .

ولذا فى رسالته المؤرخة ١٠ يناير ١٨٧٥ الى هوهنلوه السفير الالمانى فى باريس Hohenlohe بسط بسمارك وجهة نظره هذه بالنسبة لفرنسا . فقال ان فرنسا تستطيع أن تجد فى شمال افريقية وفى تونس مجالا واسعا للتعبير عن نشاطها السياسى . وليس من المؤكد ان بزمرك بذل مجهودا لتوضيح وجهة النظر هذه لفرنسا فى هذا العام ، لان وزارة اليمين فى فرنسا لازالت مسيطرة

على الامور ، ثم ما كانت فرنسا فى ذلك الوقت تستطيع قبول مثل ذلك العرض الذى يهدد علاقاتها الودية بانجلترا وايطاليا ويؤثر تأثيرا سيئا فى علاقاتها مع روسيا .

ولكن انتخابات سنة ١٨٧٧ فى فرنسا ، ووصول الجمهوريين الى الحكم فى اواخر هذه السنة كانت عاملة على تحقيق سياسته الجديدة . فالجمهوريون كانوا قد صرفوا النظر عن سياسة التحالف مع روسيا ، وعملوا على توثيق الصلات بين باريس وبرلين ، بأن بعثوا الى برلين سفيرا جديدا معروفا بصداقته لالمانيا هو سان فالير Saint-Vallier . ولذا كانت سنة ١٨٧٨ فاتحة لعلاقات جديدة بين فرنسا والمانيا ، فالجمهوريون فى فرنسا مصممون على اتباع سياسة سلمية ، وحتى زعماؤهم من امثال جامبتا Gambetta تركوا مؤقتا سياسة الانتقام ، وفضلوا ان ينسوا الى حين مسالة الالزاس واللورين ليؤكدوا روابطهم بجارتهم على نهر الرين ، وعلى اساس ذلك اصبح بسمارك مستعدا لارضاء مطالب فرنسا الاستعمارية وخاصة فى تونس .

واما من حيث انجلترا ، فلقد تغير موقف الحكومة الانجليزية بالنسبة لتونس منذ سنة ١٨٧٨ ، وفعلا فكر وزير الخارجية الانجليزية سولسبرى Salisbury فى ارضاء فرنسا على حساب تونس كما فكر فى هذا بسمارك ، لانه فى شهرى ابريل ومايو تناقش السفير الالمانى منستر Münster فى هذه المسالة مع سولسبرى . ووجدت المانيا ان انجلترا موافقة على الفكرة بصفة عامة . فلقد بعث سولسبرى الى ليونز فى باريس يقول له « ان تونس بطبيعة الحال امتداد لمنطقة النفوذ الفرنسى » (١) . وكان سولسبرى مصمما على ان يحصل على موافقة فرنسا على سياسته الشرقية واحتلال انجلترا لقاعدة فى شرق البحر المتوسط نظير تركه لها حرية التصرف فى امور تونس ، وبذلك مهدت الامور لفرنسا قبل ان تدخل الدولتان مؤتمر برلين فى صيف سنة ١٨٧٨

ولقد قبلت فرنسا الاشتراك فى مؤتمر برلين على اساس جملة شروط وضعتها ومن اهمها الا تتعرض مناقشات المؤتمر لمسائل سوريا والاراضى المقدسة ومصر وتونس ، ووافق على ذلك اعضاء المؤتمر من الدول الكبرى ، وقصر المؤتمر بالفعل مهمته على بحث المسائل الناشئة عن معاهدة سان ستفانو (المعاهدة الروسية التركية) ، ولكن اثناء انعقاد المؤتمر وبناء على خطة موضوعة

---

(١) انظر Newton : Life of Lyons مجلد ٢ ص ١٣٩ . والوثائق الالمانية منستر الى بزمرك ٢٠ ابريل ١٨٧٨ ، صحيفة Times ٥ ابريل ١٨٨١ .

ارغمت انجلترا الباب العالى على الموافقة على احتلال انجليزى لقبرص والا عملت على تدمير دولته . واعتقدت فرنسا حين وصلت انباء هـذا الاتفاق اليها أن المعاهدة التركيـة الانجليزية الخاصة بقبرص قـد قلبت الوضع السياسى فى البحر الابيض المتوسط بطريقة لايرضاها القـانون ولا يقرها العرف الدولى ولا تقبلها السياسة الفرنسية ايا كان نوع الحكومة فى باريس .

علم وادنجتون Waddington وزير خارجية فرنسا ورئيس مندوبيها فى المؤتمر بهذه المعاهدة قبل انقضاء المؤتمر بعدة ايام ، فكان اضطرابه وقلقـه عظيما ، وثارت ثائرة الراى العام الفرنسى لامضاء هذه المعاهدة وراء ظهور الدول ، ولما انطوت عليه من ضمان تفوق النفوذ الانجليزى فى شرقى البحر الابيض المتوسط وانتقدت الصحف الفرنسية السياسة الانجليزية انتقادا لاذعا ، وطالبت احدى الصحف، وهى الريبيك فرانسيز Republique Française صحيفة الجمهوريين ممثلى فرنسا بمغادرة المؤتمر دون امضاء معاهدة برلين ، وحملت على سياسة انجلترا بشدة ، وبينت أن المعاهدة التى احتل بها الانجليز قبرص قد جعلت من سلطان تركيا تابعا لملك انجلترا (١) . وقالت احـدى الصحف الاخرى أن سياسة انجلترا قد أصبحت سياسة نفعية صرفة ، سياسة التجارة فى الدول والشعوب ، واعلنت انه بامضاء هذه المعاهدة قد تضعضع نفوذ فرنسـا فى الشرق الادنى (٢) .

ثم تغيرت فجأة لهجة الصحافة الفرنسية ، واخذت تسترسل فى تبرير سياسة انجلترا . وكان هذا التغير الفجائى نتيجة للاتفـاق الذى تم سرا بين وادنجتون وسولسبرى فى برلين ، ذلك الاتفاق السرى لم يعد امرا سريا بعـد ذلك بثلاث سنوات .

كيف تم ذلك الاتفاق ؟ . لقد سر بسمارك رئيس المؤتمر من سلوك ممثلى فرنسا فى المؤتمر ، وخاصة بعد أن وجد هو وممثلو انجلترا أن موقف ايطاليا قد أصبح مريبا لايبعث على الثقة والاطمئنان (٣) .

ولم يعلم ممثلو ايطاليا بمعاهدة قبرص الا من الصحف التى نشرت اخبارها . ولقد اتصل سولسبرى بوادنجتون واخبره بأمر قبرص ، فبين وادنجتون ان

---

(١) بتاريخ ١٠ يوليو ١٨٧٨ .

(٢) Le Constitutionnel ١٣ يوليو ١٨٨٧ .

(٣) فلقد وقف كورتى Corti رئيس ممثلى ايطاليا فى المؤتمر موقفا اشتم منه الالمان والانجليز روح الصداقة لروسيا والعداوة للنمسـا ، ولذا لم يكن بزمرك رفيقا بالساسة الطليان ولا مجاملا لهم ولا حريصا على مصالح ايطاليا .

الراى العام الفرنسى فى ثورة عنيفة وأن هذه الاتفاقيـــة هى فى الواقع اذلال جديد لفرنسا وهزيمة كبيرة لسياسةالجمهوريين قد تودىبمركزهم السياسى، وانه لذلك ليس امامه الا مغادرة المؤتمر .

وكان كل من سولسبرى وبسمارك قد استعد لمواجهة ذلك الموقف. ولذا فقد شرح سولسبرى لودنجتون روح الود الذى تنطوى عليه سياسة انجلترا نحو فرنسا ورغبة الحكومة الانجليزية فى تعويض فرنسا وارضائها وذلك بأن تتركها حرية التصرف تامة فى مصير تونس ، وأن السياســة الانجليزية لن تعمل على ايجاد تغيير فى حالة الشرق الادنى السياسية دون استشارة فرنسا ودون موافقتها . وانه اذا كانت للنمسا مهمة تؤديها للحضارة فى البلقـان ، وانجلترا فى تركيا الاسيوية ، فمهمة فرنسا بلا شك فىتونس وشمالىافريقية . وهذا هو تفسير ملاحظات سولسبرى لوادنجتون فيما يختص بتونس «افعلوا ما تشاؤونهناك ، وستضطرون الىاحتلالها ـ انكم لاتستطيعون ترك قرطاجنة طويلا فى يد البرابرة » (١) وايد بسمارك بكلارتياح قول سولسبرىفبسمارك لم يكن يحترم تركيا ولا تهمه سلامتها ولا يعبأ بأى مصير تلاقيه تونس طالما ارضى أصدقاءه . تم هذا كله فى برلين دون علم احد من اعضاء المؤتمر المنعقد بهذه المدينة .

وهنا قد يثور هـذا السؤال ، من هو صاحب الفكرة فى الاصل ، هل هو سولسبرى أو بسمارك . ومنالطبيعى أن يكونبسمارك هو الذىفكر اولافىهذه المسألة ، ويقول بورجوا Bourgeois وباجس Pagès المؤرخان الفرنسيان (٢) أن بسمارك هو الذى عرض المسألة فى برلين على ودنجتون لما عرفت مسألة قبرص وانه هو الذى أرغم انجلترا على أن تحذو حذوه . ويدللان على وجهة نظرهما بالامتعاض الذى ابداه سولسبرى فيما بعد لتسجيل فكرته كتابة حين طلب منه وادنجتون ذلك . والواقع غير ذلك فراى المؤرخين الفرنسيين ناشىء من الفكرة التى تقول ان سولسبرى لم يفكر فى هذا الموضوع قبل ذهابه الى برلين . وهذه فكرة كما راينا غير صحيحة . فسولسبرى فكر فى هـذه المسألة جديا حين فكر فى مسألة قبرص لكى يستطيع اسكات فرنسا اذا هى احتجت على احتلال الانجليز لهذه الجزيرة ، وحدث ان نضجت هذه الفكرة فى ذهن سولسبرى فى وقت نضجت فيه ذهن المستشار الالمانى لسبب آخر . وشهادة وادنجتون نفســه لاتترك اى شك فى ان الذى عرض الفـكرة أولا فى

---

(١) انظر Safwat : Tunis and The Great Powers ص ٢١٢ .

(٢) فى كتابهما Les Origines et Les Responsabilités de la Grande Guerre صفحات ١٩١ ، ١٩٢

برلين هو سولسبرى ويقول ان بسمارك هو الذى وافق على المقترح الانجليزى. وذلك فى رسالته المؤرخة ٢١ يوليو ١٨٧٨ الى هاركورت سفير فرنسا فى لندن (١) .

وقبل أن يغادر مندوبو فرنسا المؤتمر - كما يروى جبريل هانوتو ، كتبوا بما حدث بشأن تونس الى رئيس الجمهورية المارشال مكماهون ، فما ان وقع نظر المارشال على هذه الوثيقة حتى صاح : « انهم يريدون اثارة ايطاليا ضدنا ، لا أستطيع الموافقة على ذلك ، انا لا اقبل الدخول فى حرب أخرى » ، ووافق مجلس الوزراء على آرائه . وهناك رواية متناقضة لهذه تماما يرويها وزير الداخلية الفرنسية فى ذلك الوقت مارسير Marcère بأن المارشال والجنرال شانزى كانا متفقين فيما بينهما على ضرورة تونس للجزائر ، وان المارشال وافق على عمل وادنجتون لما سيسبغه ذلك على عهد رياسته للجمهورية من مجد وعظمة (٢) .

ومما لاشك فيه أن كلا من المارشال والحكومة لم يعضد فكرة الاستفادة الناجزة من المقترح الانجليزى الالمانى ، فلم يفكرا جديا فى اتخاذ خطوة عملية لاحتلال تونس حتى لاتقع فرنسا فى خلاف شديد مع ايطاليا قد يؤدى الى وقوع حرب بينهما .

ترك سولسبرى للفرنسيين حرية التصرف فى تونس ، ولكنه رفض رفضا تاما أن يعطى فرنسا أى وعد بالتأييد ضد ايطاليا اذا وقعت فرنسا فى خلاف مع هذه الدولة . وعندما رجع وادنجتون من المؤتمر بين للمارشال مكماهون وجهة نظره فوافق عليها ولاحظ أن فرنسا يجب الا تضيع هذه الفرصة الذهبية وخاصة بالنسبة لبلاد تطمع فرنسا فى تفوق نفوذها فيها من مدة طويلة .

ولقد رات فرنسا ضرورة الاحتفاظ بالغنيمة التى عرضت عليها فى برلين. وكانت آراء الساسة فى فرنسا متجهة الى المحافظة على الامبراطورية الفرنسية والزيادة فيها ما مكنت الظروف ، فلقد أصبح لشمال أفريقية جاذبية خاصة وسحر عند الفرنسيين، وتعالت أصوات الاقتصاديين المؤمنين بالاستعمار بضرورة الاستفادة من نشاط فرنسا المتدفق فينادى بول لروى بوليو Paul Loroy Beaulieu « الاستعمار لدى الشعوب الحديثة » « يجب أن نذكر هذه الحقيقة لامتنا . يجب أن نطرد الافكار التى تؤدى بنا الى كوارث

---

(١) الوثائق الفرنسية السياسية D. D. F. 1ère Série مجلد ٢ ٢١.
٢١ يوليو ١٨٧٨

(٢) فى La France Contempotaine مجلد ٤ ص ٢٨٨ .

جديد فأمام خمسة وأربعين مليونا من الالمان الذين سيصيرن ستين فى مدى عشرين عاما لم تعد فكرة الانتقام فكرة صائبة » (٢) .

فيجب اذن أن تحول فرنسا انظارها ، فتطرح فكرة الانتقام من المانيا جانبا الى الاستعمار خارج أوربا ، فليس من صالح فرنسا ان تفقد حيويتها ونشاطها فى الحزن أو التأسى على الماضى ، وانما ضرورى لها الحركةوالنشاط. ففى شمال افريقية تستطيع فرنسا التعبير عن نشاطها وحيويتها دونالتعرض لاى أذى أو خطر . لقد وضعت فرنسا كما رات فى شمال أفريقية أساسا لامبراطورية فرنسية ونقطة ارتكاز منها تستطيع ان تؤدى رسالتها للحضارة.

رات فرنسا ضرورة الاحتفاظ بتونس لنفسها ، ورأى فريق من رجال الحرب ضرورة الاسراع باحتلالهذه البلاد ، ولكن فرنسا مابرحت غير مستعدة للقيام بخطوة حاسمة بالاستيلاء بالقوة على تونس ، فالانتقام من المانيا لازال حلما قوميا ، وكان رجال حزب الانتقام يرون ان كل مخاطرة عسكرية فى الخارج لايكون الفرض منها استرجاع الالزاس واللورين جريمة لايغتفرها الوطن ، وفوق ذلك لازالت ذكريات مغامرات الامبراطورية الثانية عالقة فى الاذهان تثير الحذر والتريث ، وكان اهتمام فرنسا الاول هو المحافظة على مركزها فى أوربا ، فهى لاتريد اثارة مشاكل قد تفقدها عطف احدى الدول الكبرى ، كذلك ولو أن الجيش الفرنسى قد وصل الى درجة لابأس بها من القوة الا ان دخول السياسة فيه ما كان عاملا على استتباب النظام الدقيقبين صفوفه ، فلقد كان الجيش فى فترة تحول الى الجمهورية ، وكذلك كان عدم استقرار النظام الجمهورى داعيا الى التريث وزيادة الحذر والاهتمام قبل كل شىء بنشر الدعاية للجمهورية وتقوية مركزها داخل فرنسا . ثم هناك كان الحذر والخوف من المانيا والشك فى وعودها وخشية اثارة عداوة ايطاليا .

كل هذا دعا الى التفكير والتردد ، ووصلت الحكومة بعد امعان النظر الى ان خير الحلول فى ذلك الوقت ربما كان الاقتصار على مد النفوذ السلمى ، وتركت فكرة الاسراع الى الاحتلال ، ولكن الحكومة الفرنسية صممت على أن يكون النفوذ الفرنسى فى هذه البلاد متفوقا تفوقا لاينازعه أحد . وعزمت كذلك على ان تطلب من أوربا الاعتراف بتفوق نفوذ فرنسا ، وصممت على أن تمنع بالقوة كل دولة تحاول تثبيت أو تنمية نفوذها فى هذهالبلاد .

كان هذا رأى وادنجتون بعد رجوعه من برلين ، وكان أول خطوة خطاها

---

(٢) عن Carroll : French Public Ipinion and Foreign Affairs صفحات ٨٥ ، ٨٨ .

هى أن يأخذ من انجلترا ضمانات كتابية ، يسجل موقفهـا الذى قرره لورد سولسبرى شفويا فى برلين . وقبل ذلك فى ١٩ يوليو اتصل وادنجتون بقنصله فى تونس ، واخبره ان فرنسا قد تضطر الى فرض حمايتها على تونس ، وطلب منه الاستنارة فى المسائل الاتية : هل ن الممكن اقناع الباى سلميا بعقد معـاهدة اتحاد مع فرنسا يعترف فيهـا بالحماية الفرنسية واحتلال فرنسـا لبعض المراكز الاستراتيجية مثل جولتا وبنزرت . واذا رفض الباى ذلك الاقتراح هل لدى تونس قوة كافية للدفاع عن نفسها ، وكم من الجنود تتطلبـه حملة فرنسية لارغام الباى على قبول المطالب الفرنسية ؟ هل هناك خطر فى احتلال ايطاليا لطرابلس (١) .

وفى اليوم الثانى وصلت آراء القنصل باريز : قد يستطيع الباى أن يقبل الحماية لسوء حالة البلاد المالية، ولكن ليس لدى الباى قوة يستطيع ان يدافع بها، والاهالى ميـالون للسلم ، وليس لديهم السلاح ولا التـدريب اللازم للحرب واما القبائل فيستطاع عزلها فى الجبال ، وخير طريقة تستخدمها فرنسا هى أن روستان بصفته الشخصية يفاوض الباى فى أمر الحماية ، وبهذا لايحرج مركز الحكومة الفرنسية اذا رفض الباى مطالب القنصل الفرنسى .

وفى هذه الاثناء وصلت اخبار سارة من لندن فلقد رجع ديزريلى **Disraeli** من المؤتمر الى لندن وأعلن فى مجلس اللوردات « حسن الصلة بين فرنسـا وانجلترا » ، ووصف فرنسا بانها احدى دول العالم الكبرى وأن انجلترا كانت تعمل دائما على كسب ود فرنسا . ولذا انتهز وادنجتون هذا الظرف المواتى واتصل بالمركيز دى هاركورت سفيره فى لندن ، وبعث اليه برسالتين مؤرختين ٢١ يوليه ، وبهما تفصيلات عن المحادثات الخاصة التى دارت بين وادنجتون وسولسبرى وبيكونزفيلد فى برلين . والرسالة الاولى تختص بمسائل مصر والشام ... والثانية ، وهى التى تهمنا فى هذا المقام ، خاصة بتونس : ففى برلين تناقشت فرنسا وانجلترا فى مصير تونس فى اكثر من محـادثة ، واكد بيكونزفيلد ما صرح به سـولسبرى من عرض تونس على فرنســا . وأصر وادنجتون على أن تسجل انجلترا تصريحاتها كتـابة ، والا اتخذت العـلاقات الفرنسية الانجليزية شكلا آخر (١) .

ولقد غضب سولسبرى من تسرع وادنجتون ، لانه اى سولسبرى لم يكد

---

(١) انظر اوثائق الفرنسية السياسية **1ère Série D. D. F.** مجلد ٢ رقم ٣٢٨ .

(١) نفس المرجع السابق ارقام ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ .

يستريح من أعمال المؤتمر المضنية ومن مهاجمة جانب من الرأى العام البريطانى لمعاهدة قبرص حتى يجد فرنسا مصرة على تسجيل أقواله، كذلك كان سولسبرى قد عرف عدم ارتياح ايطاليا الى قرارات مؤتمر برلين، فأى تصريح علنى من ناحيته بالنسبة لتونس قد يدعو ايطاليا الى الاسراع الى عقد تحالف مع روسيا او عرقلة تنفيذ قرارات مؤتمر برلين . ولم يكن غضب سولسبرى راجعا الى ندمه على مافعل فى مدينة برلين كما يظن البعض .

ولما قرأ السفير الفرنسى الرسالتين لسولسبرى ازاد غضب الاخير ، فلقد وجد أن اللهجة العادية التى استخدمها مع وادنجتون قد سجلت فى وثيقة رسمية قد تنشر فى يوم من الايام . ولذا كان يقاطع السفير الفرنسى مبديا بعض ملاحظات لاذعة. وارسل بالفعل الى سفيره ليونز فى باريس يقول له ان وادنجتون جعله يتحدث عن تونس كأنها ملكه الخاص . « والذى قلته له (أى لودنجتون) انه اذا هيأت الظروف لفرنسا احتلال تونس فانجلترا لن تقدم اى اعتراض » ، وقال سولسبرى للسفير الفرنسى ان انجلترا لاتستطيع التصرف فيما لاتملك ، وانه يود ان يكتب وادنجتون تصريحات برلين فى لهجة سياسية وانه اى سولسبرى لن يستطيع الاجابة عليها قبل أن يستشير مجلس الوزراء الانجليزى .

ولم يرق السفير الفرنسى موقف سولسبرى ، فبعث الى وزير الخارجية الفرنسية يذكره بأن سولسبرى ربما يكون قد غير افكاره . على أن سولسبرى عرض المسألة على بيكونز فيلد ورأى الاثنان ان ليس من حسن السياسة فى شيء اجبار فرنسا على الالتجاء الى المعسكر الروسى ، وانه من صالح انجلترا ان تجيب طلب وادنجتون . ولذا كان على الوزير الفرنسى ان يكتب طلبه بلهجة ملائمة ، فصاغ تصريحات سولسبرى فى برلين كالاتى : « افعلوا فى تونس ماترونه ملائما ، ان سولسبرى يرى من المستحيل بقاء النظام الحالى فى تونس وانه على فرنسا ، كما ترى الحكومة الانجليزية ان تقوم باصلاح هذه البلاد .. »

واجاب سولسبرى على ذلك فى ٧ اغسطس ، ووصف مادار بينه وبين وادنجتون من محادثات فى برلين ، واعترف بضرورة تفوق نفوذ فرنسا فى تونس ، ولكنه اصر على أن تكون هذه الوثيقة سرية لاتذيعها فرنسا الا بعد موافقة انجلترا ، كما انه بين لفرنسا ضرورة اعتمادها على نفسها فى حالة اعتراض ايطاليا (١) .

---

(١) انظر Vol. 143. Granville Papers - Printed for the use of the Cabinet.
وهذه الاوراق لم تنشر بعد وموجودة فى ال Public Record Office

فى هذه الوثيقة يقول سولسبرى : « بأن انجلترا رات بسرور عظيم نجاح التجربة التى قامت بها فرنسا فى الجزائر والمهمة الحضارية العظيمة التى تقوم بها فى هذه البلاد . وان انجلترا شـاعرة بأن وجود فرنسا فى هـذه الاقطار تؤيدها قوة حربية عظيمة لابد وان يعطيها نفوذا كبـيرا فى تونس ... وان انجلترا ليست لها مصالح خاصة فى هذه البلاد ... » ويرى سولسبرى ان النظام الموجود فى تونس يستطيع أن يستمر مدة طويلة اذا لم تزعزه العواصف الخارجية ، ولكن هذا لايغير من موقف انجلترا (١) .

وبذلك انتهى قلق وادنجتون من ناحيـة انجلترا ، وعاد الى قنصـله فى تونس ، يطلب منه ان يصف له الاثر الذى تركته الشائعات عن عرض انجلترا ، وان يبين موقف كل من القنصلين الانجليزى والايطالى ، ثم على روستان ان يعد مشروعا لمعاهدة مع الباى تقرر الحماية على تونس ، ثم عليه أن يقرر عن الموقف المالى والسياسى فى هذه البلاد (٢) .

وبعث روستان بآرائه وسافر الى باريس بنفسه وبقى فيها جانبا كبيرا من اغسطس سنة ١٨٧٨ ، ولكن لم تستطع الوزارة الفرنسـية ان تصل الى راى نهائى بشان الحماية ، فهناك عقبـات لابد من تذليلها ، فلابد ان تضع فرنسا حدا لنشاط القنصل الانجليزى ريتشارد ود ، ثم هناك مسألةمعارضة ايطاليـا فلا بد من التفكير فى تعويضها ، وعلى فرنسا ايضا ان تعمل حسـابا للشعور الاسلامى الذى ثارت ثائرته نتيجة لمعاهدة برلين ، ولذا اجل موضوع الحماية الى حين .



عرفنا ان الاتفاقية بين وادنجتون وسولسبرى كانت سرية ، ولكن الجو فى تونس امتلا بالشائعات عن هذه الاتفاقية فلقد نشرت صحيفة نمساوية وهى مونتـاجز بلاط **Montagsblatt** بأن انجلترا أهدت تونس لفرنسا ، ولـكن وادنجتون رفض هذه الهدية بحجة أنه يريد ان يرجع من برلين نظيف اليدين . ونقلت الصحف التونسية ذلك الخبر ، فأثارت الدهشة والذعر فى تونس ، فالبـاى لم يكن يستطيع ان يتكهن بالدواعى التى جعلت الانجليز يغـيرون سياستهم ، وكان أمامه دائمـا مصير الجزائر يقض مضجعـه . وأما القنصل الانجليزى فقد اخذ ينعى مجهود حياته كلها ، وأما الجالية الايطالية فى تونس

---

(١) نفس المصدر ، 1ère Série D. D. F. T. 2 رقم ٣٢٤ .
Newton: Lord Lyons مجلد ٢ ص ١٥٥ ، ١٥٦ Blue Book : Tunis 1881
(٢) الوثائق السياسية الفرنسية · 1ére Serie D. D. F - T. 2
رقم ٣٣٩ ، ٣٤٠ .

فما كانت تستطيع أن تصدق أن أى وزير ايطالى يستطيع الموافقة على أتمام هذه الصفقة لفرنسا .

لم يفض سولسبرى لقنصله بما حدث حقيقة فى برلين ، بل جعل الامر سرا مكتوما عنه فحين استفسر القنصل الانجليزى من حكومته عن حقيقة الموقف حتى لايترك الجو السياسى تسممه شائعات قد تكون غير صحيحة ، لم يجب سولسبرى اجابة مقنعة وانما اقتصر على ان ذكر لممثله فى تونس بأن حكومة جلالة الملكة لم تعرض على فرنسا ضم تونس ، وهذه الرسالة كما تدل الفاظها فقط لا تختلف مع ماحدث فلم تطلب انجلترا الى فرنسا ضم تونس ، وطار القنصل الانجليزى بذلك التصريح الى الباى فخفف من قلقه ، ولكنه لم يقنعه تماما فالشائعات كانت قد نجحت فى كهربة الجو السياسى (١) .

ويحسن روستان وصف حالة البـاى حين يقول : « ان البـاى تنتـابه نوبات قلق واطمئنان ، فيصيبه الجزع حين تردد الصحافة نبأ اعطاء تونس لفرنسـا ، ويصيبه بعض الاطمئنان حين يزوره القنصل الانجليزى والقنصل الايطالى فهما يحاولان أن يثبتا لديه أن مسألة تونس لم تعرض فى برلين ولا فى غيرها . . . وأن فرنسا تريد ارهابه . . . وأن حالة فرنسا الداخلية لاتسمح لها بالقاء النظر الى ما وراء حدودها » .

ولقد استغل ممثل فرنسا هذا الظرف ، فأثار مخاوف الباى من ناحية السلطان . وبين له أن بريطانيا قد عرضت بالفعل تونس على فرنسا ، ولكن فرنسا التى تريد أن تثبت لدى البـاى « فضيلتها السياسية » وصداقتهـا رفضت ذلك العرض . ولـكن القنصل الانجليزى لم يلبث ساكنا امام هـذه المناورات فلجأ الى وسيلة طريفة فترجم تصريح لورد بيكونزفيلد فى ١٨ يوليو ونشره فى مجلة الرائد التونسى . فى ذلك التصريح يؤكد لورد بيكونز فيلد تمسك انجلترا بسياسة المحافظة على ممتلكات تركيا ! واردف هذا بأن قدم رسالة شخصية للباى يؤكد فيها مصلحة انجلترا فى صيانة استقلاله .

ولم تستطع فرنسا قبول ذلك المسلك بأى حال ، ولذا لم يحدد وادنجتون بدا من الاتصال بسولسبرى ولخص له تقارير روستان عن مسلك القنصل الانجليزى ، وبين ألا شىء يرضى فرنسا سوى سحب القنصل الانجليزى .

ولم يكن سولسبرى سعيدا حين قدم له ذلك المطلب ، ولذا اخذ يسوف فى تنفيذه ، فاضطر وادنجتون الى الالتجاء الى بسمارك ، وبعث الى سفيره فى

---

(١) وثائق وزارة الخارجية الانجليزية F.O.102/111 ورد الى سولسبرى ١٢ اغسطس ، ١٠ اكتوبر ١٨٧٨ .

برلين يستفسر منه اذا كانت المانيا تمانع فى فرض حماية فرنسية على تونس.

وكانت تصريحات بسمارك فى فريدر َسروه (٥ يناير ١٨٧٩) أكثر مما كان الفرنسيون ينتظرون، ودعا بسمارك الى ذلك توتر العلاقات الروسية الالمانية ، فرأى ضرورة توثيق العلاقات مع فرنسا ، ولذا كان حديث بسمارك مع سان فلير يفيض بالود والمجاملة فيقول : « أعتقد ان الكمثرى التونسية قد نضجت وقد حان وقت قطافها ، وان عناد الباى وعدم المجاملة هو العامل الاساسى فى نضج هذه المسألة . وستفسد هذه الفاكهة أو تسرق اذا تركتموها على الشجر مدة طويلة » ، ولقد اخترق بسمارك بنظره أذهان الفرنسيين وكشف عن شكهم فى صدق دوافعه ، ولذا اخذ يفسر هذه الدوافع ويبين حسن نيته نحو فرنسا . انه شاعر بما يقاسيه الجمهوريون فى فرنسا من صعوبات خارجية ، وانه ليس لديه مانع فى تأيد جمهورية صديقة ومعتدلة وفى ارضاء شعور الشعب الفرنسي الذى اثبت حسن طويته . ولذا فهو سيؤيد مخلصا السياسة الفرنسية فى البحر الابيض المتوسط ، وفى مناطق توسعها الطبيعية ، وأن دافعه الاول هو السلام ، فالقيصر الالمانى يريد ان يمضى بقية عمره فى هدوء ومجد وانه غير ميال الى حرب اخرى (١) .

وحمل المستشار الالمانى على مشاكسات الباى ، « ذلك الحاكم الصغير المتبربر » لفرنسا ، واظهر استياءه من سياسة ريتشارد ود . وأكد للفرنسيين انه كما يضمن لهم صداقة المانيا وتأييدها يضمن لهم صداقة النمسا ايضا ، وبين لهم رغبته فى ان يسود الصفاء بين انجلترا وفرنسا . واتصل بانجلترا لكى تزيل كل ما يعمل لتكدير علاقاتها بفرنسا .

ونتيجة لذلك الموقف اضطر سولسبرى الى ارسال تعليمات لقنصله فى تونس باتخاذ سياسة الحياد ، وكان ذلك تمهيدا لاقالته . واخبر سولسبرى وادنجتون بأنه قد انهى عمل القنصلية الانجليزية فى تونس من الناحية السياسية . وتسلم ريتشارد خطاب اقالته وغادر تونس وانتهى نشاطه السياسى فى ابريل سنة ١٨٧٩ ، وبدا انتهت نهائيا المنافسة الانجليزية لفرنسا فى تونس .

وبقيت ايطاليا العقبة الوحيدة الاخيرة فى سبيل الفرنسيين فى تونس . فماذا كانت سياسة ايطاليا فى هذه البلاد .

فى الوقت الذى انعقد فيه مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨ كان لايطاليا مركز

---

(١) الوثائق السياسية الفرنسية D. D. F. سان فالير ST. Vallier الى وادنجتون ٥ يناير ١٨٧٩ .

قوى فى هذه البلاد . فايطاليا تدعى ان لها مصالح مهمة فى تونس لقربها الجغرافى ولصلاتها التاريخية بجنوب ايطاليا وصقلية، ولاستقرار عدد كبير من الايطاليين فى تونس ربما زاد على عدد اى جالية اوربية اخرى . ولقد اهتمت ايطاليا حتى أثناء حركة وحدتها بالاحداث السياسية التى تجرى فى تونس ، وحاولت التدخل تدخلا فعليا فى امورها سنة ١٨٦٤ ، ودخل القنصل الايطالى فى معركة حامية الوطيس فى ميدان المنافسة مع القنصلين الانجليزى والفرنسى ، وعمل على كسب الامتيازات لدولته وللرعايا الايطاليين بحيث أصبح لايطاليا المركز الثالث بعد فرنسا وانجلترا من حيث النفوذ . ولقد انتهزت ايطاليا فرصة الكارثة التى لحقت بفرنسا فى ٨٧١ فحاولت احتلال تونس ، ولولا موقف انجلترا لتم للايطاليين فرض سلطانهم على تونس واصبح منع الفرنسيين من احتلال تونس من اهم الاسس التى قامت عليها السياسة الايطالية .

وكانت فرنسا تعلم تماما ماهى مطامع الايطاليين فى هذه البلاد ، ولذا افكر وادنجتون فى طريقة يستطيع بها أن يوجه انظارهم عن تونس، وظن ان طرابلس قد تكون تعويضا كافيا لهم .

ولقد اتصل وادنجتون بسفير ايطاليا فى باريس تشالدينى **Chialdini** وبين له أن فرنسا لاتنوى احتلال تونس دون أن تعترف لايطاليا بحق الاستيلاء على بلاد اخرى ، ثم بعث برسالة الى سفيره فى رومه ، يوضح فيها وجهة النظر الفرنسية ، ويحذر فيها ايطاليا ، ففرنسا مستعدة لان تدفع بالقوة اى اعتداء على تونس .

لاندرى اذا كانت ايطاليا قد عرفت محتويات هذه الوثيقة ، ولكن الذى لاشك فيه ان ايطاليا لم تكن تدرى ماذا حدث وراء الستار فى برلين ، لقد سمعت الحكومة الايطالية بالشائعات التى انتشرت ، ولكن سولسبرى لم يشف غليلها حين استفسرت منه عن صحتها ، فلم يعطها ردا واضحا . ومع هذه كانت الحكومة الايطالية تشعر بأن فرنسا قد بيتت النية على أن تحتل تونس يوما ما . وأن الدولتين الالمانية والانجليزية تقفان موقفا غامضا .

ولقد حاول وادنجتون ان يستفسر فى برلين عما اذا كانت المطالب الايطالية تجد تشجيعا لدى المستشار الالمانى ، فأكد له بسمارك ان المانيا تؤيد فرنسا تأييدا تاما وانه قد نصح الايطاليين بأن يبتعدوا عن تونس اذ انها منطقة نفوذ فرنسى . وكانت لهجة بسمارك نحو ايطاليا متهكمة لاذعة ساخطة جارحة ، فعلاقات المانيا بايطاليا بعد مؤتمر برلين كانت سيئة .

ولكن النزاع بين فرنسا وايطاليا سيشتد نتيجة لمعاهدة برلين ، فثورة الراى العام الايطالى على هذه المعاهدة واتجاه اسياسة الخارجية الايطالية

هو الذى دعا الى ذلك ، فلقد رجع كورتى مندوب ايطاليـا من مؤتمر برلين خاوى اليدين بينما رجعت الدول الاخرى محملة بالغنـائم ، واختل التوازن الدولى فى البحر الابيض بعد احتلال الانجليز لقبرص ، وارادت ايطاليـا ان تشترك مع انجلترا وفرنسـا فى الاشراف على شئون مصر المالية ، فرفضت الدولتان ، ولذا اتجهت ايطاليا الى تونس محاولة تعديل مركزها فيها لاعادة التوازن الى البحر الابيض ولارضاء الشعور القومى الايطالى .

بدات ايطاليا تجد انه لوضع حد لنمو نفوذ فرنسـا فى تونس يجب اولا الاعتراف بتونس كجزء من الدولة العثمانية ، وبذلك لاتستطيع اثارة مسألة تونس دون اثارة المسألة الشرقية كلهـا . ثانيـا العمل على الحصول على امتيازات سياسية واقتصادية للايطاليين ، فلا تكون فرنسا صاحبـة النفوذ وحدها . ثالثا تاكيد الصلات ببريطانيا لفصلها عن فرنسا ، وكانت ايطاليـا مستعدة أن تعترف بتفوق المصالح البريطانية فى البحر الابيض ثمنا لذلك .

ونازعت ايطاليا كل خطوة يخطوها الفرنسيون فى تونس ، وبلغ النزاع اشده فى سنة ١٨٨٠ ، فاصبح صراعا واصطداما عنيفا . وبدا ذلك النزاع فى صيف سنة ١٨٧٨ حين عينت الحكومة الايطالية مسى **Mussi** ممثلا لها فى تونس فحاول ان يتفق مع الباى على فرض حماية ايطالية على تونس ، فلما فشل فى ذلك حاول أن يتفق مع الباى ليتنازل عن بنزرت لايطاليا او اعلانها ميناء حرا ففشل ايضا ، فلقد كان روستان يراقب اعماله ويقاومها ، واذا كان مسى قد نجح فى شىء ، فلقد نجح فى وضع تقرير عن موقف فرنسا واطماعها فى تونس ذكر فيه أن فرنسا تعمل على ضم بنزرت اليها ، كذلك بين أن من الضرورى لايطاليا أن تعين فى تونس رجلا ذا خبرة بأمور الشرق حتى يستطيع الكفاح مع روستان .

وفعلا عينت الحكومة الايطاليـة ماتشيو **Maccio** ، وهو رجل له خبرة بأمور الشرق الادنى ، ويمتاز بنشاطه وعناده ، كان زميلا لروستان فى القاهرة وبيروت ، واشـتد بينهما النزاع الى درجة الخصومة الشخصية . وصـل ماتشيو الى تونس فى ٢٠ ديسمبر سنة ١٨٧٨ على ظهر سفينة حربية ، ودخل تونس تحيط به ثلة من الجنود والبحارة ، واستعرض الجالية الايطالية التى خرجت لاستقباله ودقت الطبول ، ومر فى شوارع تونس مرور الابطال وسط الزهور والموسيقى والهتاف الى ان وصل لدار القنصلية ! .

ارادت ايطاليا بهذا التصرف التأثير على الباى والجاليـات الاخرى لترى اهتمام ايطاليا العظيم بأمور تونس ، ومن ذلك الحين عرفت فرنسا أن ايطاليا قد شنت على نفوذها فى تونس حربا شعواء لاتبقى ولا تذر .

ولذا رأى الفرنسيون بعد أن ظفروا بتأييد بسمارك اعادة النظر فى مسألة الحماية ومطالبة البـاى بضمانات للمستقبل ، رأى وادنجتون أن يطلب من الباى الموافقة على حلف دفاعى يتعهد فيه الباى بأن يطلب من فرنسا العون الحربى اذا اعتدت عليه أية دولة اخرى ، وذلك الحلف الدفاعى بطبيعة الحال يقتضى احتلال الفرنسيين لبعض النقط فى البلاد .

ولما قدم للباى ذلك المشروع فى صيف ١٨٧٩رفضه يؤيده فى ذلك ماتشيو، وكان قنصل فرنسا يبغى فرض المشروع بالقوة على البـاى ولم يكن يروقه حذر وادنجتون ولاتردده . ولكن روستان حين لم يجد تأييدا من حكومته ،رأى أن يملأ الجو بالشائعات وان يصف الحالة فى تونس وصفا مثيرا وبين ان سياسة الاعتدال قد تودى بمركز فرنسا فى شمال افريقيـة ، وربما أثارت الخواطر على فرنســا فى الجزائر ، وبالغ فى امر الحوادث التى تقع على الحـدود بين تونس والجزائر . ثم أشار الى ما تقوم به ايطاليـا للحد من النفوذ الفرنسى فى تونس .

ولكن هذه التقارير لم تحدث الاثر المطلوب فى باريز ، فلقد سقطت وزارة وادنجتون وجاءت وزارة دى فرنسـيه فى ٢٩ ديسمبر ١٨٧٩ . ولم تحزن ايطاليا على سقوط وزارة وادنجتون ، وكانت تنتظر من الوزارة التى تخلفها أن تكون أكثر عطفا على أمانى الايطاليين ، ولكن فريسيه لم يكن أقل حماسة لمسألة تونس من سابقه ، فلقد عبر عن وجهة النظر الفرنسية بوضوح كبير ، « فى كل مايختص بتونس نرى أن مصلحتنـا السياسية والاستراتيجيـة تقتضى الا يعرقل العلاقات بين تونس والجزائر اى نفوذ اجنبى ، وانا نرى أن تونس ماهى الا امتداد لمستعمراتنا الافريقية ، وان حريتنا فى العمل فى الجزائر تجعلنا نهتم بكل ما يحدث فى تونس وان سياسة الباى يجب أن تكون مرتبطة بسياستنا » (٢ يونيو ١٨٨٠) (١) .

وكان فرنسييه موقنا بأن ايطاليا لن تعترف بادعاء فرنسا حق التفوق فى تونس ، وانها تطالب فى نفس الوقت بمركز مساو لفرنسا ، ولكن كلا من فرنسا وايطاليا لم يكن يرغب فى حل متوسط . فاحتـدم النزاع بين الدولتين على الحصول على امتيازات السكك الحديدية أو الخطوط التلغرافيـة ، وقامت حرب عنيفة بين الصحافة الفرنسية والصحافة الايطالية ، فوصفت الصحافة الايطالية اعتداءات فرنسا المتكررة على ايطاليا ، وان وجود فرنسا فى تونس فيه تهديد حقيقى لمركز ايطاليا البحرى ، وردت الصحف الفرنسية بالمثل .

---

(١) انظر الوثائق السياسية الفرنسية D. D. F, I. 3 رقم ١٤٢

على ان فرنسا رات ان تدخل الحكومة الايطالية لتأييد الشركات الايطالية وخاصة شركة روباتينو فيه اعتداء كبير على حقوق فرنسا وعلى الحالة الحالة السياسية فى تونس . ولذا راى فريسنيه ان من الحكمة عدم التنافس مع ايطاليا فى مسألة تونس .

ولكنه صمم فى نفس الوقت على ان تمنع فرنسا بالقوة أية محاولة من جانب ايطاليا للسيطرة على المشروعات الكبرى فى تونس ، فمثل هذه المشروعات حق لفرنسا وحدها . ولم يخف فرنسية وجهة نظره هذه على سفير ايطاليا فى باريس ، تشالدينى . كما بين له ايضا ان النفوذ الفرنسى وحده هو الذى يجب ان يكون متفوقا فى تونس ، ولم ينس ان يشير الى طرابلس كمكان يصح ان تذهب اليه ايطاليا .

على أن ذلك النذير لم يفت فى عضد ايطاليا ، فسارت فى طريقها تعرقل مشروعات فرنسا ، واعلنت ان فى تونس مجالا متسعا لكل من ايطاليا وفرنسا ، وكانت كل مظاهر النشاط الايطالى مثيرة لفرنسا ، فتعالت خطب رجالها بأن قرطاجنة كانت يوما ما جزءا من الامبراطورية الرومانية ولذا لايجب اليوم ان تخضع تونس لدولة اخرى ، وسارت المواكب من الايطاليين فى الملابس البراقة يصحبها دق الطبول خلال شوارع تونس .

ولم يقتصر الايطاليون على مثل هذه المظاهر بل انشأوا صحيفة فى كليارى تسمى المستقل . هذه الصحيفة اخذت تهاجم الفرنسيين بصفة عامة والخلق الفرنسى بصفة خاصة وتقارنه بالخلق العربى الفاضل ، بل وذهبت الى نعت خلق الفرنسيين بأنه خلق منحل وفاسد وأن فرنسا لاتهتم بالوسائل فى سبيل الحصول على رغباتها الوثنية وهى استعباد المسلمين واستذلالهم » . وكانت هذه الصحيفة توزع مجانا فى شمال افريقية فى تونس والجزائر نفسها. واعتقد الفرنسيون اعتقادا جازما بأن كل الصعاب التى يجدونها فى تونس هى من خلق الايطاليين .

ولذا وجدت فرنسا ان الفرصة فى اخذ تونس تتضاءل كل يوم وأن الوقت قد حان للقيام بعمل جدى ، لاسيما وأن الموقف الدولى الاوربى كان يتغير بالتدريج فى صالح ايطاليا ، لاسيما وان موقف الوزارة الجديدة فى انجلترا وزارة جلادستون لم يكن وديا بالنسبة لفرنسا ، فلقد كان جرانفل وزير الخارجية مستاءا من سياسة سولسبرى الذى سبقه مصمما على اثارة العراقيل لفرنسا فى تونس .

هذا الى ظهور اخطار جديدة فى افق شمال افريقية مثل خطر الجامعة الاسلامية . (وليس هنا المجال للتفصيل فيه ، فلقد فصل فيه المؤلف فى

جهات اخرى) فلقد وجدت فرنسا أن تونس أصبحت ملجأ الهاربين والمتذمرين الجزائريين كما كانت مركزا للدعاية للجامعة الاسلامية وموئلا للدسائس والمؤامرات ضد فرنسا ، ولقد وجه تيسو Jissot سفير فرنسا فى القسطنطينية نظر حكومته الى المناورات التى يقوم بها باهتمام السلطان عبد الحميد العثمانى وذلك رغم انذارات فرنسا المتكررة له. ولذا رات الحكومة الفرنسية انه لابد من أستعمال القوة فى تونس لاسيما وانه وصل الى علمها ان الاتراك يقومون باستعدادات حربية فى طرابلس لاثارة المشاكل على الحدود.

ولقد كان لموقف سان فالير سفير فرنسا فى برلين اثر مهم فى اثارة حكومته لتقوم بعمل حاسم ، فلقد راى أن هناك شيئا من التردد فى صفوف الجمهوريين ورغبة فى الانتظار حتى نهاية الانتخابات ، فهو يكتب الى وزير الخارجية باترلمى سانت هيلير يقول له : « تقول لى انهم يريدون الانتظار حتى نهاية الانتخابات ، وعند ذلك يعملون ، ما هذا السخف ، وما هذا التعامى . . فى خلال عشرة اشهر ستصيرون أمام موقف جديد ، أمام حماقة ايطالية على تونس ، أمام تحالف سرى منظم ضدنا ، وما عليكم الا ان تتراجعوا لأن الظروف ستكون مختلفة عما نحن فيه الان . فبدلا من نزهة حربية ستكون امامكم حرب أوربية لصيانة مستعمرتنا فى الجزائر. ياورى العزيز انك وطنى غيور، وكذا مسيو جمبتا . حاول أن تراه وأن تتفاهم معه حتى لاتقاسى بلادنا اذلالا جديدا . . . اننى قلق وغير سعيد . . واننى أود ان أجىء الى باريس لاقناع مسيو جمبتا ومسيو فرى ومسيو جريفى والمجلس كله بعمل ما يتطلبه الشرف القومى والمصلحة القومية . . . ولولا انى لااستطيع الاتصال بأحد منهم دون استئذانك ! لكنت كتبت اليوم لمسيو جمبتا اصف له الموقف واستثير حماسته القومية ، يجب الا تخيب رجاء برنس بسمارك فينا ، ويجب الا تتحقق فينا كلمة جورتشاكوف: ان فرنسا لم يعد يحسب لها حساب فهى لاقوة لها فى الخارج . . . ان أوربا تنظر الينا لتحكم علينا ، ولتعرف اذا كنا نستطيع القيام بشىء ، لابد من القيام بخطوة قوية ، من بذل نشاط فى عمل ليس فيه خطر علينا ولا تراق فيه دماء كثيرة حتى نستطيع أن نحتل مكاننا اللائق بين الشعوب . واما اذا اثبتنا ضعفنا فسيكون لنا مركز اسبانيا فى أوروبا . ار خطابى لجمبتا ولجريفى . أعد على سمعهم كلام بسمارك وكلمة برنس جورتشاكوف . . . يلزم ان يعرفوا أن علينا أن نختار بين مصلحة فرنسا الحيوية والمصالح الثانوية » .

وابان سفير فرنسا فى روما ، دى نوال de Noailles عن مقدار الخطر بصفة خاصة وتقارنه بالخلق العربى الفاصل ، بل وذهبت الى نعت خلق

الايطالى (١) فقال « انه من المستحيل الوصول الى اتفاق مع ايطاليا بالنسبة لتونس الا اذا تنازلت فرنسا عن مركزها فى هذه البلاد فخيال كيرولى (رئيس الوزارة الايطالية) يتسع لكل شىء غير معقول وهو يتبع تحت تأثير من حوله سياسة عاقبتها الحرب مع فرنسا ، وانه لافائدة من تأجيل مسألة تونس ، بل ينبغى اتخاذ خطة حاسمة فى الوقت الذى لاتزال فيه أوربا صديقة لفرنسا .

لقد أعلن الايطاليون علينا حربا عوانا فى تونس ... وانهم يعملون على القضاء على نفوذنا والحلول محلنا .. سنفقد تونس ويصبح مركزنا حرجا فى الجزائر ، وان تسامحنا لن يجلب لنا صداقة ايطاليا ، بل ستقاتلنا كخصوم فى كل مكان . . » . وبين دى نوال كذلك ان الايطاليين يعملون على أحكام صلاتهم بانجلترا لكى تتدخل فى تونس لصالحهم « فايطاليا لاتهتم فقط بابقاء النفوذ الفرنسى من تونس بل هى تريد ان تحل محل الفرنسيين فى كل اجزاء البحر الابيض وان يكون لها المكان الثانى بعد انجلترا . . . » (١)

وامام هذه النذر كان لامفر لفرنسا من الالتجاء الى القوة المسلحة لتاديب تونس وايطاليا معا . ولذا منذ الوقت الذى تولى فيه فرى الحكم كانت الاستعدادات على قدم وساق على الحدود الجزائرية . وفى مايو من هذه السنة ١٨٨١ وصلت الى قرب العاصمة التونسية حملة فرنسية برية كانت قدقامت من حدود الجزائر وأخرى بحرية كانت قد نزلت فى بنزرت ، وتقدمت الجنود الفرنسية وعسكرت أمام قصر باردو حيث كان ينزل الباى . وتقدم الجنرال بريار Bréart بمشروع معاهدة ، واعطى الصادق مدة اربع ساعات للتفكير اقتنع بعدها حاكم تونس وكان قد استنجد بالدول فلم يجد ناصرا ، اقتنع بقبول الحماية الفرنسية فأمضى معاهدة باردو فى ١٨ مايو ١٨٨١ . وبذا اصبحت تونس خاضعة لفرنسا فى ظل نظام الحماية .



---

(١) الوثائق السياسية الفرنسية D. D. F . J. 3 رقم ٣٤٩ الى سانت هيلير St. Hilaire يناير ١٨٨١ . جمبتا وفرى وجريفى اساطين الحزب الجمهورى فى فرنسا

(١) نفس المصدر السابق تقارير دى نوال De noailles ارقام ٣٦٨ ، ٤٠٣ ، ٤٠٥ فى فبراير ومارس ١٨٨١ ٦

لقد كان لسقوط تونس فى يد الفرنسيين وقع شديد فى مراكش ، فلقد ضربت فرنسا مثلا لما تستطيعه القوة ، وبعد اخذ تونس تستطيع فرنسا التفرغ لشئون مراكش التى كانت حكومتها آخذة فى الضعف تدريجيا ، لاسيما وان الفرنسيين يستطيعون تبرير القيام بأية اعمال حربية على الحدود المراكشية ، فمنذ عهد بعيد قامت المناوشات بين القبائل الجزائرية والقبائل المراكشية ، كما ان عددا كبيرا من الثوار الجزائريين كانوا يجدون دائما لهم ملجأ فى مراكش ، ولقد تدخلت مراكش بالفعل فى النزاع الذى قام بين فرنسا والامير عبد القادر الجزائرى وساعدته بالامداد والرجال .

والواقع ان الموقف فى مراكش كان جد خطير ، فلقد كان سلطان مراكش لايستطيع منع الهجرة الى بلاده ، ولا منع القبائل من التنقل بحرية فى منطقة الحدود الجزائرية المراكشية . ولم تكن هناك حدود طبيعية واضحة بالفعل بين مراكش والجزائر تقف فى سبيل الغزو والتنقل بين القطرين .

ولم يكن مسلك الفرنسيين فى الجزائر او تونس باعثا على الاطمئنان فى مراكش فلقد اصبحت مراكش تعتقد أن فرنسا ستعمل على بسط نفوذها على مراكش وهى بالفعل تشجع عددا كبيرا من المراكشيين على اكتساب الحماية الفرنسية وتسير حثيثا فى تحصين النقط الفرنسية .

لقد كانت مراكش فى موقف دقيق للغاية فبجانب المطامع الفرنسية التى تنذر مستقبل البلاد بخطر كبير ، كانت اسبانيا محتلة بعض النقط الساحلية فى الشمال حول مليلة . واهتمام اسبانيا بشئون مراكش قديم منذ اواخر القرن الخامس عشر الميلادى . واسبانيا ترى منذ عهد ايزابيلا بانه لا اطمئنان حقيقيا لها الا بعد الاستيلاء على الشواطىء المراكشية المجاورة لها . ولقد اعترفت مراكش نفسها بمركز الاسبان فى مليلة فى جملة معاهدات فى اواخر القرن الثامن عشر وفى أوائل النصف الثانى للقرن التاسع عشر . ولكن وجود الاسبان فى هذه المنطقة كان دائما مصدر نزاع كبير بين اسبانيا ومراكش . وهذا النزاع دعا فى بعض الاحيان الى قيام الحرب كما حدث فى أوائل النصف الثانى للقرن التاسع عشر . وكانت اسبانيا دائما حريصة على الا تقع مراكش فى يد اية دولة اخرى ، واذا كان لنفوذ اية دولة ان يتفوق فى هذه الاقطار فيجب ان يكون ذلك النفوذ اسبانيا .

ولم تكن انجلترا تجهل قيمة مركز مراكش فمراكش مركز استراتيجى ممتاز فى المحيط الاطلنطى وفى البحر الابيض المتوسط . بل كانت تهتم بمسألة مراكش اهتماما كبيرا للمصالح الانجليزية فى البحر المتوسط ولسيطرة الانجليز على مدخل ذلك البحر من ناحية الشرق ومن ناحية الوسط (فى مالطه) . ولا اهمية كبيرة

لمركز الانجليز المتفوق فى مالطة او قناة السويس اذا سيطرت دولة معادية لانجلترا على السواحل المراكشية . وما كان الانجليز يخشونه خلال النصف الثانى للقرن التاسع عشر هو سيطرة فرنسا على مراكش وانشاء قاعدةبحرية قوية فى سبته ، وكانت تراقب تقدم النفوذ الفرنسى فى هذه الاقطار بشىء كبير من القلق ، وتمنت لو قامت حرب المانية فرنسية تضع حدا لما راته من العدوان الفرنسى فى هذه الجهات .

لم تكن انجلترا تفكر فى احتلال مراكش ولكنها ماكانت تبغى ان تقع مراكش فريسة لأى غزو أجنبى قد يقضى على استقلالها . وبجانب مصالح الانجليز الاستراتيجية بمراكش كانت مصالحهم الاقتصادية والتجارية . فلقد حرصت انجلترا على الحصول على امتيازات تجارية فى مراكش وارسلت لذلك فى التسعينات للقرن التاسع عشر (١٨٩٢) بعثة سير تشارلز سميث لم ينجح مسعاها فأردفتها بارسال بعثة اخرى .

واما المانيا فلم تلق بالا لشئون مراكش فى السنوات العشر التى تلت الوحدة الالمانية ، وظهر ذلك واضحا فى مؤتمر مدريد سنة ١٨٨٠ . ولكن اهتمام المانيا بالاستعمار منذ سنة ١٨٨٤ وخاصة بعد سنة ١٨٨٧ جعلها تلقى نظرة طمع فى اتجاه مراكش) بل واخذت تفكر جديا فى احتلال محطة فى مراكش فى سنة ١٨٨٨ ، تقدمت المانيا بذلك الطلب بالفعل الى السلطان ، ولكن ذلك الطلب باء بالرفض ، ولم تحزن الدول الاوروبية الكبرى الاخرى .

واما ايطاليا فلم يكن يسرها ابدا تقدم النفوذ الفرنسى فى مراكش بعد ان فرضت حمايتها على تونس ، فكان بودها لو تراكمت العراقيل والعقبات امام النفوذ الفرنسى فى هذه الجهات . وربما طمعت ايطاليا فى يوم من الايام ان تضع قدميها فى مراكش ، ولكنها كانت تعود فترى أن ذلك حلما لا يمكن تحقيقه ، فما كانت الدول الكبرى وخاصة فرنسا تسمح لها بذلك .

سقطت تونس فى يد الفرنسيين فى ١٢ مايو ١٨٨١ ، وفى صيف هذه السنة تقدم سلطان مراكش الى سير درمندهاى القنصل الجنرال الانجليزى بأن يحمل الى حكومته فى لندن استنجاد السلطان بها علها تتخذ الخطوات اللازمة لمنع الفرنسيين من فرض حمايتهم على بلاده ، ووجدت الحكومة البريطانية من صالحها فى ذلك الوقت القيام بهذه الخطوات ، ولذا فقد حذرت الحكومة الفرنسية من غزو الحدود المراكشية ، ونصحت السلطان فى الوقت نفسه بأن يقنع القبائل المراكشية بضرورة عدم التدخل فى مشكلة الجزائر .

وامام موقف انجلترا الجدى وجدت الحكومة الفرنسية نفسها مضطرة الى ان تكرر لوزارة جلادستون انها ستحترم سيادة السلطان فى مراكش ،

واضافت الى ذلك بانها ستقف كذلك امام مطامع الاسبان فى هذه الجهات ، وكان الاسبان يؤملون ان تكون مراكش من نصيبهم ، لاسيما بعد وقوع تونس تحت الحماية الفرنسية .

وكان قيام التنازع بين فرنسا واسبانيا من ناحية ، وزيادة نفوذ انجلترا والمانيا من ناحية اخرى ، عاملا على تأخير بسط نفوذ فرنسا ومع ذلك فلقد عملت فرنسا منذ استيلائها على الجزائر على الا يتفوق نفوذ دولة اخرى فى مراكش ولذا فهى تراقب سير الامور فى هذه البلاد عن كثب وبعناية فائقة . فتغير مركز مراكش السياسى يؤثر بلا شك تأثيرا كبيرا فى مركز الفرنسيين فى الجزائر . ففرنسا حريصة جد الحرص على الا تسود الفوضى فى مراكش حتى لايتسرب شررها الى الجزائر . وهى حريصة على الا يسود النفوذ الانجليزى فى هذه البلاد ، فسيادة الانجليز فى هذه الاقطار معناها قلب التوازن الدولى فى البحر الابيض ، وخاصة وان الانجليز يسيطرون على جبل طارق ، فلو استطاع الانجليز أن يسيطروا على الجانب الافريقى المقابل لجبل طارق اذن لاصبح مركز فرنسا فى البحر المتوسط مستحيلا ، ولا استطاعت انجلترا أن تغلق ذلك البحر ، وتقطع المواصلات البحرية بين سواحل فرنسا المطلة على البحر المتوسط وسواحلها الغربية .

على أن انجلترا ما كانت مستعدة ابدا طوال القرن التاسع عشر لان تترك فرنسا تحتل مراكش أو اجزاء منها أو يكون لها النفوذ المتفوق فيها ، وخاصة بعد أن سيطرت فرنسا على الجزائر واحتلت تونس وناوءت الانجليز العداء فى مصر . وكان موقف المانيا من العوامل التى دعت الى عدم توسع فرنسا فى هذه البلاد ، فلقد عنيت المانيا بشئون مراكش وعضدت مطالب الاسبان ومطامعهم فى السواحل الشمالية المواجهة لاوربا ، وما كانت تسمح مطلقا بأن تكون فرنسا صاحبة النفوذ الاوحد فى هذه الجهات . على ان موقف كل من انجلترا والمانيا واسبانيا لم يمنع فرنسا من مواصلة جهودها لاحراز التفوق السياسى والاقتصادى فى مراكش ، واحرزت جهودها هذه بعض النجاح وخاصة بعد ان سيطر الانجليز على مصر ، فلم يكن مركزهم قويا لمطالبة الفرنسيين بالاعتدال فى التوسع السياسى والاقتصادى فى مراكش . اتبع الفرنسيون فى مراكش نفس الخطة التى اتبعوها فى تونس قبل الحماية ، واصبح من المعترف به دوليا ان للفرنسيين مركز خاص فى مراكش نظرا لقرب هذه البلاد من الجزائر . ولم تنجح محاولات الالمان كثيرا فى التقليل من شأن فرنسا فى هذه البلاد .

على ان محاولات فرنسا للتفوق فى مراكش لم تلق تأييدا من الانجليز بل بالعكس اذا اشتد فى وقت طويل التنازع بين الدولتين . ولولا هذا التنازع

وهذه المنافسة لاستطاع الفرنسيون اكتساح مراكش كما اكتسحوا تونس من قبل . فمسألة مراكش اذن لها صلة كبيرة بالعلاقات الانجليزية الفرنسية فى العشرين سنة الاخيرة من القرن التاسع عشر ووتكيفت مرارا بالظروف التى مرت فيها هذه العلاقات . فطالما كانت فرنسا مناوءة للانجليز فى مصر لم تكن تنتظر الا ان تجد من الانجليز كل مناوءة وكل عرقلة فى مراكش . وطالما خفت وطأة الفرنسيين فى مهاجمة انجلترا فى وادى النيل هدات المنافسة الانجليزية فى مراكش .

على ان فرنسا لم تهدأ ثائرتها ضد الانجليز فظلت تهاجمهم بكل عنف وتعرقل مشاريعهم وخاصة الادارة المالية فى مصر ، وبلغ النزاع بين الدولتين اشده فى مسألة فاشودة التى انتهت بهزيمة سياسية ساحقة لفرنسا ، اضطرت فيها على التقهقر على طول الخط وسلمت بمطالب المصريين والانجليز فى السودان .

فى ازمة فاشودة فهمت فرنسا قوتها الحقيقية وتيقنت من قوة انجلترا وعزمها على تنفيذ مطالبها فى شمال شرقى افريقية ولو ادى ذلك الى الحرب . ولقد اثبتت ازمة فاشودة ان فرنسا لن تستطيع الاعتماد على تحالفها مع روسيا كما انها لاتستطيع مناوءة انجلترا ، وجدت فرنسا ان من الاصلح الاتفاق مع انجلترا وخاصة وانه لم يكن من السهل عقد اتفاق بين فرنسا والمانيا فمسألة الالزاس واللورين لازالت جرحا داميا فى قلب كل فرنسى .

ووجدت انجلترا من جانبها ان المنافسة الالمانية القوية بينت لانجلترا الخطر الكبير الذى سينجم عن سياسة التباعد مع فرنسا ، فهى بلاريب تعمل على تأمين مركزها فى مصر والبحر الابيض وهذا لايكون الا بالاتفاق مع فرنسا. جعلت انجلترا وسيلتها للتقارب من فرنسا مسألة مراكش . فكان الانجليز مستعدين لان يتنازلوا عما لايملكون فى مراكش لتعترف لهم فرنسا بحقوق يملكونها فعلا فى مصر .

ولقد بدات المفاوضات بين انجلترا وفرنسا لتسوية المسائل المتنازع عليها بينهما وذلك فى صيف سنة ١٩٠٢ . وظهرت فى هذه المفاوضات رغبة الفرنسيين فى فرض سيادتهم على مراكش . وكان لورد كرومر ، وهو عليم بما يلاقيه الانجليز من عنت ومتاعب فى مصر نتيجة لمعارضة فرنسا ، يرى ان مركز انجلترا فى مصر متوقف الى حد كبير على رضا فرنسا ؛ ولن ترضى فرنسا حتى تجاب مطالبها فى مراكش (١) .

---

(١) D. D. F. 2 ème Série جزء ٤ رقم ٣٦ . دلكاسه الى بول كامبون ٢٤ اكتوبر ١٩٠٢ Zetland: Cromer ص ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٨٠ .

وتم الاتفاق أخيرا بين الدولتين ، ووقع الاتفاقية عن فرنسا بول كامبون سفير فرنسا فى لندن ، ولانزدون وزير الخارجية الانجليزية عن انجلترا . وفى هذه الاتفاقية أعلنت الحكومة الانجليزية أنها لن تعمل على تغيير مركز مصر السياسى ، واعلنت حكومة الجمهورية الفرنسية من جانبها بأنها لن تعرقل عمل الانجليز فى مصر ... ونظير هذا تعلن حكومة الجمهورية الفرنسية بأنها لن تعمل على تغيير مركز مراكش السياسى ، وتعترف حكومة جلالة الملك البريطانية بأن من حق فرنسا كدولة متاخمة لمراكش السهر على سلامة مراكش وأمنها ومساعدتها فى كل الاصلاحات الادارية والاقتصادية والمالية والحربية التى هى فى حاجة اليها . واعلنت حكومة جلالة ملك انجلترا انها لن تعرقل أعمال فرنسا فى هذه البلاد ... واعلنت الدولتان معا احترامهما لحرية التجارية فى كل من القطرين ، كما اتفقت الدولتان على عدم تسليح الساحل المراكشى المواجه لجبل طارق وعلى احترام حقوق اسبانيا فى الجزء من مراكش الواقع معظمه على البحر الابيض المتوسط (١) .

وبهذه الاتفاقية اطمأنت فرنسا على مركزها فى مراكش . فلقد زالت معارضة انجلترا لتفوق النفوذ الفرنسى فى مراكش ، وضمنت فرنسا كذلك تأييد انجلترا لفرنسا اذا حاولت دولة بحرية قوية تهديد مركز الفرنسيين فى هذه البلاد . ولقد ظهر هذا التأييد بالفعل واضحا حين حاولت المانيا اثارة صعوبات أمام الفرنسيين فى مراكش وحين حاولت بالفعل تقوية النفوذ الالمانى فى بلاط السلطان . وقفت انجلترا الى جانب فرنسا ، واضطرت المانيا الى التراجع والى ترك الفرنسيين احرارا فى هذه البلاد يتصرفون فيها كيفما شاؤا . وانتهى الامر بفرض الحماية الفرنسية على مراكش فى ٣٠ مارس ١٩١٢ وبذا اصبحت مراكش منقسمة الى منطقتين الشمالى منها منطقة نفوذ اسبانى والجنوبى منها منطقة نفوذ فرنسى .



وكما كان لاستيلاء الفرنسيين على تونس رد فعل على مراكش كان له رد فعل شديد على طرابلس لمجاورتها الفعلية لتونس . ولكن طرابلس كانت تابعة تبعية فعلية للباب العالى الذى عمل على امداد قواته فيها وصمم على الدفاع عنها اذا حاول الفرنسيون الاعتداء عليها . ورات انجلترا من جانبها أن تحذر

---

(١) انظر نصوص هذه الاتفاقية والشروط السرية فى Serie D. D. F. جزء ٤ رقم ٥٩ تحت عنوان Accords Conclus le 8 Avril 1904 entre la France. et l'Angleterre.

فرنسا من محاولة اى توسع فى هذه الناحية . فمن المفهوم كما بينت حكومة جلادستون ان انجلترا لن توافق مطلقا على التوسع الفرنسى فى طرابلس .

على ان فرنسا لم تكن تنوى بالفعل التوسع على حساب طرابلس ، وان كانت ترى أن من الواجب على الدولة العثمانية الا تجعل من هذه البلاد مأوى للثائرين الذين فروا من تونس . وكانت ترى الى جانب ذلك منذ صيف سنة ١٨٧٨ ان من الحكمة عدم معارضة الايطاليين اذا ذهبوا الى طرابس متى اعترفوا لفرنسا بالتفوق فى تونس .

ولقد بدأ الايطاليون يفكرون جديا فى امر طرابلس حين فرض الفرنسيون حمايتهم على تونس فى صيف سنة ١٨٨١ ، ولم تكن فرنسا مستعدة لتعارضهم او لتضع العراقيل فى سبيلهم ، ولكن موقف الايطاليين العدائى الجديد بالنسبة لمركز فرنسا فى تونس لم يجعل فرنسا تعمل على تسهيل الامور لهم فى طرابلس. ولكن حين اخذت ايطاليا تعترف منذ سنة ١٨٩٦ بمركز فرنسا الممتاز فى تونس ومراكش عقدت الحكومة الفرنسية النية على ان تترك للايطاليين الحرية فى التصرف فى امر مصير طرابلس . وفعلا اكدت الحكومة الفرنسية فى سنتى ١٩٠٠ ، ١٩٠١ للحكومة الايطالية بأن فرنسا لاتفكر فى الاستيلاء على طرابلس وترى انها تدخل ضمن منطقة النفوذ الايطالى (١) . وسيكون موقف فرنسا الودى هذا من العوامل التى شجعت الايطاليين على احتلال طرابلس فى أوائل القرن العشرين .

محمد مصطفى صفوت

---

(١) انظر الوثائق الفرنسية السياسية .2 ème Serie ، J. I وثائق ١، ٤٧٣، ٥٠١، ٥٠٤، ٥٠٥، ٥٠٨، ٥١٠، ٥٣٠، ٥٤٩، ٥٥٠، ٥٦٥ .

تاريخ صناعة النسيج فى الاسكندرية

فى عصر البطالمة

للدكتور محمد عبد العزيز مرزوق

من مزايا مصر أن الباحث يستطيع أن يتابع فيها تطور الحضارة الانسانية فيأدوارها المختلفة ، ففيها ترك الانسان آثاره منذ دب على ظهر الارض حتى اليوم : فيها آثار ما قبل التاريخ ، وفيها آثار العصور القديمة، وفيها آثار العصور الوسطى ، وفيها آثار العصور الحديثة • والفضل فى ذلك راجع أولا الى النيل واهب الحياة والحضارة لمصر ، وثانيا الى التربة التى جمعت بين الخصوبة والجفاف ، وثالثا الى ذلك المناخ المعتدل الجميل الذى ساعد على بقاء ما خلفه الاولون من آثار قيمة تفصح عن مدى رقى المصرى وتقدمه •

ومن خير ما احتفظت به مصر فى جوفها تلك الكميات الوفيرة من المنسوجات القديمة التى أظهرتها الحفائر الاثرية والتى تدل رقة نسجها ، ودقة رسمها ، وجمال ألوانها على ما بلغته هذه البلاد من الدرجة السامية فى صناعة المنسوجات فى العصور القديمة والوسطى •

ومن الطبيعى قبل أن نفصل القول فى تاريخ صناعة النسيج فى مدينة الاسكندرية فى عصر البطالمة أن نشير فى ايجاز الى ما كانت عليه هذه الصناعة فى مصر قبل تأسيس هذه المدينة فى سنة ٣٣١ ق•م ، فصناعة النسيج من أقدم الصناعات التىعرفها الانسان ، لانالملابس من الضروريات التى لاغنى له عنها • وقد كانت تصنع فى عصور ما قبل التاريخ فى الاكواخ التى سكنها أجدادنا ، وظلت فى العصور التاريخية ــ كما كانت ــ صناعة منزلية ، فالفقراء يغزلون وينسجون ما هم فى حاجة اليه من أقمشة ، والاغنياء لهم خدمهم الذين يقومون لهم بهذه الاعمال ، وبتدرج الانسان فى سلم الحضارة أصبحت هذه الصناعة مهنة مستقلة اتخذها كثير من الناس أداة لكسب معاشهم •

واذا بحثنا عن صور تمثل هذه الصناعة على جدران المقابر الفرعونية فى العصور التاريخية لم نجدها الا فى قبور الدولتين الوسطى والحديثة «١» . أما مقابر الدولة القديمة التى كشفت حتى اليوم فلا وجود لها فيها ، ولعل ذلك راجع الى أن صناعة الغزل والنسيج كانت تعتبر فى عصر الدولة القديمة عملا عاديا بسيطا ليس فى حاجة الى أن يثبت على جدران المقبرة أما فى عهد الدولتين الوسطى والحديثة فقد ارتفع شأنها واتسع نطاقها وأصبح لها مركز ملحوظ ، وصار الملوك والامراء وكبار الموظفين يفاخرون بحيازتهم لمصانع النسيج فى قصورهم «٢» . وقد مكنتهم ثروتهم من أن يستخدموا أمهر الصناع والفنانين وأغلى المواد الخام «٣»

وكما كان للملوك مناسجهم الخاصة فى قصورهم كذلك كان للكهنة مناسجهم الخاصة فى المعابد حيث تنسج الكميات الوفيرة من الاقمشة اللازمة للطقوس الدينية وللكهنة على السواء «٤» .

ولقد عرفت مصر الفرعونية كيف تعطى العالم أدق أنواع المنسوجات والادلة المادية التى تشهد بذلك كثيرة قد يخطئها العد ، فمن العصور السابقة على عصر الاسرات وصلت الينا أقمشة تنطق بأن النساج المصرى قد تجاوز فى هذه الصناعة المرحلة البدائية بكثير «٥» . ومن عصر الاسرات وجدت أمثلة من الكتان الرقيق عليها كتابات وزخارف غاية فى الدقة والجمال ولايتسع المجال لكى نذكرها جميعا انما نكتفى بذكر أمثلة ثلاث :

1. Newberry, *Beni-Hassan*, pl. XXIX, *Al-Bersha* I, pl. XXVI; Davies *Five Theban Tombs*, pl. XXXVII.

2. Kees, *Aegypten* p. 72

(٣) لقد عاش هذا النظام على مر العصور تحت أسماء مختلفة ، ففى عصر البطالمة كان فى الاسكندرية مصنع خاص لنسج الصوف للملكة كليوباترا ، وفى عصر الرومان كان فى تلك المدينة مصنع للنسيج عرف باسم الجنسيم Gynaceum وفى العصر الاسلامى عرف باسم « دار الطراز » .

4. Lutz, *Textiles and Costumes among the people of the ancient Near East p. 59.*

5. Reifstahl, *Patterned Textiles in Pharaonic Egypt. p. 1*

الاولى وجـدت فى مقبرة الدير البحرى ترجع الى الاسرة الحـادية عشرة وقوام زخرفتها أشرطة من خطوط منكسرة مكونة من خمل بارز على سطح القماش ، والواقع أن اتقان هذه الطريقة الفنية للنسيج ليبعث على الدهشة ويكشف عن مهارة النساج المصرى فى ذلك العصر السحيق «١» . والمثال الثانى قطعة من الكتان تحمل اسم الملك امنحتب الثانى أحد ملوك الاسرة الثامنة عشر منسوجا داخل منطقة بيضاوية الشكل ، وتزدان بأشرطة ثمانية من زخرفة نباتية نشاهد فيها أزهار عرائس النيل (اللوتس) وبراعمها«٢» . والمثال الثالث يتكون من عدة قطع عثر عليها فى مقبرة توتعنخ آمون وهى تزدان بزخارف شتى «٣» .

على أن الادلة التى تثبت مهارة النساج المصريين القدماء لاتقف عنـد حد هذه الامثلة الملموسة التى ذكرناها بل أنا لنشاهد على جدران بعض المعابد صورا تمثل ملابس مزخرفة بحروف هيروغليفية أو أشكال هندسية ، وأخرى شفافة تنم عما تحتها «٤» ، كما نقرأ فى هيرودوت وصفا شيقا لرداء من كتان بعث به الملك أمازيس أحد ملوك الاسرة السادسة والعشرين الى حكومة أسبرطة على سبيل الهدية «٥» .

ولقد اشتهرت مصر بزراعة الكتان فى العالم القديم ، وجدران آثارها غنية بالصور التى تجلو علينا زراعة هذا البنات وطريقة نسجه «٦» . ولسنا نعرف عن استعمال الصوف فى ذلك العصر شيئا ، بل أنه لاتوجد فى اللغـة

---

1. Riefstahl, *op. cit* p.p. 17 & 20.

2. Newberry and Carter, *The Tomb of Totmes IV, Cat, Gen. Ant. Egypt. Mus. Caire,* Nos. 46001-46529, p. 143 ff.

3. Carter-Mace, *The Tomb of Tutankhamun* 1 p. 167 ff., III p. 124. ff; Pfister, *Les Textiles du tombeaux de Toutankhamun,*Rev., des arts Asiat., I. XI, p. 207 ff.; Riefstahl, *op. cit* p. 24 ff.

4. Riefstahl, *op. cit* p. 39.

5. Herodotus III, 47 (Godley's translations in Loeb Library edition).

6. Erman-Ranke, *Aegypten und aegyptisches Leben in Altertum,* p. 536; Selim Hassan, *Misr al-qadima,* p.p. 85-86.

المصرية القديمة كلمة تعنى الصوف «١» . وأما عن زراعة القطن ونسجه فى مصر فى ذلك الوقت فلم نهتد بعد الى وثيقة تنير لنا السبيل فى هذا الموضوع «٢» .

وأنواع المنسوجات الفرعونية كثيرة ، وقد استمدت اسماءها أما من اللون الذى كانت تصبغ به ، أو من عدد الخيوط التى كان يتكون منها كل من اللحمة والسدى «٣» . ومن أشهرها البيسوس Byssus الذى قال عنه هيرودوت «٤» أن المصريين القدماء استعملوه فى لف مومياتهم . ويقول Loret «٥» أن كلمة «بيسوس» مرادفة للكلمة الهيروغليفية نيسوت Nissut التى تعنى « ملكى » مما يدل على أن هذا النوع من النسيج كان من أحسن الانواع وأرقها .

وقد عرف الفراعنة الطرق المختلفة لزخرفة المنسوجات فرقموا عليها بالاصباغ رسوما مختلفة «٦» ، أو نسجوها من خيوط مختلفة الالوان «٧» ،

---

1. Lutz, *op. cit.* p. 24.

2. Griffith and Crowfoot, *On the Early Use of Cotton in the Nile Valley, J.E.A. XI, 1934*, p. 5 ff.

3. Lutz, *op. cit.* p. 55.

4. Herodotus, II. 86.

5. Loret, *L'Egypte au temps des Pharons*, p. 178.

(٦) لعل هذه الطريقة Painting هى اقدم طرق الزخرفة على المنسوجات

(٧) فى المنسوجات المزخرفة بهذه الطريقة woven patterned تكون خيوط اللحمة من لون وخيوط السدى من لون آخر وتقاطع هذه الخيوط معا يحدث الزخرفة .

أو طرزوا عليها أشكالا متباينة «١» أو نسجوا فى أجزاء منها زخارف شتى «٢» كما استعملوا أيضا طريقة الاضافة «٣» ، وعرفوا كيف يزينون أقمشتهم بالخمل «٤» .

* * *

وأسس الاسكندر مدينة الاسكندرية عام ٣٣١ ق.م. وسرعان ما تقدمت ونهضت حتى أصبحت فى مدى عشرات من السنين أهم مركز للحضارة ، وارتقت الحياة فيها رقيا جعلها تسحر بجمالها الباب المعاصرين على حد قول برشيا «٥». ووصلت فى عصر البطالمة هذا الى ذروة الحضارة .

وانعكست حياتها المترفة بأجلى صورة فى كتب الادباء الاقدمين ،ولاغرو فالادب مرآة صافية تنعكس فيها حياة العصر . ويكفينا هنا أن نشير الى ما يتعلق بالمنسوجات التى هى موضوع بحثنا ، فالستائر الارجوانية اللون التى كانت تزين جدران القصور ، والطنافس التى هى أجمل من النوم الهنىء كما يقول الشاعر ثيوكريتس «٦» والملابس التى تزدان بصور

---

(١) بعد الانتهاء من نسج القماش تطرز عليه الزخارف بالابرة Embroidery

(٢) هذه الطريقة Tapestry قد حذقها أجدادنا الفراعنة وبلغوا فيها شأوا عظيما وقد ورثها عنهم احفادهم وحافظوا عليها طوال العصور ، وكانت المنسوجات التى تزين بهذه الطريقة تنسج بالطريقة العادية للنسج اى تقاطع خيوط اللحمة بخيوط السدى حتى اذا وصل النساج الى النقطة التى يريد عمل الزخرفة فيها أوقف عملية الحشو بخيوط اللحمة واخذ فى عمل الزخرفة بخيوط جديدة تختلف فى لونها عن خيوط اللحمة الاصلية ـ وقد تختلف عنها فى نوعها ـ وذلك بنسج هذه الخيوط الجديدة مع خيوط السدى الاصلية ، وبعد الفراغ من عمل الزخرفة تنظم خيوط السدى كما كانت من قبل ثم تستأنف عملية النسيج التى كانت تزاول قبل الزخرفة .

(٣) تشبه هذه الطريقة (Appliqué) طريقة التطريز ولا تختلف عنها الا فى ان الزخرفة تعمل فيها بواسطة اشرطة من القماش بدلا من خيوط الحرير أو الصوف .

(٤) تتركب الاقمشة ذات الخمل looped من نسيج تحتانى يسمى الرقعة ونسيج فوقانى يسمى الخميلة وهذه الخميلة تتكون من خيوط متصلة غير مقطوعة .

5. Breccia, *Alexandrea ad Aegyptum* p . 26.

6. Theocritus, *Idylls*, XV, p. 78 ff.

الملوك ، والاقمشة الرائعة التى تقص علينـا برسومها الكثير من القصص الخرافى ، والاردية الرقيقة التى تشف عما تحتها ، والمنسوجات التى تزدان بخيوط الذهب «[1]» .

ويخلص لنا من هذه النصوص الادبية :

أولا ــ أن الترف فى المنسوجات كان ملحوظـا فى هـذا العصر وهو يتجلى فى الملابس والطنافس والخيام والستائر والنمارق .

ثانيا ــ أن الاسكندرية كانت تستورد الطنافس من ايران والشيلان من اليونان علاوة على ماكانت تنتجه الانوال المصرية .

ثالثا ــ أن هناك أنواع شتى من الاقمشة منهـا الطنافس ذات الخمل والاكلمة والاقمشة الشفافة والملابس التى يدخل فى نسجها الذهب .

رابعا ــ أن الزخارف التى كانت تزين منسوجات هـذا العصر هى صور الملوك والمناظر المستمدة من القصص الدينى .

ترى هل كانت الاسكندرية مركزا لصناعة هذه الاقمشة التى أشـار اليها الكتاب والمؤرخون أم كانت مركزا تتجمع فيه المنسوجات التى تصنع فى داخل البلاد بقصد التصدير أو الاستهلاك المحلى ؟.

فى الواقع لقد كانت الامرين معا : كانت مركزا لصناعة النسيج وكانت مركزا لتصدير المنسوجات ولدينا من الوثائق القديمة ما يثبت ذلك ويكفى أن نشير الى نسيج البوليميتا Polymita الذى اخترعه نساج الاسكندرية فى هذا العصر وكانت له شهرة واسعة فى العالم «[2]» .

---

1. Athenaeus, *The Deipnosphists* IV, 147 f., V, 196 B,C,F,; 197 B., 198 C.

2. P. Petrie III No. 120. ترجع هذه البردية الى النصف الثانى من القرن الثالث قبل الميلاد .

والذى يؤسف له حقا أننا لانملك أية وثيقة تكشف لنا عن نظام صناعة المنسوجات فى الاسكندرية فى عصر البطالمة هذا ولكن هناك وثائق شتى تتحدث عن صناعة المنسوجات فى مصر عامة ، وليس هنـاك سبب معقول يحملنا على الاعتقاد بأنها لاتنطبق على الاسكندرية كذلك ، فالاسكندرية جزء من مصر يجرى عليها مايجرى على غيرها من بلاد القطر .

ولقد حافظ الكتان على المكانة السامية التى كان متمتعا بهـا فى مصر فى العصر الفرعونى فعنى البطالمة بزراعته وأشرفوا بدقة على صناعته ، ولعل أهميته بالنسبة للحكومة تتجلى من بردية نعرف منها مدى حاجة الحكومة الى زراعته فقد كانت تحدد سنويا المساحة التى كانت تخصص له ، وكانت تمد الزراع الذين تعوزهم البذور بها أو بثمنها لتداركها «١» . وكان على الزراع أن يبيعوا مقدارا معينا من كتانهم الخاص الى الحكومة بثمن تحدده لهم وهم بعد ذلك أحرار فى التصرف فيما بقى لديهم من كتانهم «٢» .

واذا كان الكتان قد احتفظ بمكانته القديمة فان الصوف قد ارتفعت أهميته الى درجة لم تكن له من قبل وهذا أمر طبيعى لانه المادة الاوليـة التى كان يتخذ البطالمة منها ملابسهم قبل أن يفدوا الى مصر ولذلك نجـد أن الحيوانات ذات الصوف كانت موضع عنـاية البطالمة «٣» ، ومن بلاد العرب والحبشـة استوردوا الاغنام بل واستحضروا معها الاعراب لكى يعنوا بها «٤» . واذا كان من الميسور أن تضبط الحـكومة زراعة الكتان

---

1. P. Tebt. No. 769.

ترجع هذه البردية الى سنة ٢٣٧ ـ ٢٣٦ أو ٢١٢ ـ ٢١١ ق . م .

The Tebtunis Papyri, (Egyptian Exploration Fund)

2. The Revenew Laws of Ptolemy Philadelphus, 107.2; Edgar, Zenon Papyri, No. 59470 (Cat. Gen. Ant. Egypt. Mus. Cairo.)

3. Rostovzeff, *A large state in Egypt in the 3rd. Cent. B.C.*, p. 107

4. P. Hibeh, 36 (The Hibeh Papyri, Egyptian Exploration Fund); Zenon Papyri No. 57433, Cat. Gen. Ant. Egypt, Mus. Cairo.

وتحدد المساحة اللازمة لزراعته فان من العسير عليها اتباع ذلك فيما يختص بالصوف «١» ، ولذا كان الصوف والمنسوجات الصوفية حرة التداول «٢» .

أما القنب الذى كان يستعمل فى عمل الحبال والشباك وغيرها فلاتعرف عنه الا القليل أما القطن فلم يرد له ذكر فى النصوص البردية ولكن لايبعد أنه كان مستعملا فى هذا العصر ولا شك أن استعماله كان أقل أهمية من الكتان والصوف والقنب «٣» .

وللحرير قصة شيقة تعود بنا الى الوراء عشرين قرنا قبل الميلاد عندما لاحظت احدى أميرات الصين عن غير قصد ديدانا صغيرة تعيش على أوراق نبات التوت ، وقد أغراها هذا المنظر على التدقيق فى ملاحظتها فعرفت كيف تربى هذا الدود وكيف تحصل على خيوط الحرير من شرانقه . وقد حفظ لها بنو قومها هذا الصنيع ، فرفعوها الى مقام الالهة «٤» ، وسرعان ما تعلم الصينيون صناعة الحرير وأتقنوها واحتفظوا بسرها لانفسهم واعتبروا اذاعةهذا السر أوتصدير بويضات ديدانالقز جريمة كبيرة عقابهاالموت «٥» . ولقد عرفت الاسكندرية الحرير الصينى فىالقرن الاول قبل الميلاد «٦» ، وقد كان احدى السلع التجارية الهامة فى عصر البطالمة «٧» ، ويقول تارن

---

(١) الدكتور ابراهيم نصحى : تاريخ مصر فى عصر البطالمة جـ ٢ ص ٥٤٤

2. P. Enteuxeis No. 2, *Requête et plaintes adressées au Roi d'Egypte au IIIe. ciècle avant J.C., Textes et documents. Le Caire.*

وهنا ينبغى الاشارة الى ان Tarn فى كتابه Hellenistic Civilization p. 165. يقول أن كل الكتان وربما كل الصوف كان يباع للملك بأسعار محددة

3. Blumer, *Die Gewerbliche Tatigkeit der Volke des Klassischen Altertums,* p. 10 as quoted by Toutain, *The Economic Life of the Ancient World,* London, 1930, p. 127.

4. Algoud (Henri), *La soie, art et histore,* Paris 1930, p. 1 ff.

(٥) سوف نرى — فيما بعد — ان هذا القانونقد خرق وانهذا الاكتشاف قد ذاع سره فى القرن الرابع بعد الميلاد .

6. Tarn, *Hellenistic Civilization,* p. 224.

7. Lutz, *op. cit* p. 36.

Tarn أن الملابس الحريرية التى كانت ترتديهـا الملكة كليوباترا نسجت ـ أغلب الظن ـ من الحرير الصينى «١» .

*   *   *

وقد كان للملكة سالفة الذكر مصنعا لنسج الصوف بالاسكندرية «٢» وليس ذلك بجديد على مصر فقد كان للملوك فى العصر الفرعونى مصانع خاصة للنسيج . ولا ينبغى أن ننسى أن هذا هو المصنع الحكومى الوحيد للنسيج الذى نعرفه فى عصر البطالمة ، وقد وجد فى الفترة السابقة مباشرة للفتح الرومانى كما يقول بيرسـون «٣» ، على أنه ليس هناك ما يمنعنا من الاعتقاد بأن هـذا المصنع كان موجودا طوال عصر البطـالمة ، فالمصـانع الحكوميـة للنسيج أمر كان معروفا فى مصر قبل البطـالمة واستمر قائما على عهدهم .

وتدلنا النقوش الموجودة على حجر رشيد «٤» المشهور أن المعـابد فى العصر الذى تتحدث عنه كانت تضم بين جدرانها مصانع للنسيج كما كان الحال من قبل ، وأنها كانت تنتج النسيج المعروف باسم البيسوس "Byssus" الذى أشرنا اليه من قبل والذى كان أكثر ما يستعمل حينئذ فى لف مومياء العجول المقدسة ، وقد كان الكهنة فى بعض الاحيان يقايضون بهذا النسيج على البخور والعطور من بلاد العرب ، وقد ثبتت هـذه المقايضة بكتابة تاريخية ترجع الى عصر بطليموس الثانى «٥» .

---

1. Tarn, *op. cit* p. 225.

(٢) يقول اوراسيوس (IV,19,20,21) أن اكتافيوس عندما فتح الاسكندرية اعدم افينوس احد أعضاء مجلس الشيوخ الرومانى الذى حط من كرامتـه وكرامة الرومان فى شخصه بقبوله من الملكة كليوباترا وظيفة مدير مصنع نسج الصوف الذى يتبعها .

3. Persson, *Staat und Manufaktur im Romischen Reiche*, p. 129.

4. Bevan, *A History of Egypt under the Ptolemaic Dynasty* p. 42.

(٥) ابراهيم نصحى : تاريخ مصر فى عصر البطالمه ص ٥٤٧ والمراجع التى يشير اليها .

وكان على المعابد أن تقدم من نسيج البيسوس ضريبة عينية للملك فان لم تقم بذلك فرضت عليها غرامة مقررة ، وبطليموس الخامس فى المرسوم المنقوش على حجر رشيد سالف الذكر يعفى المعابد من ثلثى تلك الضريبة ومن دفع الغرامة المقررة بسبب عدم تقديم الكميات المحددة من هذا القماش ومن نفقات فحص الاقمشة التى قدمت للملك من حيث جودتها وكميتها .

وهناك أمر ملكى صادر من بطليموس السابع «١» يعفى به المعابد من المبالغ المستحقة عليهم لعدم تقديم كمية المنسوجات المفروضة عليهم ،ويحرم على جباة الاموال الحكومية «٢» بيع الانوال التى تستخدم فى نسج قماش البيسوس كما يحرم أيضا على أى شخص امتلاك هذه الانوال أو استخدامها فيما عدا المرخص لهم بنسج البيسوس فى المعابد لانتاج ما يحتاجه الملك والالهة الاخرى ، وليس لاحد أن يسخر هؤلاء النساج أو يشغلهم بأجور مخفضة «٣» .

وعلى أساس الوثائق التى تشير الى ما تقدم نميل الى الاعتقاد بأن مناسج المعابد كانت حرة فى انتاج ماتشاء من قماش البيسوس طالما أنها كانت تعطى الملك الكمية المفروضة عليها ، والحكومة من ناحيتها كانت تحمى نساج هذا النوع من القماش ، من جباة الاموال الحكومية وممن تحدثه نفسه فى استغلالهم لصالحه وذلك معاونة منها لهؤلاء النساج على القيام بعمل ما هى فى حاجة اليه من هذه الاقمشة ، ولعل هذه الحرية التى تمتع بها نساج البيسوس كان مردها الى العامل الدينى لاحتياج الطقوس الدينية لهذا النوع ذلك لاننا نقرأ فى بردية «٤» أن الحكومة كانت تفرض رقابتها على انتاج قماش البوليميتا الذى أشرنا اليه من قبل والذى كان ينسج كذلك فى المعابد .

---

1. P. Tebt. V. Lines 62-64
2. P. Tebt V. lines 245-247
3. P. Tebt V. lines 247-251
4. P. Petrie III, 120; Préaux, *L'économie royale des Lagides*, p. 103.

والى جانب المصنع الملكى للنسيج ومناسج المعابد كانت توجد مصانع أهليــة ، ومن بردية ترجع الى عصر بطليموس الســابع «[1]» نستطيع أن نستخلص أن الحكومة كانت تكلف أحد موظفيها بمراقبة هذه المصــانع الاهلية مراقبة شديدة وبالاشراف على ما تنتجه من المنسوجات الكتانية ، وليس من المستبعد وجود هذه الرقابة أيضا على المنســوجات المصنوعة من الصــوف . وينبغى أن نشــير هنــا الى أن هــذه الوثيقة ليست صريحة فى الاشــارة الى وجود هــذه المصانع الاهليــة فى مدينــة الاسكندرية بالذات ولكننا على الرغم من عــدم وجود وثائق تشير صراحة الى قيــام صناعة النسيج الاهلية فى الاسكندرية فانه يصعب علينا أن نتصور مدينة عظيمة كالاسكندرية كان لها القــدح المعلى فى صناعة النسيج ليس بهــا مصانع أهلية .

على أن هذه الرقابة الحكوميــة تدفعنا الى التساؤل هل كان انتــاج المنسوجا توتداولها فى عصر البطالمة احتكارا حكوميا ؟ لقــد أجاب كثير من المؤرخين والكتاب على هذا السؤال بالايجاب «[2]» . ولكننا نرى أن نقف عنده قليلا لنرى ان كان هناك احتكار فعلا أم أنهــا مجرد رقابة من الحكومة لكى تطمئن الى استمرار الانتاج فى هذه الناحية ؟ . الواقع أنه لكى نجيب على هذا السؤال اجابة صحيحة ينبغى أن نحدد معنى الاحتكار أولا ثم نحاول بعد ذلك أن نرى ان كان هذا المعنى ينطبق على الحالة التى نحن بصددها أم لا . أما الاحتكارفمعناه لغويا «العقد الواحد» ، ويحتكر معناها أن يمتلك الانسان شيئا ما وأن يكون هو البائع الوحيد له . ولقد رأينا من قبــل أن الحــكومة لم تكن هى وحدها المالــكة للمواد الخام

1. P. Tebt. 703.

2. Lumbroso, *Recherches sur l'économie politique de l'Egypte sous les Lagides,* Turin, 1870, p. 100; Bouché-Leclercq, *Histoire des Lagides,* Paris, 1903, Vol. III, p. 269 ff. ; Maspéro, *Les finances de l'Egypte sous les Lagides,* Paris, 1905, p. 62; Reil, *Beitrage zur Kenntnis des Gewerbes in hellenistischen Aegyten,* Leipzig, 1913,p. 107; Jouguet,*L'Impérialisme Macédonian de l'Orient* Paris, 1926, p. 368; Tarn, *op. cit.,* p. 165; Bevan, *op. cit.,* pp. 148 & 150; Toutain, *op. cit.,* p. 136.

اللازمة لصناعة النسيج ولم تكن هى وحـدها المالكة لمصانع النسيج ، ولم تكن هى وحدها التى تبيع المنسوجات ، فالى جانب حقول الكتـان التى كانت تملكها كانت توجد الحقول التابعة للمعابد والحقول التابعة للاهالى، والى جانب قطعان الاغنام التى كانت تملكها كانت توجد قطعان المعـابد وقطعان الاهالى ، والى جانب مصنعها الملكى للنسيج كانت توجد مصانع المعابد ومصانع الاهالى ، ولم يكن الملك هو التاجر الوحيد فالمعابد كانت تستبدل نسيج البيسوس بالبخور والعطور من بلاد العرب ، وكان هناك تجار يتـاجرون فى المنسوجات فى مصر «[1]» و فى الخارج «[2]» . لم يكن هناك اذن احتكار حكومى للمنسوجات ولكن هذا لايعنى أن هذه الصناعة كانت حرة طليقة من كل قيد لان الحكومة فى الواقع كانت تشرف عليهـا اشرافا دقيقا ولعل هذا الاشراف هو الذى دفع ببعض الكتاب الى استعمال كلمة « احتكار » بدلا من كلمة « رقابة » . لقد كانت الحكومة تحـدد سنويا الاراضى التى ينبغى أن تزرع كتانا ، وكانت تعطى البذور لمن هم فى حاجة اليها ، وكانت تأمر النساج بأن يبيعوها كميات محدودة من الكتان، وكانت ترغمهم أن ينسجوا لها كميات معينـة من الاقمشة كانت تدفع لهم أثمانها ، وامتد اشرافها الى مصانع المعابد التى كانت ملزمة بأن تقدم للملك كميات معينة من البيسوس . ولا شك فى أن الغرض من هذه الرقابة كان للاستفادة من تلك المهارة التى حذقهـا المصريون فى صناعة المنسوجات ، فلقد حاول البطالمة بنظامهم هذا أن يحافظوا على المستوى الذى بلغته مصر فى هذه الصناعة فى عصر الفراعنـة ونجحوا بالفعل فى ذلك وكان من أثر هذا النجاح النهوض بهذه الصناعة الى درجة عظيمة يكفى للتدليل عليهـا اختراعهم قماش البوليميتا الذى أشرنا اليه والقماش المعروف باسم القماش السورى "Syrian Cloth" «[3]» .

1. P. Cairo-Zenon, Nos. 59148, 59319, 59326; Noshy *op. cit.*, p. 587.
2. R. Laws, cols. 93, 94; Préaux, *op. cit.* p. 111.
3. P. Hibeh 51; P. Enteuxeis I; Préaux *op. cit.* p. 106 ff.

The king bought these textiles at prices fixed by him and the weavers were obliged to furnish him with a certain quantity. The wool needed for making this cloth was furnished from the royal stores and the weavers were paid by the royal bank.

ولقد كان فى الاسكندرية فى عصر البطالمة اتحادات للعمال عرفنا منهـا « اتحاد عمال شحن البضائع » ، « واتحاد عمال طحن الذرة » «١» • ويقول ماسبرو أن هـذه الاتحادات كانت منتشرة فى مصر «٢» • ويقرر توتان أن هناك مايحمل على الاعتقاد بأن الميل الى تكوين الاتحادات المهنية كان عاما فى مملكة البطالمة التى ازدهرت فيها الصناعات الى حد كبير وجذبت اليها عددا كبيرا من الصـناع «٣» على أنه لم يصل الينا شىء عن اتحـاد عمال النسيج ونميل الى الاعتقاد فى وجود مثل هذا الاتحادفى ذلك العصر الذى سمت فيه الصناعة الى درجة عالية من الرقى • وقد كان النساج أحرارا فى مزاولة عملهم بشرط أن يدفعوا ضريبة المهنة المفروضة عليهم وأن ينسجوا للحكومة القـدر المقرر عليهم ، وللتحقق من توفر هـذين الشرطين كانت الحكومة تحصى عدد النساج سنويا وقد وصلت الينا بردية تتضمن احصاء من هذا القبيل «٤» أما حريتهم فى مزاولة عملهم فنعرفها من بردية تفهم منها أن الناس كانت تطلب الى النساجين أن يغزلوا وينسجوا لهم ملابسهم من أصواف أغنامهم «٥» •

***

ولم يصل الينا شىء من منسوجات الاسكندرية فى هذا العصر الذى نتحدث عنه ، فالحفائر الاثرية التى قامت فى الاسكندرية لم تكشف عن شىء من منتجات الانوال ولكنهـا أمدتنا بصور للمنسوجات رأينـاها فى مقابر البطالمة وهذه الصور تؤيد فى الحقيقة ما قاله قدماء الكتاب والمؤرخين عن منسوجات الاسكندرية ، ولم يعد الاستاذ ادريانى جانب الحق عندما قال : Rarement nous avons le plaisir de constater une correspondance si significative entre les monuments et la tradition écrite «٦»

---

1. Bouché-Leclercq, *op. cit.* vol III p. 172.
2. Maspéro, *op. cit.* p. 105.
3. Toutain, *op. cit.* 135.
4. P. Cairo-Zenon, 59295
5. P. Enteuxeis No. 4
6. Adriani, *La Nécropole de Moustafa Pacha.* p. 105

على أنه قد وصلت الينا قطعة نسيج من الصوف ليس من المستبعد أن تكون من انتاج الاسكندرية فى هذا العصر ، وهى قطعة كبيرة من القماش يغلب على الظن أنها كانت جزءا من ستر كبير ، وقد عثر عليها فى الحفائر الاثرية التى قامت فى مدينة أنطونيو سنة ١٩٠٧ ــ ١٩٠٨ ، وطولها ١٤٠ فى ٨٧ سنتيمترا • وهى الان فى متحف الاقمشة التاريخية بمدينة ليون بفرنسا • وهى تزدان بأسماك سابحة رسمت بطريقة غاية فى الابداع وبألوان متعددة فوق أرضية زرقاء مائلة الى الخضرة ويبدو واضحا ظل كل سمكة حافا بها • وقد نسبها كاتب الى احدى الجزر اليونانية «١» ، ونسبها آخر الى العصر الاسكندرى «٢» ، وقال ثالث «٣» ان بين زخارفها وبين طراز الفن الهلينستى صلة وثيقة تتجلى لنا اذا ماقارنا بينها وبين قطعة النسيج التى عثر عليها فى كرتش والتى تزدان بصور البط ، ونسبها رابع الى أواخر العصر الهلينستى «٤» • ونحن نرى أن هذه القطعة ترجع الى أواخر العصر الهلينستى على أساس زخارفها ولكن المشكلة هى فى أى مكان من العالم الهلينستى نسجت هذه القطعة ؟• هل نسجت فى احدى الجزر اليونانية ؟ • أم نسجت فى انطونيو حيث عثر عليها ؟• أم نسجت فى سوريا أو آسيا الصغرى اللذين كانا من أشهر مناسج الصوف فى ذلك العصر ؟ أم نسجت فى الاسكندرية عاصمة البطالمة ؟ . والواقع اننا لايمكننا أن نقطع بنسبة هذه القطعة الى واحد من تلك المراكز على أن ذلك لايمنعنا من أن نحاول البحث وراء أقرب هذه المراكز الى الحقيقة • فالدعوى التى تقوم على نسبة هذه القطعة الى احدى الجزر اليونانية تفتقر الى دليل ترتاح اليه • والدعوى التى تقوم على نسبتها الى مدينة أنطونيو بصعيد مصر

---

1. Catalogue des pièces principales exposées, Musée Historique des Tissus, Lyon, p. I. No. 2

2. Raymond Cox, *Les soieries d'Art*, pl. I. p. 47

3. Volbach, Arch. Ang. 1926, p. 239, fig 1. Beiblatt zum, J.D.A.I. 1/11.

4. Wace, *Egyptian Textiles (3rd.-8th century B.C.) Exposition d'Art CopteLe, Caire, 1944 ; The Veil of Despoina*, n. 3. A.J.A. vol. XXXVIII p. 107 ff.

لايمكن أن تكون مقبولة لان هذه القطعة لاشك فى أنها سابقة على ظهور المسيحية وهذه المدينة انما أسسها هدريان الامبراطور الرومانى فى سنة اثنين وعشرين ومائة بعد الميلاد كما أن الموقع الذى أسست عليه لم يكن معروفا قبل عصر البطالمة أى فى العصر الفرعونى بأنه مركز لصناعة الاقمشة والقطعة كما أشرنا من قبل هيلينية وليست فرعونية • أما نسبتها الى سوريا وآسيا الصغرى والاسكندرية فأمر يدعو الى التبصر والتفكير ذلك لان هذه البلاد مضافا اليها بلاد اليونان كانت مشهورة بنسج الصوف ، والعلاقات التجارية كانت رائجة بين بعضها البعض ، والمنسوجات من السلع التى يسهل نقلها من مكان الى مكان فالى أى قطر من هذه الاقطار يمكننا أن ننسب هذه القطعة اليه فى اطمئنان ؟ • الواقع أننا نجد أنفسنا أميل الى الشعور بأن مصر هى أرجح الامكنة لنسج هذه القطعة ذلك لانها كانت ذات شهرة واسعة فى المنسوجات فى العصور الفرعونية ، وقد بلغت درجة سامية من النضوج فى النسيج فى عصر البطالمة أيضا ، ثم أن دقة نسج القطعة موضوع البحث ، واتقان رسمها ينطقان بخبرة واسعة طويلة فى فن النسيج سواء فى الكتان أو الصوف ، وفى الحق أن جمال هذه القطعة الاخاذ ليذكرنا بصيحة الاعجاب التى صدرت من سيدتين زارتا قصر بطليموس الثانى وقد أخذتا بجمال الستائر المعلقة على الجدران حتى لقد صاحت احداهما لزميلتها قائلة « أنظرى أنه ليخيل الى أن الصور تتحرك ، انها ليست صورا ولكنها مخلوقات حية » «[1]» • كل ذلك يحملنا على الاعتقاد بأن الاسكندرية كانت المركز الذى نسجت فيه هذه القطعة •

محمد عبد العزيز مرزوق

1. Praxinoe and Gorgo, See Theocritus, *Idylls*, 15, V, 78 ff.

العلاقة بين صلاح الدين وأبى يوسف يعقوب
المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن الموحدى

للدكتور سعد زغلول عبد الحميد

مع مطلع القرن الحادى عشر الميلادى بدأت خلافة الامويين بقرطبة تضمحل ، وهكذا بدأت حركة الغزو المسيحية بالاندلس (La Reconquista) تأخذ شكلا جديا مزعجا .

تزعمت قشتالة هذه الحركة ، وساعدتها الممالك الاسبانية الفتية الاخرى مثل ليون وأرجون ثم البرتغال على زحزحة حدود الاسلام نحو الجنوب يوما بعد يوم . واضطرت العناصر العربية فى الغرب الاسلامى اثر ذلك أن تترك المجال الى العناصر الوطنية « البربرية » للقيام بحماية أرض الاسلام والدفاع عن حدوده فى تلك الجهات . هكذا قامت دولة المرابطين ، وتمكنت من ضم الممتلكات الاسلامية بجزيرة الاندلس الى المغرب ، وتوحد بذلك الغرب الاسلامى بصفة جدية لاول مرة ، وبدأ يتحرر بشكل واضح من الوصاية التى فرضها عليه الشرق الاسلامى والخلافة ــ ولو بصفة نظرية معنوية . وبدأ الجهاد من جديد ضد أعداء الاسلام فى أسبانيا ، لاستعادة الاراضى التى فقدها المسلمون ابان ضعف خلافة قرطبة وبعد سقوطها ، وألحق بممالك النصرانية فى شمال الجزيرة هزائم كثيرة كما دفع حدودها شمال نهر تاجو . ويعتبر الانتصار الاكبر الذى أحرزه يوسف بن تاشفين فى الزلاقة (Sacralias)ـ ٤٧٩هـ/١٠٨٦م) ــ والذى اقترن باسمه وخلده فى صفوف المجاهدين ــ ذروة المجد التى بلغها المرابطون .

فى هذا الوقت الذى تجددت فيه قوات المسلمين فى غربى البحر

المتوسط اكتسح الصليبيون البلاد الاسلامية فى شرقى ذلك البحر واستولوا على بيت المقدس ٤٩٢هـ / ١٠٩٩ م . وبذلك اتسع نطاق الصراع بين أوروبا المسيحية التى شعرت بقوتها ودولة الاسلام ، واتخذ شكل حرب عامة عبأ لها الفريقان كل قواهما المادية والبشرية . دارت هذه الحرب منذ ذلك الوقت فى جبهتين أو ميدانين ثابتين : سوريا وفلسطين فى الشرق حيث كان الفرنج يكونون نواة الجيوش الصليبية والترك نواة الجيوش الاسلاميه ، والاندلس فى الغرب حيث دار القتال بين الاسبان ــ يعاونهم الاقطاعيون من أنحاء أوروبا لاسيما الفرنج ــ وبين البربر يناصرهم العرب فى تلك الجهات .

ثم بدأ القرن الثانى عشر باستقرار الصليبيين فى الشام ، وضعف دولة المرابطين فى المغرب حيث ظهرت دولة بربرية جديدة هى دولة المصامدة أو دولة الموحدين أتباع محمد بن تومرت .

قام ابن تومرت بحركته كمصلح دينى أو « آمر بالمعروف » وساعدته الظروف ولاسيما تعلمه بالمشرق على جمع شتات قبائل المصامدة بجبال درن (أطلس) ، وكون حزبا أو مذهبا جديدا هو حزب الموحدين ، هدف هذا الحزب هو الرجوع بالاسلام الى مبادئه النقية الاولى ، والقضاء على الاختلافات المذهبية ، وتبعا لذلك تحقيق وحدة عالم اسلامى فتى يمكنه معاودة الفتوحات فى أرض الكفار .

نظم ابن تومرت حزبه الجديد على أساس عسكرى دينى ، وانفرد بالزعامة الدينية متخذا لقب المهدى أو الامام المعصوم ، وترك لتابعه المخلص عبد المؤمن بن على الزعامة العسكرية للحرب .

واصل عبد المؤمن بعد موت ابن تومرت الصراع ضد المرابطين فاستولى على مراكش (٥٤١هـ / ١١٤٦م) وطرد النورمانديين من افريقية ، وتمكن من توحيد المغرب كله ، ثم بدأ فى غزو الاندلس .

واتخذ عبد المؤمن لقب « الخليفة » قاطعا بذلك وبصفة نهائية كل تبعية ــ ولو شكلية ــ بين المغرب وخلافة بغداد ، مكونا من أسرة خلافية

جـديدة هى أسرة الموحـدين التى أخذت على عاتقها مواصلة الجهـاد فى أسبانيا ، وتمكنت من رد النصـارى بعيدا عن ممتلكات الاسلام شمال نهر تاجو ، بل وتوغلت فى أرض «الكـفار» ناشرة الدمار والخراب فى كـل مكان .

وتمكن يعقوب المنصور حفيد عبد المؤمن من احراز انتصار كبير فى وقعة الارك (Alarcos) (٥٩١ هـ / ١١٩٥م) ألزم النصرانية السكينة فى الاندلس، وأظهر تفوق المغرب بشكل واضح ، حتى ظن أن المشكلة الاسبانية ستنتهى على أيدى المصامدة الى صالح الاسلام .

فى الوقت الذى اعتلى يعقوب المنصور عرش خلافة الموحدين بمراكش (٥٨٠ هـ / ١١٨٤ م) ، كان موقف صلاح الدين قـد بدأ يثبت فى مصر والشام ، وذلك بوفاة آخر الفاطميين فى القاهرة (٥٦٧ هـ/١١٧١م) ، ثم وفاة نور الدين (٥٧٠هـ / ١١٧٤م) . وبوصول صلاح الدين ويعقوب الى السلطان يأخـذ الصراع بين النصرانية والاسـلام شكلا جديا ويـبدأ المسلمون يكيلون اللطمات لخصومهم فى الشام وفى الاندلس دون هوادة. ولكن هناك ملاحظة سبقت الاشارة اليها وهى : رغم أن الصراع فى طرفى البحر المتوسط كان صراعا بين أوروبا المسيحية والاسلام بوجه عام ، الا أنه فى كلتا المنطقتين له صفـاته الخاصة ، فبينمـا يقوم صـلاح الدين بالحرب فى الشام باسم الخلافة العباسية أى الخـلافة السنية التى لهـا السلطان الشرعى ــ اسميا على الاقل ــ على جميع المسلمين ، نجـد أن المجاهد المغربى يقوم بالحرب فى الاندلس باسم خلافته الخاصة أى خلافة الموحدين . هذا من الناحية الشرعية اذ أن عبء الحرب كان واقعـا من الناحية العملية على المتخاصمين الموجودين فى مناطق القتال شرقا أو غربا ــ وذلك اذا استثنينا المساعدات الآتية من الخارج .

بدأ صلاح الدين حملته المظفرة فى الشام فى صيف سنة ٥٧٥هـ/ ١١٧٩ م وكللت الحملة باستعادة بيت المقدس سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م ، وكتب عماد الدين الاصفهانى ــ كاتب صلاح الدين ــ الى ملوك الاسـلام يبشرهم بالنصر

المبين ، الا أن خطر الصليبيين لم يكن قـد زال نهائيـا ، اذ أن « جى دى لوزينيان » كان يحاصر عكا ، ثم ان سقوط بيت المقدس كان له وقع شديد فى أوروبا سيكون من نتائجه قيام الحملة الصليبية الثالثـة ، كما وردت الانباء الى صلاح الدين (٥٨٥هـ /١١٨٩ م) عن استعداد ملك الالمـان « فردريك بارباروسا » الذى اتخذ طريق البر مارا بالقسطنطينية على رأس جيش يبلغ ٦٠ ألفا حسب رواية العماد نفسه «[١]» .

أزعجت هذه الانباء صلاح الدين وقد كان مريضا حينذاك ، ورأى أنه لابد من الاستنجاد بملوك المسلمين ، حتى يمكنه مقاومة جحافل الصليبيين المنتظرة . فأرسل الكتب وبعث الرسل الى مختلف الجهات «[٢]» . وتحت أيدينا نص رسالتين صدرتا عن ديوان الانشاء بمصر ، والمرجح أنهمـا من انشاء القاضى الفاضل فى سنة ٥٨٥هـ / ١١٨٩م وسنة ٥٨٦هـ / ١١٩٠ م.

الرسـالة الأولى وردت فى كتاب صبـح الأعشى للقلقشنـدى «[٣]» ، والثانية فى كتاب الروضتين لأبى شامة «[٤]» ، وهى التى حملها عبد الرحمن ابن منقذ رسول صلاح الدين الى المغرب «[٥]» .

(١) الفتح القسى ، طبعة C. de Landberg بليدن ، ١٨٨٨ ، ص ٢١٥

(٢) الفتح القسى ، طبعة ليدن ، ص ٢٣٤ ، ابو شامة ، كتاب الروضتين ، طبعة القاهرة ، حـ ١ ص ١٧٠ .

(٣) صبح الاعشى ، القاهرة ، حـ ٦ ص ٢٦ ــ ٥٣٠ ــ هذه الرسالة كما يحفظها القلقشندى لاتحمل تاريخا ، ولكن يمكن القول بانها كتبت فى الفترة التى كان ينتظر فيها صلاح الدين وصول « فردريك بارباروسا » وموت هذا الاخير اى خريف عام ١١٨٩ . انظر Gaudefroy - Demombynes. Mélanges René Basset, Une lettre de Saladin au calife almohode t. II. p. 289.

(٤) كتاب الروضتين ، حـ ٢ ص ١٧٠ وما بعده .

(٥) المرجع السابق . نلاحظ هنـا ان ابا شامة يقول عن هذه الرسـالة الثانية ، انها دونت فى ٢٨ من شعبان سنة٥٦٨هـ/١٥ اكتوبر سنة ١١٩٠م ، وان رسول صلاح الدين غادر الاسكندرية فى ١٣ رمضان سنة ٥٨٦هـ / ١٥ اكتوبر سنة ١١٩٠ م فى شينى عمارته ١٢٠ رجلا . ولـكن رغم التفصيلات الدقيقة التى يعطيها ابو شـامة ، فان الشك الذى يحيط بهـذه التفصيلات يجعلنا نفضل الرجوع الى ابن عذارى فهو مرجع موثوق به وهو اكثر ضمانا فى هذا المضمار(Anonimo de Madrid y Copenhague - Anales del Instituto General y Tecncio, de Valencia, Valence, 1917 نص عربى وترجمة أسبانية بمعرفة الاستاذ H.Huici)

أما الرسالة الاولى فقد ذكرها القلقشندى كنموذج للرسائل الصادرة الى خلفاء الموحدين بالمغرب ، وللنوع الذى يكتب من ملك الى آخر ، والرسم فيه « أن تفتتح الرسالة بالدعاء المناسب للحال ثم يعبر المكتوب عنه عن نفسه بنون الجمع ، ويخاطب المكتوب اليه بأمير المؤمنين » «[٦]» .

وأما الرسالة الثانية التى نقلها أبو شامة ، فهى تضفى على الخليفة الموحدى وعلى صلاح الدين كذلك عددا من الالقاب غير الرسمية ، أى التى أتى بها الكاتب متأثرا بالاسلوب المستعمل وقتذاك والذى كان يعتمد اعتماداً كليا على السجع والمحسنات البديعية المختلفة ، فهو يلقب المنصور الموحدى مثلا بالاسفهسلار الاصيل ، العالم المحترم ، تاج الدولة ، أمير الملة ، صفوة الملوك والسلاطين .

هنا يظهر تضارب فى الشكل بين الرسالتين ، يجعلنا نشك فى أنهما نقلتا بأمانة عن الاصل ، أى يجعلنا نشك فى اصالتهما ، اذ ليس من المعقول أن يسمح صلاح الدين بتلقيب المنصور فى الرسالة الاولى بأمير المؤمنين ، أى أن يعترف بخلافته ثم يضن عليه بهذا الاعتراف فى الرسالة الثانية ، لاسيما وأن هذه الاخيرة كان يحملها الى المغرب رسول له خطره ، بمعنى أن صلاح الدين كان جادا فى توثيق علاقته بالموحدين «[٧]» .

مما يثير الشك كذلك فى اصالة هذه الرسالة أن أبا شامة يقول قبل أن يوردها : « كان بلغنى أن السلطان ــ رحمه الله ــ لما اشتد أمر الفرنج على

---

(٦) صبح الاعشى ، حـ ٦ ص ٢٦ ــ ٥٢٧ . تلاحظ ان الرسالة عندما تذكر الخليفة الموحدى بعد ذلك تخاطبه بكلمة سيدنا (ص ٢٧ــ٢٨ــ٥٢٩) .

(٧) هنا يمكن التفكير فى ان الرسالة الاولى ربما كانت من صنع القلقشندى فهو كما نرى يضعها كنموذج للرسائل التى يخاطب فيها المكتوب اليه بأمير المؤمنين ، هذا مع العلم بأن الرسالة تكرر بعد ذلك مخاطبة المنصور بكلمة سيدنا (انظر الهامش السابق) . هذا واذا قارنا هذه الرسالة برسالة اخرى كتبها القاضى الفاضل نفسه باسم صلاح الدين الى الخليفة المستضىء ببغداد (القلقشندى ، صبح ، حـ ٦ ص ٥٠٦) نرى كيف يتكرر لقب امير المؤمنين باستمرار مما يؤيد الشك فى رسالة القلقشندى .

عكما أرسل الى ملك المغرب يستنجد به عليهم ، ليقطع عنهم مادتها من جهة البحر . وكنت أطلب حقيقة ذلك وأبحث عن شرح واف ، فان العماد والقاضى لم يتعرضا له فى كتبهما . غير أن العماد ذكر كتابا كتبه القاضى الفاضل الى رسولهم بالمغرب يستنجز منه ماكان أرسل لاجله » . ويقول بعد ذلك : « ثم أرانى بعض الشيوخ الصلحاء الثقاة بخطه ماكنت أرومه : نسخة كتاب كتبه القاضى الفاضل ونقلته من خطه لابن منقذ » «[8]» .

بعد ذلك نقرأ فى كتاب الروضتين أن المؤلف وقف على كتاب « فاضلى للسلطان يشعر بأن الرسالة المغربية لم تكن برأى الفاضل ولا هو مختار لها » . فى هذا الخطاب يتضح أن القاضى الفاضل لم يكن يرغب فى كتابة رسالة للمغرب ، ولا فى سفر رسول ، رغم أنه يؤكد أنه لم يكن يكره ذلك . وهو يتكلم بعد هذا عن لقب أمير المؤمنين ، ويقول أنه « لايمكن الا التعريض لا التصريح » ، وفى نهاية الخطاب يتضح أن ابن منقذ رسول صلاح الدين كان يريد أن يكون الخطاب باسم أمير المؤمنين ، لانه لايستطيع أن يخاطب القوم الا بهذه التحية ، وأن صلاح الدين كان يوافقه على ذلك ولكن رأى الفاضل النهائى كان يستصوب ترك اللقب فى الكتاب مبهما ، تاركا الحرية للرسول بمخاطبة الخليفة الموحدى بلقب أمير المؤمنين اذا رأى أن هذا له من القوة ما يؤهله لحمل اللقب ، وأنه على استعداد لمساعدة صلاح الدين «[9]» .

كل هذا يظهر أنه كان هناك اختلاف فى الرأى بين رجال البلاط المصرى ، وأنه ربما لعبت الضغائن والحزازات الشخصية دورا مهما فى هذا الشأن ، كما يتضح مما تقدم أن الرسالتين بحالتهما الحاضرة مشكوك فى صحتهما شكلا ، أما من ناحية الموضوع فهما مقبولتان دون نقاش ، فصلاح الدين كان يطلب المعونة من كل أمراء الاسلام ، وفى حالة المغرب هذه كان يطلب المساعدة البحرية من الموحدين ضد النصارى الذين كانوا

---

(٨) كتاب الروضتين ، حـ ٢ ص ١٧٠ .
(٩) نفس المرجع ، حـ ٢ ص ٤ ــ ١٧٥ .

يستعدون لغزو الشام ، تساعدهم أساطيل جنوه والبندقية وصقلية وغيرها .

هكذا أقلع أبو الحارث عبد الرحمن بن منقذ من الاسكندرية ووصل افريقية فى شهر رجب سنة ٥٨٦هـ/ أغسطس ١١٩٠ «١٠» . وواصل السير بعد ذلك حتى مدينة بجاية من أرض افريقية أيضا . ورغم التكتم الشديد الذى لزمه رسول صلاح الدين بشأن الغرض من رحلته ، فانه قوبل بمقابلة طيبة من ولاة وعمال وممثلى يعقوب بافريقية وبالمغرب ، اذ كانت قد وصلتهم تعليمات من المنصور الذى كان مشغولا اذ ذاك بالحرب ضد البرتغال ، هذه الاوامر كانت تلزمهم بألا يسألوا الرسول عن الغرض من رحلته الى المغرب «١١» . ولاغرابة فذلك مظهر من مظاهر الحكم المطلق ، فيعقوب لايريد أن يحل محله أحد فى تصريف أمور دولته ، وهو يريد أن يكون صاحب الكلمة الاخيرة فى كل شأن من شئونها . وطلب الخليفة الموحدى أن يستصحب ابن منقذ الى مدينة فاس لينتظره هناك الى أن يعود من الاندلس «١٢» .

وفى فاس شاهد ابن منقذ عظمة المدينة المغربية الكبيرة التى بهرته بجمالها وكبر حدائقها واتساع ضياعها «١٣» . وقد أصيب المنصور بالمرض اثر عودته من الاندلس الى مراكش ، ورغم مرضه فقد كان يقوم شخصيا بالاشراف على كل شئون الدولة وخاصة خلال مدة النقاهة التى كانت

---

(١٠) ابن عذارى (Anonimo) ، ص ٦٣ . نلاحظ كما سبق ان اشرنا (هامش ٥) ان ابا شامة (حـ ٢ ص ١٧٣) وابن عذارى لايتفقان على هذا التاريخ ، فالاول يقول ان رسول صلاح الدين لم يصل الى طرابلس الا فى ٢٥ من شوال / ٢٥ من نوفمبر وانه مكث هناك حتى ٨ من ذى القعدة / ٧ من ديسمبر .

(١١) ابن عذارى (Anonimo) ، ص ٦٣ .

(١٢) المرجع السابق ، كتاب الاستبصار ، مخطوطة بالمكتبة الوطنية بباريز رقم ٢٢٢٥ ص ٢٩ ــ ب . ومؤلف هذا الكتاب وكان يكتب بالمنوب فى شهر رجب سنة ٥٨٧ / يونيه ١١٩١ يقول ان ابن منقذ كان فى فاس فى هذا الوقت منتظرا الاوامر الخليفية اى اوامر يعقوب ، انظر ابن خلدون ، العبر ، طبعة القاهرة حـ ٦ ص ٢٤٦ ، والسلاوى ، الاستقصا ، طبعة القاهرة ، حـ ١ ص ١٧٤

(١٣) العمرى ، مسالك الابصار ، ترجمة فرنسية ، طبعة باريز ، ١٩٢٧ ، ص ١٦٠ ، والقلقشندى ، صبح ، حـ ٦ ص ١٥٧ ، حيث ينقل عن العمرى .

تنقطع من حين الى حين باشتداد المرض «[١٤]» . وبعد أن قضى بعض الوقت بعاصمة ملكه ـ مدينة مراكش ، ذهب الى مدينة فاس محمولا على محفة، وكان رسول صلاح الدين مقيما هناك .

وصل المنصور الى فاس أول المحرم سنة ٥٨٨ (١٨ يناير ١١٩٢ م) لمتابعة علاجه الذى سيطول مدة سبعة أشهر . وفى خلال أسبوع أى فى يوم ٦ من المحرم (٢٣ يناير) استقبل المنصور ابن منقذ «[١٥]» ، حيث قدم اليه الهدية التى حمله اياها صلاح الدين «[١٦]» ثم شرح الغرض من سفارته وهو رغبة صلاح الدين فى تدخل الاساطيل الموحدية لحصار بلاد الكفار التى ترسل الامدادات الى الصليبيين فى الشرق ، كما يطلب المساعدة على فك الحصار عن عكا وتحريرها «[١٧]» .

حقيقة أن المعركة من أجل عكا كانت حامية الوطيس ، وصلاح الدين بأسطوله المحدود كان لايستطيع ايقاف الامدادات التى كانت تأتى الى

---

(١٤) عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، طبعة دوزى بليدن ، ص ٢٠٣ ، وابن عذارى (Anonimo) ، ص ٦٦ ، وروض القرطاس ، طبعة Upsala, Tornberg ، ١٨٤٣ ، ص ١٤٤ ، وابن خلدون ، العبر ، حـ ٦ ص ٢٤٥ ، والسلاوى ، الاستقصا ، حـ ١ ص ١٧٦! .

(١٥) كتاب الاستبصار ، مخطوطة بالمكتبة الوطنية بباريس رقم ٢٢٢٥ ص ٤٩ ـ ب . مؤلف هذا الكتاب الذى يظن أنه كان أحد كتاب الخليفة المغربى لايذكر شيئا عن هذه المقابلة ، اذ من المحتمل انه كان يعرف أن رد سيده كان سلبيا ، وكل ماذكره هو اعتقاده أن هذه الزيارة لم تكن الا لاعلان الولاء والخضوع من جانب صلاح الدين الى الخليفة الموحدى كما يقدم الامراء آيات الخضوع الى ساداتهم .

(١٦) كانت الهدية تتكون من : مصحفين كريمين بالخط المنسوب مخيشة بمسك ، ومائة درهم من دهن البلسان ، وعشرين رطلا من العود ، وستمائة مثقال من المسك والعنبر ، وخمسين قوسا عربية بأوتارها ، وعشرين نشابا هندية ، وعدد من السروج المذهبة . انظر ابن خلدون ، العبر ، حاصر ٢٤٦ ، وقابل (ابو شامة ، كتاب الروضتين ، حـ ٢ ص ١٧٣) و (السلاوى ، الاستقصا ، حـ ١ ص ١٧٤) .

(١٧) القلقشندى ، صبح ، حـ ٦ ص ٥٣٠ ، وأبو شامة ، كتاب الروضتين ، حـ ٢ ص ١٧٠ وما بعدها ، وانظر Gaudefroy - Demombyne, Mélanges R. Basset, Une lett. de Saladin, t II, p. 288 وابن خلدون العبر ، حـ ٦ ص ٢٤٦ ، والسلاوى ، الاستقصا ، حـ ١ ص ١٧٥ .

أعدائه عن طريق البحر . ولكن الذى يلفت النظر هو أن بطل الاسلام فى شرق البحر المتوسط لم يكن ليجهل قطعا أن زميله المغربى كان يعيش هو أيضا عيشـة صراع مستمر ضـد النصارى الاندلسيين بنظم رهبانهم ، يعاونهم أمراء الاقطاع الفرنسيون الذين كانت تستهويهم المخاطرات والسعى وراء الثروة فى أسبانيا وفى الاراضى المقدسة . ولاشك أيضـا أن صلاح الدين لم يكن ليجهل أن صاحب المغرب كان فى حاجة الى حشـد كل قواه البحرية والبرية ، حتى يتمكن من مغالبة أعدائه والزامهم الهدوء والسكينة. وهذا يدفعنا الى التسـاؤل ! كيف أقدم صلاح الدين على طلبـه المعونة البحرية من المنصور ؟ وللاجابة على هذا السؤال نستطيع أن نفترض أن الهيبة التى كان يتمتع بها المجاهد المغربى فى الشرق كان مبالغا فيها بعض الشىء «١٨» ، نتيجة لقوة الاساطيل الموحدية «١٩» . فصلاح الدين كان يرى أن خطر الصليبيين والجهاد ضدهم يحمله عبئا ثقيلا، وأنه ينبغى أن يشاطره المجاهد المغربى هذا العبء ، وأن يتحمل معه بعض المجهود والتضحيات : أليست الاراضى المقدسة لها حرمتها وقدسيتها بالنسبة لجميع المسلمين فى العالم ! اذن فالواجب على المسلمين فى كل مكان حمايتها من خطر الكفار. واذا كانت ممالك الصليبيين فى الشـام تستقبل الامدادات والمسـاعدات الدائمة من أوروبا ، أى من المغرب المسيحى ، فالمشرق الاسلامى هو كذلك ينتظر بدوره امدادات ومساعدات أجدى وأقوى من المسلمين بالمغرب «٢٠»

---

(١٨) رسالة القلقشندى (صبح ، حـ ٦ ص ٥٢٩) تقول لم نر لمكاثرة البحر الا بحرا من اساطيله المنصورة ، فان عددها واف ، وشطرها كاف ، ويمكنـه ــ ادام الله تمكينه ــ ان يمد الشام منه بعدد كثيف .

(١٩) يقول ابن خلدون (العبر ، حـ ١ ص ٣٧ وما بعده) عنـد كلامه عن قيادة الاساطيل : « لما استفحلت دولة الموحدين فى المائة السادسة وملكوا العدوتين (البرين) اقاموا خطة هذا الاسطول على اتم ماعرف واعظم ماعهد.. انتهت اساطيل المسلمين على عهده ــ يوسف بن عبد المؤمن ابو المنصور ــ فى الكثرة والاستجادة ما لم تبلغه من قبل ولا من بعد فيما عهدنا » .

(٢٠) القلقشندى ، صبح ، حـ ٦ ص ٥٢٨ ، ابو شامة ، كتاب الروضتين ، حـ ٢ ص ١٧١ .

ولكن رغم أن ابن منقذ استعمل كل ما أوتى من مقدرة ومواهب فى مديح يعقوب والاشادة بمجده «٢١» ، الا أن اجابة المنصـور لم تكن فى صالحه تماما . فمع أنه خرج راضيا من الناحية الشخصية ، مغمورا بالهدايا والاعطيـات ، الا أنه أصيب بفشل تام فيما يتعلق بالغرض من سفارته ، بمعنى أنه لم ينل المساعدة البحرية المنشودة «٢٢» .

اذا حاولنا أن نتعرف على الاسباب التى دعت المنصور الى عدم اجابة طلب صلاح الدين فاننا نجد كثيرا من التفسيرات . أولها مساعدة «المماليك» المصريين ــ أتباع تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أخى صـلاح الدين ــ لبنى غانية فى ثورتهم بافريقية ضد المنصور ، والتى كان صلاح الدين يظهر فيها ، ولو بصفة غير مبـاشرة ، بمظهر الشريك الذى لايمكنه التهرب من المسئولية. ففى سنة ٥٦٨هـ/٢-١١٧٣م خرجت جماعة من الترك المصريين (الغز أو الأغز أو الأغزاز) تحت قيادة قراقوش وبوزبا من أتباع تقى الدين

---

(٢١) هنا نجد ان ابن منقذ لايتردد فى تلقيب المنصور بأمير المؤمنين فيقول فى قصيدته :

اليك امير المؤمنين ولم نزل الى بابك المامول ترجى الرواحل

انظر السلاوى ، الاستقصا ، حـ ١ ص ١٧٥ ، ابو شامة ، كتاب الروضتين حـ ٢ ص ١٧٤ حيث ينقل هذا الشعر ولكنه يضع لقـب أمير المسلمين بدلا من امير المؤمنين اى اللقب الذى هو اقل من اللقب الخلافى . ولكن من المرجح ان ابن منقـذ لم يكن ليستطيع الا الاعتراف بالخلافة المؤمنية أثنـاء وجوده فى المجتمع الموحـدى بالمغرب . وقد سبق ان راينا ان ابن منقذ كان يصر على ان يحيى المنصور بهذا اللقب وذلك قبل مغادرته مصر .

(٢٢) يقال انه مدح المنصور بقصيدة من اربعين بيتا فمنحه عن كل بيت الف درهم وقال انما اعطيناه لبيته ،ويعلق السلاوى على هذه العبارة الاخيرة قائلا (الاستقصا ، حـ ١ ص ١٧٥) يعنى انه لم يعطه من اجل صلاح الدين . هنا نلاحظ ان ابن خلدون ، العبر ، حـ ٦ ص ٢٤٦ ، ينسى مبادىء التـاريخ العلمى حسب ما يعرضها فى مقدمته ، فبعد أن يقول ان المنصور اعتـذر عن عدم امكانه القيام بالمسـاعدة البحرية المنشودة ، يعود فيقول انه ــ حسب رواية اخرى ــ عبأ المنصور لصلاح الدين ١٨٠ مركبا وان هذه منعت النصارى من سواحل الشام .

متجهة نحو افريقيــة والمغرب «٢٣» وبدأت بتوطيد سلطانها بطرابلس تحت زعامة قراقوش الذى سيعظم شأنه ويلتصق اسمه بحوادث طرابلس وافريقية فى هذه الفترة وبالتالى بدولة الموحدين .

وهنــاك سؤال يصعب الاجابة عليــه هو ماذا كان هــدف قراقوش وأصحابه ؟ والظــاهر أن الذين يهمهم هــذا الامر لم يكونوا ليستطيعوا الاجابة على هذا السؤال . هل كان هدفهم ايجاد مأوى يلجأ اليه صــلاح الدين فى حالة ماذا انتهى التنافس بينه وبين نور الدين بانتصار الاخير «٢٤»؟ أم لمناصرة البدو من بنى هلال وبنى سليم وبنى غانية ، لمحاولة اعادة بنــاء الدولة المرابطية ، تحت اشراف صلاح الدين وسيادة الخلافة العباسية ! أم أن قراقوش خرج من مصر ليعمل لحســابه فى المغرب جريا وراء السلطان والثروة والمغامرة ! ان ســير الحوادث ــ اذ هو يوما مع الموحدين ويوما ضدهم ــ يجعلنا نميل الى الاخذ بهذا الرأى .

فى أول حكم المنصور سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م قام بنو غانية حكام ميورقة (جزر البليار الحالية) ، وهم عائلة من المرابطين لم يستطع الموحدون غزوجزرهم، بحملة على افريقية ضــد أعدائهم الموحدين ، وبدأو بفتح بجاية والجزائر ومليانة وغيرها «٢٥» . ولم تستطع جيوش الموحــدين أن تقضى عليهم فى

---

(٢٣) التيجانى ، ترجمة فرنسية Voyage du Cheikh at-Tijani dans la régence de Tunia, trad. Tonsseau (A.), Paris,1853, p. 102 ef suivantes يذكر التيجانى قراقوش وابراهيم بن فراكثين ، ابو شامة ، كتاب الروضتين، حـ ٢ ص ١٧١ ، يذكر قراقوش وبوزيا وقد اخذنا به ، كتــاب الاستبصار ، مخطوطه باريز ص ٥٨ ، يسميه أبوزيا ، بينما هناك خطاب رسمى موحدى (Trente-sept lettres officielles almohades, textes arabes, éd. Rabat, 1941, p. 198, études par E. Lévi-Provenançal, Paris, 1942, p.62) يسميه ابو زيان ، انظــر ابن عذارى ، (Anonimo) ص ٥٣ ، ابن خلدون العبر ، حـ ٥ ص ٢٨٦ (ينقل التيجــانى) ، وانظــر A. Bel, Les Banu Ganiya, p.61 et suiv.

(٢٤) التيجانى ، الرحلة ، الترجمة الفرنســية ، ص ١٠٣ ، ابن خلدون ، العبر ، حـ ٥ ص ٢٨٦ .

(٢٥) انظر هامش ٢٣ .

تلك الجهات بل سيظل الصراع سجالا بين كر وفر مدة طويلة (حوالى نصف قرن) .

بنو غانية هؤلاء قاموا بحملتهم هذه باسم الخلافة العباسية وتحت أعلامها السوداء «٢٦» . وباندفاعهم نحو طرابلس أثناء الصراع ، وجدوا لانفسهم هناك حلفاء طبيعيين هم المماليك المصريون على رأسهم قراقوش ، ثم من كان يتعاون معهم من عرب هلال وسليم مثل جشم ورياح والاثبج الذين أجابوا دعوة الميورقيين لمساعدتهم «٢٧» . والحقيقة كان من السهل أن تتفق أهواء بنى غانية الذين يريدون الثأر من الموحدين ، ومحاولة اقتطاع الولاية الشرقية من دولتهم ، مع مصالح الترك المصريين وذلك لاسباب سياسية وأخرى دينية من السهل ادراكها : فالمماليك كان من مصلحتهم نشر نفوذ مصر الاسمى على الاقل فى هذه البلاد ، وكذلك اضعاف سلطان الموحدين هناك ، ثم انهم بعد ذلك يستطيعون أن يؤيدوا مطامعهم الشخصية باعلان دوافع دينية كالتى أعلنها الميورقيون وهى الاعتراف بخلافة بغداد باعتبارها السلطة الشرعية الوحيدة فى المغرب .

هكذا بدأ بنو غانية والمماليك المصريون بالعمل سويا ضد الموحدين ، بل وتمكنوا من انزال هزائم منكرة بهم ، حتى أن افريقية كلها سقطت فى وقت بأيديهم عدا مدينتين هما تونس والمهدية «٢٨» . وقام ابن غانية بعمل سياسى بارع ، وهو أنه الى جانب رفع الاعلام العباسية أرسل ابنه مع كاتبه عبد البر بن فرسان الى الخليفة الناصر بن المستضىء «٢٩» لاعلان الطاعة لهذا الخليفة ، وطلب الخلع والاعلام السوداء منه . وكان من الطبيعى أن

---

(٢٦) عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص ١٩٦ ، ابن عذارى (Anenimo) ص ٤٤ .

(٢٧) التيجانى ، الرحلة ، الترجمة الفرنسية ، ص ١٠٣ ، ابن خلدون ، العبر ، حـ ٥ ص ٢٨٦ ، حـ ٦ ص ٢٠ وما بعده .

(٢٨) ابن الاثير ، الكامل ، طبعة طورنبرج ، بليدن ، حـ ١١ ص ٣٤٢ .

(٢٩) ابن خلدون، العبر، حـ ٦ص١٩٢ ، انظر المقرى ، نفح الطيب ، حـ ٢ ص ٢ — ٦٤٣ .

يقابل ديوان الخليفة ببغداد هذه البعثة قبولا حسنا ، وأن يمنح ابن غانية ما كان يمنحـه للمرابطين من ميزات لاسيما لقب « أمير المسلمين » ، وأن يطلب الى صلاح الدين أن يناصر الميورقيين فى كفاحهم «[٣٠]» . ورغم هذا فقد انتهى الصراع بأن عمل بنو غانية وحدهم ، أما المماليك المصريون فقد طلبوا الامان من الموحدين ، فأرسل المنصور جزءا كبيرا منهم الى المغرب الأقصى ، للعمل فى الجيش النظامى بالعاصمة «مراكش» «[٣١]» .

كان صلاح الدين يعلم أن أعمال أتباعه هؤلاء تعتبر أعمالا عدائيـة بالنسبة للموحدين ، وأن المنصور ربما آخـذه على ذلك ، ومنع المعونة اللازمة له . وعلى ذلك فان ابن منقذ أحيط علما بهذا ، وطلب اليـه أن يعتذر عن ذلك بأن المملوكين اللذين خرجا من مصر سنة ٥٦٨ هـ ان هما الا شخصان لاخطر لهما على الاطلاق ، اذ هما من « نفايات الرجال وليسا مـن وجوه المماليك والامراء » ، وأنهما ليسـا من أولئك الرجال الذين « اذا غاب أحضر ولا ممن اذا فقد افتقد » ، فهو يستعيذ بالله من أن يأمر مفسدا يفسد فى الارض .

كان من السهل اذن على صلاح الدين أن يعتذر عما فعله مملوك ابن أخيه بالمغرب ، ولكن لم يكن هناك ما يحمل المنصور على أن يصـدقه أو يقبل عذره . فموقفه كان غامضا بل ربما كان مسئولا عما حدث ولو بطريقة غير مباشرة كما رأينا ، ولاشك أن هذا كان سببا كافيا لان يرفض المنصور تقديم بحريته لمن كان يناهضه . ويضاف الى هذا ما أشرنا اليه من عـدم اعتراف صلاح الدين للخليفـة الموحدى بلقب أمير المؤمنين ، وهو اللقب الذى انتحله الموحدون لانفسهم «[٣٢]» .

---

(٣٠) ابن خلدون ، العبر ، حـ ٦ ص ١٩٢ .

(٣١) عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص ١٦٠ ، ابن الاثير ، حـ ١ ص ٣٠٩ ، انظر G. Marcais, Les Arabes en Berberie du XIe au XIVe siècles, Constantuin-Paris, 1913, pp. 198 et suivantes.

(٣٢) انظر ابن خلكان ، الوفيات ، حـ ٤ ص ٣٨١ الذى يقول ان صلاح الدين كتب اليه بلقب امير المسلمين وليس بلقب أمير المؤمنين ، قابل ابو شامة ، كتاب الروضتين ، حـ ٢ ص ١٧٤ ، السلاوى ، الاستقصا ، حـ ١ ص ١٧٤ .

هذه الاسباب وتلك العلل لها قيمتها وربما كان لها تأثيرها ، الا أنها تظهر ثانوية بالنسبة للعوامل الاخرى التى لها صبغتها الجدية . ففى هذا الوقت كان المنصور مريضا ، ولم تكن فترة مرضه خطيرة على شخصه فحسب بل على حياة دولته أيضا ، فكان عليه قبل أن يفكر فى مساعدة المسلمين بالمشرق أن يركز اهتمامه لاستتباب الامن والسلام داخل دولته ، وأن يقتل كل محاولة أثيمة ضد خلافته . ففى هذه الاثناء نراه يقتل أخاه أبا يحيى الذى أراد أن يدعو الى البيعة لنفسه بدلا من أبى محمد عبد الله ابن المنصور الذى كان أعلن وليا للعهد فى هذا الوقت «٣٣» . والى هذا فان موقف المنصور لم يكن أفضل من موقف صلاح الدين ، فهو لم يكن يستطيع أن يقدم المعونة البحرية المنشودة ، والتى كان يرغبها من غير شك جميع المسلمين ، لانه فى حاجة الى كل قواته البحرية لمواصلة الصراع ضد الميورقيين القراصنة ، ثم انه كان عليه أن يحمل كل قواته البرية الى أسبانيا عبر المضيق ، وأن يؤمن طريق مواصلاته ضد قوات أعدائه البحرية ، والدفاع عن ثغور الاسلام فى الغرب ضد كل خطر بحرى مثل ذلك الذى دعا الى سقوط شلب (Silvès) بين أيدى البرتغال سنة ٥٨٥هـ/١١٨٦م «٣٤» . وستثبت الحوادث التالية فى أسبانيا أن المنصور كان محقا عندما رفض توزيع قواته ، كما أن الانتصارات العظيمة التى سيحرزها ضد ممالك النصارى الفتية هناك ، و لاسيما انتصاره الباهر فى موقعة الارك ضد قشتاله ، ستثبت أن تقديره للموقف لم يكن خاطئا .

يتضح مما سبق أن طلب صلاح الدين المساعدة من المغرب أثناء كفاحه ضد المسيحية فى سبيل تحرير الاراضى المقدسة قوبل بالرفض من جانب المنصور الموحدى ، ذلك الرجل الذى كان «مظهرا للشريعة غازيا» «٣٥» ،

---

(٣٣) عبد الواحد المراكشي ، المعجب ، ص ٢٠٤ .

(٣٤) ابن عذارى (Amonimo) ، ص ٥٧ — ٥٨ ، ابن خلكان ، الوفيات ، حـ ٣ ص ٣٧٥ ، عبد الواحد المراكشي ، المعجب ، ص١٩٦ ، الحميرى ، الروض المعطار ، ص ١٠٦ .

(٣٥) ابو شامة ، كتاب الروضتين ، حـ ٢ ص ١٧٤ .

والذى كان متعصبا للاسلام الى أقصى حد .

ولكن رفض مثل هذا الطلب العزيز على قلوب المسلمين جميعا لم يكن ليتم دون أن يكون له صدى لاسيما وأن المغاربة كانوا يجاهدون الى جانب اخوانهم المشارقة بالشام «٣٦» . ذلك الصدى سيظهر بعد وفاة المنصور سنة ٥٩٥هـ/١١٩٩ م ، فقد نبتت رواية تقول ان المنصور لم يمت وانما زهد فى الدنيا وساح فى الارض نحو الشرق متعبدا . كان ابن خلكان أول من أثار هذه المسألة «٣٧» ذاكرا أنه يوجد فى قرية قريبة من المجدل بفلسطين قبر يؤكد الجميع أنه قبر يعقوب المنصور ، ومع هذا فقد عاد ابن خلكان وذكر أن المنصور مات بالمغرب .

هذه المتناقضات التى ينقلها أغلب الكتاب المتأخرين عن ابن خلكان تدعونا الى محاولة النظر فى هذه المشكلة قبل وضعها فى صف الخرافات والاعتقادات الشعبية الزائفة . ومن الغريب حقيقة أننا نجد فى تاريخ الموحدين كثيرا من الغموض الذى يحيط بنهاية كثير من شخصياته الكبيرة «٣٨» . ويمكن أن تفسر هذه الظاهرة بأسباب كثيرة : منها الصدفة المحضة ، ومنها اغراض المؤرخين المتأخرين وخاصة من كتب منهم أيام بنى مرين أعداء الموحدين وخلفائهم بالمغرب الاقصى ، ومنها عادات وتقاليد المجتمع المغربى الذى يتعلق بالاشياء الخرافية والخارقة للعادة . ولكن هناك سؤالا لابد من البحث له عن جواب . وهو اذا كان من المعقول أن يتعلق المغاربة بأميرهم العظيم الى درجة تمنعهم من أن يجعلوه يموت طبيعيا

---

(٣٦) انظر ابن جبيره الرحلة ، طبعة ليدن ، ١٩٠٧ ، ص ٣٠٧ .

(٣٧) الوفيات ، حـ ٣ ص ٣٧٩ ، المقرى ، النفح ، حـ ٢ ص ١١٩٠ ، السلاوى الاستقصا ، حـ ١ ص ١٨٤ .

(٣٨) عن موت القائد الونشريشى انظر ابن الاثير ، حـ ١٠ ص ٤٠٧ ، عن وفاة محمد بن تومرت انظر روض القرطاس لابن ابى زرع ، ص ١١٨ (CF. EF. Gautier, Passéde Afrique p66-7) عن مصرع يوسف بن عبدالمؤمن انظر ابن الاثير ، حـ ١٠ ص ٣٣١ ، ابن خلكان ، الوفيات ، حـ ٣ ص ٤٦٥ ، المقرى ، النفح ، حـ ٢ ص ١١٨٨ ، عن وفاة ابى عبد الله محمد الناصر انظر ابن خلكان ، الوفيات ، حـ ٣ ص ٣٨٣ .

كما يموت غيره ، وتدفعهم الى أن يحيطوا موته بهالة من الغموض والعظمة، فكيف نفسر ما يقوله المشارقة من أن قبره موجود بأرضهم بالشام حسب مايؤكده ابن خلكان ! هذه النقطة التى دعت السلاوى «[٣٩]» الى عدم اهمال هذه الرواية ووضعها فى صف الخرافات الشعبية كما فعل ابن الخطيب «[٤٠]» والمقرى «[٤١]» . ولمحاولة الرد على هذا السؤال نحاول النظر فى المسألة من الناحية التاريخية الصرفة : يتبين من المصادر الموثوق بها ـ رغم اختلافها بالنسبة لتحديد تاريخ وفاة المنصور ـ ان المنصور توفى فى الشهور الأولى من سنة ٥٩٥هـ ، وهناك احتمال كبير فى أن يكون قد مات يوم ٢٢ من ربيع الأول من هذه السنة (٢٣ يناير سنة ١١٩٩) «[٤٢]» كما يمكن التأكيد بأنه دفن فى مدينة تنملل الى جانب ابن تومرت وجده وأبيه «[٤٣]» . ورغم أن موقف الدولة كان قد تحسن فى اسبانيا بانهزام النصارى أمام جيوش الموحدين فانه لم يكن قد استقر بعد فى افريقية لوجود بنى غانية ، ثم أن ولى العهد لم يكن قد بلغ العشرين ، وعلى هذا لم تكن الظروف تسمح للمنصور بأن يتخلى عن مهام الحكم ليتفرغ للعبادة والرحلة المتصوفة نحو الشرق . ولكنا فى نفس الوقت نعلم أنه كان قد

---

(٣٩) الاستقصا ، حـ ١ ص ١٨٤ .

(٤٠) رقم الحلل ، ص ٥٩ .

(٤١) النفح ، حـ ٢ ص ١١٩ .

(٤٢) ابن عذارى (Anonimo) ص ٨١ . يقول المؤلف ان ابنه محمدا اعتلى العرش يوم ٢٣ من ربيع الاول سنة ٥٩٥ ، روض القرطاس ، ص ١٤٢ ، ١٥٢ يقول انه مات ليلة الجمعة ٢٢ من ربيع الاول سنة ٥٩٥ ، ابن الخطيب ، رقم الحلل ، ص ٥٩ (٢٨ ربيع الاول ٥٩٥) ابن الابار ، تكملة الصلة ، طبعة Cookra بمدريد سنة ١٨٨٧ ، حـ ١ ص ٢٧٠ (شهرا بعد موت ابن رشد الذى توفى فى ٩ من صفر سنة ٥٩٥) ، ابن الاثير ، حـ ١٢ ص ٩٥ (١٨ من ربيع اثانى سنة ٥٩٥ ، ١٨ من جمادى الاول سنة ٥٩٥) ، الحلل الموشية لمؤلف مجهول، طبعة الرباط ، ص ٣٤ (ربيع الاول سنة ٥٩٥) ، عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص ٢٢٤ (أول صفر سنة ٥٩٥) ، ابن خلكان ، الوفيات ، حـ ٢ ص ٣٧٩ (أول جمادى الاول ٥٩٥ ، ١٧ ربيع الثانى ، اول صفر) .

(٤٣) الحلل الموشية ، طبعة الرباط ، ص ١٣٤ ، روض القرطاس ، ص١٤٢، انظر F. Ferriol, Les ruines de Tinmel, Hespéris, 1922, p. 163.

أظهر الرغبة فى المسير الى الشرق ومصر لتطهيرها من البدع واظهار الدين الصحيح «[٤٤]» • ونحن نتذكر أن هذه الفرصة كانت سنحت له عندما طلب صلاح الدين اليه أن يمده بالمعونة العسكرية التى كان يرغب فى تحقيقها كل المسلمين •

نظن أن رفض المنصور تلك المساعدة كان له صدى فى نفوس المغاربة المقيمين بالشرق ، وكان عدد كبير منهم يحارب بالشام • هذا الصدى هو الذى دعا الى نسج خيوط هذه القصة القائلة بأنه ترك سلطانه واتخذ طريق الاراضى المقدسة ـ حيث لقى النصارى صدمات عنيفة من المسلمين ـ وهناك مات قرب المجدل • نستنتج من هذا أنه يمكن اعتبار رحلة الزهد هذه فى نظر مؤلفى هذه القصة كاعتذار من جانب المنصور يشترى به نفسه ، وكمثل من أمثلة الورع والدين الصحيح يضربه المغرب للمشرق • ويمكننا أن نستنتج من ذلك أيضا أن القصة الخرافية التى ظهرت ـ وهذا شىء غريب ـ فى المشرق انما هى مغربية الاصل • يؤيد ذلك قصة مغربية ـ لحما ودما هذه المرة ـ تقول أن يعقوب لم يتجه نحو الشرق من أجل التعبد والزهد ، انما ذهب الى الاندلس كمرابط فى الثغر للجهاد ضد الكفار «[٤٥]» •

---

(٤٤) عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص ٢٠٦ ـ انظر ابن جبير ، الرحلة ، طبعة ليدن ، ١٩٠٧ ص ٥٣ ، ٧٨ ، ٧٩ (يرى الكاتب الذى يزور مصر فى تلك الفترة أن كل الدلائل تظهر ان الموحدين سيفتحون مصر وان المصريين انفسهم يتشوقون الى ذلك) •

(٤٥) الزركشى ، تاريخ الدولتين ، طبعة قسطنطينة ، ١٩٥ ص ١١ •

« الاقسام الجغرافية لجزيرة العرب »

كما تصورها المصادر العربية

حدود الجزيرة العربية :

اختلفت المصادر العربية فى رسم الحدود الجغرافية لبلاد العرب . ويرجع اختلافها فى ذلك الى تباين المناهج التى اتبعتها فى تناول الموضوع ومعالجته . ونستطيع أن نستخلص من بين هذه الخلافات اربعة آراء رئيسية فى معالجة الموضوع .

اما الراى الاول فهو راى فقهاء الدولة ورجال التشريع فيها . ذهبوا فى تحديدهم لرقعة البلاد العربية الى اتخاذ التقسيم الادارى ـ الذى اعتمد عليه ديوان الخراج فى تحديد اعمال الدولة ـ اساسا يستندون اليه فى مذهبهم الذى ذهبوا اليه .

« ذكر ابن وهب عن مالك قال : ارض العرب مكة والمدينة واليمن » (١)

« وقال احمد بن المعذل حدثنى يعقوب بن محمد بن عيسى الزهرى قال : قال مالك بن انس جزيرة العرب المدينة ومكة واليمامة واليمن » (١)

« وقال المغيرة بن عبد الرحمن : جزيرة العرب مكة والمدينة واليمن وقرياتها » (١) .

فهذه النصوص الثلاثة تتفق على تحديد رقعة بلاد العرب « بمكة والمدينة واليمن » ولكنها تختلف بعد ذلك فى شأن اليمامة . وقد اعتمدت هذه النصوص على وجهة النظر الفقهية التى كانت تأخذ ـ فى تحديدها للامصار وكور الاقاليم وما تشتمل عليها من القصبات والمدن ـ بالتحديد السياسى الذى حددته الدولة . فالاعمال الرئيسية فى بلاد العرب كانت مكة والمدينة واليمن . وكانت نجد تدخل ضمن عمل المدينة .

اما اليمامة فاختلافهم فى شأنها راجع الى اختلاف وضعها بين العصرين الاموى والعباسى . ففى عهد الامويين كانت اليمامة تضاف أحيانا الى المدينة ،

(١) البكرى : معجم ما استعجم (القاهرة ١٩٤٥) ٥

وأحيانا تفرد براسها فتكون قصبة مستقلة . وبهذا نستطيع ان نفهم الاختلاف الذى نراه بشأنها فى النصوص التى رويت عن مالك . واما فى عهد العباسيين فكانت اليمامة والبحرين وعمان عملا واحدا من أعمال العراق . « البحرين من اعمال العراق . وحده من عمان ناحيةً جُرْفار. واليمامة على حيالها ، وربما ضمت اليمامة الى المدينة ، وربما افردت . هذا كان فى ايام بنى أمية . فلما ولى بنو العباس صيروا عمان والبحرين واليمامة عملا واحدا » (١) .

فحدود البلاد العربية على هذا الراى هى التى تدور حول مكة والمدينة واليمن تدخل فى ذلك نجد لانها كانت تعتبر من اعمال المدينة دائما . وقدتدخل اليمن ضمن هذه الحدود . وأما فى عهد العباسيين فكانت تضاف الى اعمال العراق . وتدخل فى ذلك توابع اليمن من الاحقاف والاشحار اذا اعتبرنا الضمير فى « قرياتها » يعود على اليمن .

اما عمان والبحرين فتخرجان عن هذا التحديد اذ كانتا دائما من اعمال العراق فى عهد الامويين والعباسيين على السواء . لذلك اخرجها مالك والمغيرة والزهرى من اعمال بلاد العرب .

ومرجع الفقهاء فى هذا ـ كما نفهم من قول ابى اسحق الحربى ـ هو عمل عمر بن الخطاب فى خلافته « واخرج عمر بن الخطاب اليهود والنصارى من جزيرة العرب ، الا انه لم يخرجهم من نجران ولا اليمامة والبحرين فسميت العروض » (٢) فعمر قد اعتبر بلاد العرب قاصرة على اعمال مكة والمدينة وبهذا اخذ الفقهاء اول الامر فيما يظهر ، ولكنهم امام عمل الامويين والعباسيين ـ الذين اضافوا اليمن الى أعمال بلاد العرب ـ لم يكن لهم بد من ان يعدلوا عن رايهم الاول . واضافوا اليمن كذلك الى رقعة البلاد العربية .

وقد تأثر بعض الجغرافيين بهذا الراى فى تحديدهم لرقعة الجزيرة العربية .

واما الراى الثانى فيحدد رقعة البلاد العربية تحديدا جغرافيا . فيجعل البحر حدها الغربى والجنوبى والشرقى ، ويكمل هذا الحد من ناحية الشرق نهر الفرات الذى ينعطف بعد ذلك فى شمال سوريا ، ثم يتجه حتى يصل الى خليج العقبة .

قال ابن حوقل « والذى يحيط بها (ديار العرب) بحر فارس من عبادان ـ وهو مصب ماء دجلة فى البحر ـ فيمتد على البحرين حتى ينتهى الى عمان،

---

(١) ياقوت : معجم البلدان ـ مادة « البحرين »

(٢) البكرى معجم ما استعجم (القاهرة ١٩٤٥) ١٢

ثم يعطف على سواحل مهرة وحضرموت وعدن حتى ينتهى على سواحل اليمن الى جدة ، ثم يمتد على الجار ومدين حتى ينتهى الى ايلة ، ثم قد انتهى حينئذ حد ديار العرب من هذا البحر . وهذا المكان من البحر لسان ويعرف ببحر القلزم ـ والقلزم مدينة على طرفه وسيفه ـ فاذا استمر على تاران وجبيلان وصل الى القلزم وينقطع حينئذ . وهو شرقى ديار العرب وجنوبيها وشيء من غربيها . ثم يمتد من ايلة على مدائن قوم لوط والبحيرة الميتة التى تعرف ببحيرة زغر الى الشراة والبلقاء وهى من عمل فلسطين ، واذرعات وحوران والبثنية وغوطة دمشق ونواحى بعلبك وهى من عمل دمشق ، وتدمر وسلمية وهما من عمل حمص ، ثم الى الخناصرة وبالس وهما من عمل قنسرين . وقد انتهى الحد الى الفرات . ثم يمتد الفرات على ديار العرب حتى ينتهى الى الرقة وقرقيسيا والرحبة والدالية وعانة والحديثة وهيت والانبار الى الكوفة ومستفرغ مياه الفرات الى البطائح ، ثم تمتد ديار العرب على نواحى الكوفة والحيرة على الخورنق وعلى سواد الكوفة الى حد واسط فتصاقب ما جاور دجلة وقاربها عند واسط مقدار مرحلة ، ثم تستمد وتستمر على سواء البصرة وبطائحها حتى ينتهى الى عبادان .

وهذا الذى يحيط بديار العرب : فما كان من عبادان الى ايلة فانه بحر فارس ويشتمل على نحو ثلاثة ارباع ديار العرب وهو الحد الشرقى والجنوبى وبعض الغربى . وما بقى من حد الغربى من ايلة الى بالس فمن الشام . وما كان من بالس الى عبادان فهو الحد الشمالى . ومن بالس الى ان تجاوز الانبار فمن حد الجزيرة . ومن الانبار الى عبادان فمن حد العراق » (١)

وبحر فارس الذى يذكر فى هذا النص يقصد به الخليج الفارسى ، وبحر اليمن ، ثم البحر الاحمر . وقد اطلق المؤلف عليها جميعا اسم بحر فارس .

ويتفق مع هذا النص تماما نص الاصطخرى الذى يورده فى المسالك والممالك (٢) ، لم يختلف عنه الا فى كلمة واحدة اذ قرأ كلمة « البحيرة الميتة » . الواردة فى النص « البحيرة المنتنة » . وهذا الاتفاق قد يدعونا الى الظن ان هذا التحديد الجغرافى للجزيرة العربية قد سبقهما اليه مصدر سابق اعتمدا عليه واخذا عنه . ولما كان الاصطخرى قد عول فى كتابه على كتاب صور الاقاليم لابى زيد احمد بن سهل البلخى الذى يذكره المقدسى على انه امام هذا العلم (٣) فمن المحتمل ان يكون هذا النص الذى بين أيدينا هو نص ابى زيد البلخى . وقد يرجح ذلك اطلاقه اسم بحر فارس على البحر الاحمر وبحر اليمن .

(١) ابن حوقل : صورة الارض (ليدن ١٩٣٨) ١٨/١٩

(٢) الاصطخرى : مسالك الممالك (ليدن ١٩٢٧) ١٢/١٣

(٣) المقدسى : احسن التقاسيم (ليدن ١٩٠٦) ٦٨

فالبحر الاحمر فى المصادر القديمة غير الفارسية كان يضاف الى الحبشة لا الى فارس فكان يسمى بحر الحبشة .

فهذا التحديد الجغرافى الذى يشتمل عليه النص يتفق ــ فيما يبدو ــ مع لفظ الجزيرة الذى أضافه العرب الى بلادهم فقد تصوروها والماء يحيط بها من جهاتها . « قال الخليل سميت جزيرة العرب جزيرة لان بحر فارس وبحر الحبش والفرات ودجلة أحاطت بها وهى أرض العرب ومعدنها » (١) .

ولا يذكر بحر الروم فى هذا التحديد مع الحاجة اليه لاستكمال صورة الجزيرة من ناحية حدها الغربى . والظاهر أن بعض الاعتبارات الجغرافية او التاريخية قد جعلت الحد الغربى لبلاد العرب يبتعد قليلا عن ساحل البحر الابيض . فالحد كما يرسمه ابن حوقل والاصطخرى يتجه من ايلة الى البحر الميت ثم الى الشراة والبلقاء وحوران وغوطة دمشق ونواحى بعلبك ، اى ان هذا الحد هو الانكسار الاخدودى الفاصل بين سلسلة الجبال الساحلية المطلة على البحر الابيض وبين الهضبة الداخلية المطلة على البادية . فهذا الانكسار يقوم حائلا دون اتصال الاجزاء الداخلية بالساحل بصفة عامة . ويتكون من وادى العربة الواصل من العقبة الى البحر الميت ، ثم من الاخدود الذى يشغله البحر الميت ونهر الاردن ، ثم من سهل البقاع الذى تقع فيه بعلبك ، ثم من مجرى نهر العاصى حتى اقليم الغاب ، اذ يتجه الانكسار بعد ذلك نحو الاراضى التركية حتى مرعش .

وهذا الحد يظهر اكثر وضوحا وتأكيدا فى اجزائه الجنوبية منه فى جزئه الشمالى . فوادى العربة وأخدود البحر الميت والاردن يكون شبه خندق طبيعى يحول دون القبائل العربية واقاليم الساحل ، ويكون مشابها لذلك الخندق الصناعى الذى اتخذه كسرى فى الناحية الشرقية من البادية ليحول دون البدو وريف العراق .

وقد أخرج هذا الحد شبه جزيرة سينا من دائرة البلاد العربية ، ولكنه كان جديرا ان يدخل الامارات التى كانت تقع فى شرقيه فى حدود البلاد العربية . ولكن الاعتبارات السياسية ــ التى كانت تجعل هذه الامارات تابعة لاقليم الشام ــ اقتطعتها من حيز الجزيرة العربية واضافتها الى اقليم الساحل . « ويتصل بأرض العرب بناحية ايلة برية تعرف بتيه بنى اسرائيل وهى برية وان كانت متصلة بديار العرب فليست من ديارهم ، وانما كانت برية بين ارض العمالقة واليونانية وارض القبط ، وليس للعرب بها ماء ولا مرعى ، فلذلك لاتدخل فى ديارهم . وقد سكن طوائف من العرب من

(١) البكرى : معجم ما استعجم (القاهرة ١٩٤٥) ٦

ربيعة ومضر الجزيرة حتى صارت لهم بها ديار ومراع . ولم ار احدا عزا الجزيرة الى ديار العرب لان نزولهم بها وهى ديار لفارس والروم فى اضعاف قرى معمورة ومدن لها اعمال عريضة فنزلوا على خفارة فارس والروم ، حتى أن بعضهم تنصر ودان بدين النصرانية مع الروم مثل تغلب من ربيعة بأرض الجزيرة وغسان وبهراء وتنوخ من اليمن بأرض الشام » (١) . فالادارات السياسية التى كانت تنشأ على اطراف البادية خاضعة لفارس او الروم كانت لا تعتبر من بلاد العرب رغم دخولها فى حيزها الجغرافى . ولهذا فان كثيرا من الجغرافيين كانوا يفضلون فى تحديد الحد الجغرافى من هذه الناحية استعمال عبارة « مشارف الشام » او « اطرار الشام » وذلك للاعتبارات السياسية والتاريخية التى كانت تدخل ذلك الاقليم فى بلاد الشام « وقال الاصمعى : جزيرة العرب ما لم يبلغه ملك فارس من اقصى عدن ابيَن الى اطرار الشام ـ هذا فى الطول ـ والعرض من جدة الى ريف العراق » (٢) .

واما الراى الثالث فيوفق بين الرايين السابقين فيراعى فى تحديده لرقعة البلاد العربية الاعتبارات الجغرافية والاعتبارات الادارية فى تقسيم الدولة ، وخير من عبر عن هذا الاتجاه المقدسى فى كتابه احسن التقاسيم « وهذه صورة جزيرة العرب . وقد جعلناه اربع كور جليلة واربع نواح نفيسة . والكور : اولها الحجاز ثم اليمن ثم عمان ثم هجر . والنواحى : الاحقاف ، الاشحار ، واليمامة ، وقرْح » (٣) . فهو بهذا التحديد يقصر الجزيرة العربية على الجزء الذى يطيف به البحر من الخليج الفارسى الى خليج العقبة والذى يحده من الشمال خط يمتد من العقبة (ايلة) الى الخليج الفارسى . وهذا القدر هو الذى ذكره ابن حوقل على انه ثلاثة ارباع ديار العرب ، ولكن المقدسى يقتصر عليه ليخرج البلاد الشامية من حدود الجزيرة العربية مراعيا فى ذلك الاعتبارات السياسية والتاريخية التى كانت تجعل من الشام اقليما مستقلا . وهو فى تحديده كذلك لم يتقيد بالنظام الادارى للدولة ، الذى كان يعتبر البحرين وعمان واليمامة من اعمال العراق ، والذى كان يأخذ به الفقهاء ولكنه غلب وجهة النظر الجغرافية فأدخل هذه الثلاثة فى حدود الجزيرة العربية على الرغم من تبعيتها الادارية للعراق .

ويصور لنا المقدسى جزيرة العرب فى صورة طريفة تنم عن ادراك اصيل ،

---

(١) ابن حوقل صورة الارض (ليدن ١٩٣٨) ١٩ ، الاصطخرى : مسالك الممالك (ليدن ١٩٢٧) ١٤

(٢) البكرى : معجم ما استعجم (القاهرة ١٩٤٥) ٦

(٣) المقدسى : احسن التقاسيم (ليدن ١٩٠٦) ٦٨

فيتخيلها صُفَّة مستطيلة تمتد من قعر اليمن الى بادية السماوة وبابها الى بادية السماوة وظهرها الى عدن ، ووضع فى طولها سريران احدهما على امتداد الآخر ويجانب كل سرير فضاءان . « واعلم ان مثل هذه الجزيرة كمثل صفة فيها ادنى طول قد وضع فيها سرير من صدرها الى بابها بينه وبين الحائطين من يمين وشمال فضاء . والسرير قطعتان . فالسرير الداخل هو نجد اليمن وهى جبال تقع فيها صنعاء وصعدة وجرش ونجران وبلد قحطان . وعدن فى الصدر فى آخر الجبل لان ثالث الحيطان هو بحر الصين . وهذه السروات عامرة ، بها الاعناب والمزارع . والفضاء الذى عن يمين السرير تهامة . تقع فيه زبيد وبلدانها . والفضاء الذى عن يساره يسمى نجد اليمن تقع فيه الاحقاف ومهرة الى تخوم اليمامة . ومنهم من يدخلها وعمان فى هذه الخطة . وهذا السرير مع الفضائين هى اليمن . والسرير المؤخر الى باب الصفة يسمى الحرة ، من تخوم اليمن الى قرح جبال كلها يابسة لاينبت الا مواقع المواشى والعضون والثمام . يقع فيه الحرم والعُمَق ومعدن النقرة وتلك المجادب . والفضاء الايمن يسمى الحجاب . وطية الحجاز قليلة يقع فيها ينبع والمروة والعميص . والسواحل عمارات ونخيل . والفضاء الايسر يسمى نجد الحجاز يقع فيه اليمامة وفيد وما على الجادة من المنازل . ويسمى هذا السرير مع فضائيه الحجاز ويدخل هجر فيه . ويقابل باب الصفة البادية وهذا شيء رايته وقسمته والله أعلم » (١) . فالبادية بادية السماوة والشام والعراق خارج هذه الصفة او خارج الجزيرة العربية ، وهى بابها .

ويتفق هذا الراى مع الروايات التى نقلت لنا عن الاصمعى وابى عبيدة والتى تجعل حدود جزيرة العرب من الشمال « اطرار الشام » او « منقطع السماوة » .

« قال الاصمعى جزيرة العرب ما لم يبلغه ملك فارس من اقصى عدن ابين الى اطرار الشام . هذا هو الطول . والعرض من جدة الى ريف العراق » . وابو عبيدة يذهب الى نفس هذا التحديد غير انه يعتبر الطول عرضا والعرض طولا وينقل عن الاصمعى قولا آخر يؤيده فيما ذهب اليه . « قال ابو عبيدة جزيرة العرب ما بين حفر ابى موسى بطوارة من ارض العراق الى اقصى اليمن فى الطول . واما فى العرض فما بين رمل يبرين الى منقطع السماوة » وينقل عن الاصمعى فيذكر ان طولها من اقصى عدن ابين الى ريف العراق فى الطول وان عرضها من جدة وما والاها من ساحل البحر الى اطرار الشام » (٢) .

---

(١) المقدسى : احسن التقاسيم (ليدن ١٩٠٦) ٩٤/٩٥

(٢) البكرى : معجم مااستعجم (القاهرة ١٩٤٥) ٦

واما الرأى الرابع فيريد ان يجعل احاطة الماء من جميع الجهات هو الاصل الاول فى مفهوم الجزيرة . وعلى هذا الاساس اللغوى فى فهم التسمية « جزيرة العرب » يذهب الى رسم حدودها الجغرافية ، جاعلا من الفرات وخليج فارس وبحر اليمن والبحر الاحمر والنيل وبحر الروم ماءا محيطا بجزيرة العرب من جميع جهاتها . وهذا التحديد يختلف عن تحديد الاصطخرى وابن حوقل بأن ادخل النيل وبحر الروم فى رسم الحد الغربى للجزيرة العربية .

« عن الزبير بن بكار قال حدثنى محمد بن فضالة : انما سميت جزيرة لاحاطة البحربها والانهار من اقطارها واطرارها . وذلك ان الفرات اقبل من بلاد الروم فظهر بناحية قنسرين ، ثم انحط عن الجزيرة — وهى مابين الفرات ودجلة — وعن سواد العراق حتى دفع فى البحر من ناحية البصرة والابلة ، وامتد الى عبادان ، واخذ البحر من ذلك الموضع مغربا مطيفا ببلاد العرب منعطفا عليها فأتى منها على سفوان وكاظمة ، ونفذ الى القطيف وهجر وأسياف عمان والشحر ، وسال منه عنق الى حضرموت وناحية ابين وعدن ودهلك ، واستطال ذلك العنق فطعن فى تهائم اليمن — بلاد حكم والاشعريين وعك — ومضى الى جدة — ساحل مكة — والى الجار — ساحل المدينة — والى ساحل تيماء وايلة ، حتى بلغ قلزم مصر وخالط بلادها . واقبل النيل فى غربى هذا العنق من اعلى بلاد السودان مستطيلا معارضا للبحر حتى دفع فى بحر مصر والشام . ثم اقبل ذلك البحر من مصر حتى بلغ بلاد فلسطين ومر بعسقلان وسواحلها وأتى على صور — ساحل الاردن — وعلى بيروت وذواتها من سواحل دمشق ، ثم نفذ الى سواحل حمص وسواحل قنسرين حتى خالط الناحية التى اقبل منها الفرات منحطا على اطراف قنسرين والجزيرة الى سواد العراق » (١) .

فالمشكلة التى يضعها أمامنا هذا النص هى اعتباره النيل الحد الغربى للجزيرة العربية « واقبل النيل فى غربى هذا العنق من اعلى بلاد السودان مستطيلا معارضا للبحر حتى دفع فى بحر مصر والشام » وما يتبع هذا الاعتبار من ادخال بلاد النوبة والبجة وصحراء مصر الشرقية فى حدود الجزيرة العربية .

قد يكون الدافع لرسم حدود الجزيرة العربية على هذا النحو هو التفسير اللغوى لكلمة جزيرة مع شىء من السذاجة ، او الغفلة عن الحقائق الجغرافية ، او مع شىء من المهارة فى صنعة التأويل والتخريج ، وان كان ذلك على حساب الحقائق الجغرافية ، ولكن قد يكون هناك بعض الاعتبارات الاخرى التى ادخلها صاحب هذا التحديد فى حسابه ، فلنحسن به الظن شيئا ما .

---

(١) البكرى : معجم ما استعجم (القاهرة ١٩٤٥) ٧

ان سكان الصحراء الشرقية فى المنطقة التى تقع بين اسوان والبحر الاحمر يتصلون اتصالا وثيقا بسكان قلب الجزيرة العربية . وقد أدرك العرب هذه الحقيقة والتفتوا اليها وسجلها الجغرافيون منهم .

قال اليعقوبى فى وصفه للطريق من قفط الى البحر الاحمر ووصفه لمناجم الذهب فى هذه المنطقة « ومن الخربة (خربة الملك منجم قديم فى هذه المنطقة) الى رحم معدن تبر . ثلاث مراحل . وبرحم قوم من بلى وجهينة وغيرهم من اخلاط الناس يقصدون للتجارات » (١) ويقول فى مكان آخر « ومن العلاقى (واد بين اسوان والبحر الاحمر) الى موضع يقال له وادى الجمل مرحلة ثم الى موضع يقال له عتب ثم الى موضع يقال له كنار يجتمع الناس به لطلب التبر وبه قوم من اهل اليمامة وربيعة » (٢) « ومن العلاقى الى موضع يقال له دح ينزله قوم من بنى سليم وغيرهم من مضر عشر مراحل » (٣) .

فهذه النصوص تبين لنا مقدار صلة الجزيرة العربية بهذه المنطقة من الصحراء الشرقية ونوع هذه الصلة وكيفيتها . فان كان بعض هذه النصوص يفسر وجود قبائل الجزيرة العربية فى هذه المنطقة بأسباب تجارية واقتصادية ، اى ان وجودهم بها كان على نطاق ضيق ، فقد نجد نصوصا اخرى تعزو وجود هذه القبائل فى هذه المنطقة لاسباب اخرى . فقد كانت وجهة القبائل البدوية فى هجراتها من الجزيرة العربية ولذلك فان وجودهم بها لابد وأن يكون على نطاق اوسع من ذلك الذى استخلصناه من النصوص السابقة . « واما اليمامة فواد والمدينة ، به تسمى الحضرمة ... وكانت قرارا لربيعة ومضر فلما نزل عليها بنو الاخيضر جلت العرب منها الى جزيرة مصر فسكنوا بين النيل وبحر القلزم وقرت ربيعة ومضر هناك وصارت لهم ولتميم كالدار التى لم يزالوا بها . وابتنوا بها غير منبر كالمحدثة التى بظاهر اسوان وكالعلاقى وهو المنهل يجتاز به الحجيج الى عيذاب » (٤) .

واذا كانت هجرة القبائل العربية الى هذه المنطقة من الصحراء الشرقية ظاهرة غير مطردة حدثت من قبيل المصادفة فلا يجوز لمحمد بن فضالة ان يدخلها فى اعتباره — ان كان قد راعى مثل هذه الاعتبارات — فيرى أن هذه البقعة من الصحراء الشرقية امتداد لقلب الجزيرة العربية . ولكن ربما كانت هذه الظاهرة ظاهرة مطردة فى العهود البعيدة التى وعتها ذاكرة العرب فكان البحر لايقف امامهم حائلا يمنعهم من العبور الى عدوته الاخرى والاقامة بها فعبر ابن فضالة عن هذا المعنى فأدخل هذه المنطقة فى حدود الجزيرة العربية.

---

(١) اليعقوبى : البلدان (ليدن ١٨٩٢) ٣٣٣ — (٣) = ٣٣٥

(٢) اليعقوبى : البلدان (ليدن ١٨٩٢) ٣٣٤

(٤) ابن حوقل : صورة الارض (ليدن ١٩٣٨) ٣١

وهناك ملاحظة اخرى جديرة بالاعتبار تكشف لنا عن مقدار تأثر الجزيرة العربية بهذه المنطقة من الصحراء الشرقية وبالمنطقة الواقعة الى جنوبها فالادريسى فى وصفة لبلاد البجة يقول « ومن بلاد البجة بلد بختية وهى ايضا قرية مسكونة وبها سوق لا يعول عليها وحولها قوم ينتجون الجمال ومنها معايشهم وهى اكثر مكاسبهم . والى هذه القرية تنسب الجمال البختية وليس يوجد على ظهر الارض جمال احسن منها ولا أصبر على السير ولا أسرع خطى وهى بديار مصر معروفة بذلك . » (١) فالجمال البختية التى يتغنى العربى بفضائلها هى ـ كما نرى من هذا النص ـ من نتاج العدوة الغربية للبحر الاحمر وليست من نتاج الجزيرة العربية . فمثل هذه الظاهرة كانت جديرة ان تلفت صاحب هذا الراى الى ما كان بين الجزيرة العربية وبين العدوة الغربية من البحر الاحمر من صلات ترجع الى عهود بعيدة .

فامثال هذه الاعتبارات قد دفعت محمد بن فضالة الى ان يضيف هذا الجزء من الصحراء الشرقية الى حدود الجزيرة العربية . ولكن مثل هذا الراى قد يبدو لنا غريبا الآن لان فكرتنا عن الحدود السياسية الحديثة تمنعنا من ان نتصوره ، ولكن يجب ان نذكر أن فكرة الحدود السياسية فى الازمنة القديمة لم تكن لتمنع من ذلك . والبدو من شانهم ان يتقدموا بحدودهم فى الاقاليم الحضرية التى تحيط بهم الى أقصى مايستطيعون والى أن توقفهم قوة الحضر . ومما يحسن ذكره أن حامية الحدود الشرقية التى كان عليها ان تذود البدو عن أرض الحضر فى مصر كانت فى بعض عصورها عند مدينة أسوان (٢) .

---

(١) الادريسى : نزهة المشتاق فى اختراق الافاق (مخطوط ـ صور شمسية بمكتبة جامعة الاسكندرية تحت رقم ١٩٤) ٣٦

(٢) ينقل ذلك جورجى زيدان عن استرابون وبلين (العرب قبل الاسلام ١٩٣٩) ـ ١٦٢ . وحتى فى العصور الحديثة فان دى بوا ـ ايميه يصور لنا صورة مما بقى من صور هذه الصلات القوية بين بلاد العرب وصحراء مصر الشرقية ففى مقالة له عن القصير يذكر ان المدينة لايسكنها الا التجار الذين يقبلون من بلاد العرب ومصر ، وان المدينة ليس لها سكان اصليون . وان المشايخ بها والادارة هم تجار من ينبع تعهدوا بأن يقدموا الى الحكومة المصرية حصة مما يجبونه على المتاجر **Du Bois-Aymé : Sur la ville de Q'oceyr. (Description de l'Egypte 2ème ed. vol. XI, 385.)**

تقسيم الجغرافيين للجزيرة العربية :

والاسس التى اعتمد عليها الجغرافيون فى تقسيمهم للجزيرة العربية اساسان :

اما الاساس الاول فيتخذ من اقليم الحجاز وجباله محورا لهذا التقسيم . ولعل اللغة العربية قد شاركت فى جعل هذا الاساس المتوارث أكثر رسوخا فى الاذهان من غيره ، فذهب اليه أكثر الجغرافيين .

فالحجاز معناه الفاصل أو الحاجز حجز بين أقسام الجزيرة وفصل بينها واكد هذا الفصل والتقسيم . « قال الخليل سمى حجازا لانه فصل بين الغور وبين الشام ، وبين تهامة ونجد (١) . وقال الزبير بن بكار سألت سليمان بن عياش السعدى لم سمى الحجاز حجازا فقال لانه حجز بين تهامة ونجد (٢) ، قال ابن الكلبى الحجاز مايحجز بين تهامة والعروض وفيما بين اليمن ونجد (٣) فالحجاز هو الذى يفصل بين الشام وبين الغور ، ويفصل بين تهامة والعروض، وبين اليمن ونجد فهو الذى فصل بين هذه الاقسام جميعا وجدد لكل قسم منها حيزه الخاص .

والبكرى يعرض لخط التقسيم هذا الذى ظهر فى ثوب لغوى فيحاول ان يصوغه فى اسلوب جغرافى فيقول « وجبل السراة هو الحد بين تهامة ونجد وذلك انه اقبل من قعرة اليمن ــ وهو اعظم جبال العرب ــ حتى بلغ اطراف بوادى الشام ، فسمته العرب حجازا . وقطعته الاودية حتى انتهى الى ناحية نخلة ، فمنه خيطى ويسوم ــ وهما جبلان بنخلة ــ ثم طلعت الجبال بعد منه فكان منه الابيض ــ جبل العرج ــ وقدس وآرة ، والاشعر والاجرد ــ وهما جبلان لجهينة . . . وطول السراة ما بين ذات عرق الى حد نجران اليمن ــ وبيت المقدس فى غربى طولها ــ وعرضها مابين البحر الى الشرف .

فصار ماخلف هذا الجبل فى غربيه الىاسياف البحر ــ من بلاد الاشعريين وعك وكنانة ــ الى ذات عرق والجحفة وما والاها وصاقبها وغار من ارضها : الغور ، غور تهامة . وتهامة تجمع ذلك كله . وغور الشام لايدخل فى ذلك . وصار مادون ذلك فى شرقيه منالصحارى الىاطراف العراقوالسماوة ومايليها نجدا . ونجد تجمع ذلك كله . واعراض نجد هى بيشة ، وترج ، وتبالة ،

---

(١) البكرى : معجم ما استعجم (القاهرة ١٩٤٥) ١٢

(٢) = ١١ (٣) ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان (ليدن ١٨٨٥) ٢٧ ــ والبكرى يورد نفس النص غير انه يضع لفظ اليمامة بدل تهامة (معجم ما استعجم (القاهرة ١٩٤٥) ١١ ، غير ان نص ابن الفقيه اوضح .

والمراغة، ورنية. وصار الجبل نفسه سَرَاتَه – وهو الحجاز – وما احتجز به فى شرقيه من الجبال وانحاز الى ناحية فيد والجبلين الى المدينة (١) ، ومن بلاد مذجج : تثليث – وما دونها الى ناحية فيد – فذلك كله حجاز . وصارت بلاد اليمامة والبحرين وما والاهما : العروض – وفيها نجد وغور ، لقربها من البحر وانخفاض مواضع منها ومسايل أودية فيها – والعروض يجمع ذلك كله . وصار ما خلف تثليث وما قاربها الى صنعاء ، وما والاها من البلاد الى حضرموت والشحر وعمان ومابينها : اليمن – وفيها التهائم والنجود – واليمن يجمع ذلك كله (٢) .

والمقدسى يتأثر كذلك بهذا التقسيم الذى تحمله التسمية اللغوية لاعلام الجزيرة فيأخذ به ، ويصوغه فى أسلوب جغرافى ، ويتخذ منه اساسا لتقسيمه مخالفا فى ذلك اعلام هـذا الفن الذين سبقوه ومعللا مخالفتـه لهم فى ذلك . فأبوزيد البلخى الذى يعتبر امام هذا الفن قـد جعل الجزيرة العربية اقليما واحدا ، وهو لم يلتفت الى ما التفت اليه المقدسى من ان جبال الحجاز تقسم الجزيرة قسمة طوليـة الى اقليمين متمايزين ، وان اقليم الحجاز – الذى يختلف فى طبيعته عن اليمن – يقسم هذه الجزيرة – بتمايزه هذا – قسمة عرضية كذلك ، فيكون الحجاز هو القسم الشمالى وتـكون بلاد اليمن هى القسم الجنوبى . ولذلك تنقسم الجزيرة العربية الى اربعة اقسام .

والمقدسى لايفوته ان يدخل الاعتبارات الدينية والفقهية فى احتجاجاته ، هذه الاعتبارات التى حرص على مراعاتها فى تحديد رقعة بلاد العرب وفى رسم اقسامها . « واليمن الجليلة والحجاز . فان قال قائل لم جعلت اليمن والمشرق والمغرب جانبين جانبين قيل له أما اليمن فالنبى صلى الله عليه وسلم جعلها حيث فرق مواقيتها فى الاحرام (٣) . واما خراسان فان ابا زيد جعلها اقليمين وهو امام هذا العلم بخاصته فى اقليمه فلا عيب علينا انجعلناها جانبين » (٤) .

ومثل الصفة الذى يضربه ليصور به صورة جزيرة العرب يوضح لنا كيف

---

(١) لعل كلمة (جلس) او ماشابهها قد سقطت من هذا المكان . فالمعنى لايستقيم الا بمثل ذلك .

(٢) البكرى : معجم ما استعجم (القاهرة ١٩٤٥) ٩/٨ .

(٣) لاهل اليمن ميقاتان تبعا لاختلاف الطريق التى يأتون منها فمن اتى من صنعاء عن طريق نجد فميقاته مع اهل نجد قرن المنازل . ومن اتى من طريق السـاحل (طريق زبيد) فميقاته يلملم . فالطـريق الاول هو الطريق الشرقى والاخر الغربى ويفصل بينهما جبل السراة .

(٤) المقدس : أحسن التقاسيم (ليدن ١٩٠٦) ٦٧/٦٨ .

طبق الطريقة التى ذهب اليها فى تقسيم بلاد العرب . فهو قد اعتبر السرير الاول الجنوبى جبال اليمن الذى تقع فيـه صنعاء وصعدة وجرش ونجران وارض قحطان . والفضاء الذى يقع الى جانبه من ناحية البحر هو تهـامة . والفضاء الذى يقع فى جانبه من الناحية المقابلة هو الاحقاف ومهرة حتى تخوم اليمن . ثم ينبـه الى أن من الجغرافيين من يدخل اليمامة وعمان فى هـذه المجموعة . واما السرير الثانى الواقع الى الشمال من السرير الاول فهو يختلف عنه من ناحية الخصب فالاول ارضه عامرة بالاعناب والمزارع والثانى جبـال كلها يابسة لاتنبت الا مواقع المواشى والعضون والثمام . والسرير الثـانى هذا هو الحرة وهى تمتـد من تخوم اليمن الى قرح اى انهـا تقع شمال الاقليم الاول ويقع فى هذه الحرة مكة والعمق ومعدن النقرة وتلك المجاذب . والفضاء الذى يقع فى الجانب المقابل اى فى الناحية الاخرى هو نجد الحجاز يقع فيـه اليمامة وفيد ويدخل فيـه هجر . والسرير الاول مع فضائيـه هو اليمن . والسرير الثانى مع فضائيه هو الحجاز (١) .

فهو يقسم بلاد العـرب الى يمن وحجاز ثم يقسم كل واحـد منهما الى جانب شرقى وجانب غربى واقليم مرتفع فى الوسـط هو فى القسم الجنوبى جبال السراة ، وفى القسم الشمالى حرة الحجاز . واليمامة قد تعتبر من اقليم اليمن الذى يمتد حتى عمان ، وقد تعتبر من اقليم الحجاز الذى يمتـد حتى هجر .

فجبال السراة وحرة الحجاز هى المحور الذى يقسم بلاد العرب طولا . وجبال الحجاز القاحلة التى تختلف عن جبال اليمن والتى يتسع عرضها حتى يشمل اليمامة ونجدا تكون ــ بعرضها الممتد من الغرب الى الشرق ــ المحور الذى يقسم بلاد العرب عرضا فيقع فى شماله هجر واليمامة ونجد والجلس ويقع فى جنوبه عمان والعروض والاحقاف والشحر واليمن . والحجاز نفسه الذى يفصل بين القسمين يقع فى وسط المجموعة الاولى . وعلى ضوء هـذه الحقيقـة ــ وهى ان جبال الحجـاز تقسم الجزيرة العربية طولا وعرضا ــ نستطيع أن نفهم النصوص السابقة التى اتخذت من الحجاز اساسا للفصل بين جميع اقسام الجزيرة العربية .

واما الاساس الثانى فيدع جانبا قلب الجزيرة وما تحتويه من جبال ويتخذ سـاحل البحر قاعدة لتقسيم الجزيرة . وابن حوقل والاصطخرى يأخذان بهذا الاساس وهما خير من عبر عنه . وهما يقسمان الجزيرة على أسـاس خطوط عرضـية تخترق الجزيرة من غربها الى شرقها وتكاد تـكون متوازية تقريبا . فهى تقسم الجزيرة الى منـاطق مستعرضة يتلو بعضها بعضـا .

---

(١) سبق ان اوردنا نص المقدسى الذى يمثل فيه صورة جزيرة العرب .

وقاعدة هذه الخطوط ترتكز الى نقط على ساحل البحر . وأول هذه الخطوط هو الخط الذى يمتد من السّرَين على البحر الاحمر (وهى ميناء قديمة تقع جنــوب جــدة بين الليث والقنفــدة) ويتجــه نحــو الشمال الشرقى الى يلملم ثم شرقا الى الطائف ومنها الى الخليج الفارسى . والخط الثانى يبدأ من مدين (على البحر الاحمر ، وهى واحة البــدع الان وهى قريبــة من الطرف الجنوبى الشرقى لخليج العقبة) ثم يتجه نحو الجنوب الشرقى الى الحجر ، ثم يشرق بعد ذلك الى جبلى طى ، ومنهما الى اليمامة ، ثم الى الخليج الفارسى . والخط الثالث يقع شمال الخط الثانى ويحصر بينه وبين الخط الثانى منطقة تمتد من اليمامة شرقا والمدينة غربا وتتقــدم شمالا حتى تستغرق حدودها الشرقية بقية سواحل البحرين . والخط الرابع يمتد من بالس غربا الىالانبار شرقا . ويتصل بهذا الخط خطان رئيسيان احدهما من عبادان الى الانبــار ويكون ضلع مستطيل تتجه مساحته الى الغرب حتى يلاقى مساحة المستطيل الاخر الذى يمتد من الغرب الى الشرق وتتكون قاعدته من الخط الثانى الذى يصل بين بالس وايلة .

فالاقليم الذى يقع جنوب الخط الاول هو اليمن . والاقليم الذى يقع الى شماله هو الحجاز . والاقليم الذى يقع بين الثانى والثالث هو نجد . والاقليم الذى يقع شمال الخط الرابع هو بادية الجزيرة . والاقليم الذى يقع غرب الخط الاول المتصل به هو بادية العراق . والاقليم الذى يقــع شرق الخط الثانى المتصل بالخط الرابع هو بادية الشام .

« فما كان من حــد السرين حتى ينتهى على ناحيــة يلملم ثم على ظهر الطائف ممتدا على نجد اليمن الى بحر فارس مشرقا فمن ايمن ويكون ذلك نحو الثلثين من ديار العرب . وما كان من حــد السرين على بحر فارس الى قرب مدين راجعا فى الشرق على الحجر الى جبلى طىء ممتدا على ظهر اليمامة الى بحر فارس فمن الحجاز ، وما كان من اليمامة الى قرب المدينة راجعا على بادية البصرة حتى يمتد على البحرين فمن نجد . وما كان من حد عبادان الى الانبار مواجها لنجد على ديار أسد وطى وتميم وسائر قبائل مضر فمن بادية العراق وما كان من حد الانبار الى بالس مواجها لبادية الشام على ارض تيماء وبرية خساف الى قرب وادى القرى والحجر فمن بادية الجزيرة . وما كان من بالس الى ايلة مواجها للحجاز على بحر فارس الى ناحية مدين معــارضا لارض تبوك حتى يتصل بديار طىء فمن بادية الشــام . على أن من العلمــاء

بتقسيم هذه الديار من زعم أن المدينة من نجد لقربها منها وأن مكة من تهامة اليمن لقربها منها » (١) .

ففى هذا التقسيم اتخذ ابن حوقل والاصطخرى الساحل اساسا لتقسيمهما اذ كان نظام الملاحة هو الذى يميز المناطق الساحلية بعضها عن بعض وبالتالى فهو يميز المناطق الداخلية كذلك . فنظام الملاحة فى جنوب البحر الاحمر حتى السرين أو جدة يختلف عن نظامها فى شماله لاختلاف نظام الرياح . ونظام الملاحة فى خليج العقبة يختلف عن نظامها فى قسمى البحر الاحمر فكانت السرين ومدين نقطتين فاصلتين بين نظم الملاحة فى البحر الاحمر ففصلت كذلك بين المناطق الداخلية فى الجزيرة (٢) .

ولنحاول الآن أن نتبين المنطقة الداخلية التى اعتبرت حدودها اساسا يعترف به فى تقسيم الجزيرة العربية وتمييز اقسامها .

الحجاز :

فهم العلماء من كلمة « الحجاز » معنى « الحجز » فهو يحجز بين تهامة والعروض وفيما بين اليمن ونجد كما يقول ابن الكلبى (٣) او يحجز فيما بين نجد والسراة كما ينقل ابن دريد (٤) او يحجز فيما بين الغور وبين الشام وفيما بين تهامة ونجد كما يرى الخليل (٥) . غير ان البعض لم يفهم من مدلول التسمية معنى الحجز بل فهم منها شيئا آخر وهو الاحتجاز بمعنى شد الوسط بالحجزة او بالحجاز . فالحبل وكل ما تشد به وسطك لتشمر ثيابك

---

(١) ابن حوقل : صورة الارض (ليدن ١٩٣٨) ٢١/٢٠ — الاصطخرى مسالك الممالك (ليدن ١٩٢٧) ١٥/١٤ .

(٢) وبعض الجغرافيين من العرب مثل الادريسى قد اتبع نظرية الاقاليم السبعة فى وصف الجزيرة العربية فوقعت فى الجزء الخامس من الاقليم الاول وفى الجزئين الخامس والسادس من الاقليمين الثانى والثالث . ولما كانت مثل هذه الطريقة لاتعرض لجزيرة العرب عرضا خاصا باعتبارها اقليما مستقلا فلم نشر الى هذا المنهج فى تقسيمها اذ هو جزء من النظرية العامة فى تقسيم العالم المعمور .

(٣) ابن الفقيه : مختصر البلدان (ليدن ١٨٨٥) ٢٧ — البكرى : معجم ما استعجم (القاهرة ١٩٤٥) ١٠ .

(٤) = ١١

(٥) = ١٢

حجاز (١) . والى هذا ذهب بعض من روى عنهم البكرى فقال « سُمى حجازا لانه احتجز بالجبال ، يقال احتجزت المرأة اذا شدت ثيابها على وَسَطِها ، وابرزت عجيزتها وهى الحُجزة » (٢) . والى هذا المعنى ذهب ابن السكيت فى نقله عن الاصمعى فيقول « ما ارتفع من بطن الرمة فهو نجد الى ثنايا ذات عرق . وما احتزمت به الحرار : حرة شَوْران وحرة ليلى وحرة واقم وحرة النار وعامة منازل بنى سليم الى المدينة ، فما احتاز ذلك الشق حجاز كله » (٣) وصاحب المحيط يستعمل اصلا كلمة احتجزت بدلا من احتزمت فيقول « لانها احتجزت بالحرار الخمس حرة بنى سليم وواقم وليلى وشَوْران والنار » فهذه الحرات هى سلسلة تتتابع من الجنوب الى الشمال ويكون متوسط اتساعها مسيرة ليلتين سريعتين أو ثلاث (٤) .

فبلاد الحجاز قد احتزمت بالجبال أو بالحرار فسميت حجازا ، أو قد حجزت جبالها وحرارها بين نجد والسراة أو بين نجد واليمن أو بين نجد وتهامة أو بين الشام والغور فسميت لذلك حجازا .

والحجاز حجازان : الحجاز الاسود ، وحجاز المدينة (٥) . اما الحجاز الاسود فهو سراة ثقيف أو السراة الثالثة ، تبدأ بعد انتهاء السراتين الجنوبيتين سراة الازد فى قعر اليمن ، وسراة فهم وعدوان فيما يليها (٦) . فاذا انتهت هذه السراة الثانية عند جبل تثليث بدأت السراة الثالثة واستمرت حتى الطائف . وعند ذلك يبدأ الحجاز الثانى حجاز المدينة . وهو سلسلة من الحرات تتتابع من الجنوب الى الشمال حتى منطقة تبوك . ولكن فى منتصف المسافة بين مكة والمدينة او مايقرب من ذلك عند نقطة يقال لها العَرْج (عرض ٢٣°) يبلغ ذلك الحجاز الثانى نهايته ايضا وبانتهائه ينتهى الحجازان « طول الحجاز من حد العرج الى السراة » (٧) . واذ قد انتهى الحجازان يبدا قسم ثالث من اقليم الحجاز وان كان يتخذ تسمية مخالفة فيعرف بالجلس

---

(١) القاموس المحيط .

(٢) البكرى : معجم ما استعجم (القاهرة ١٩٤٥) ١١

(٣) = ١٤

(٤) هذا التقدير هو تقدير النضر بن شميل (ياقوت : معجم البلدان — مادة « حرة ») .

(٥) البكرى : معجم ما استعجم (القاهرة ١٩٤٥) ١٣ .

(٦) ابن الفقيه : مختصر البلدان (ليدن ١٨٨٥) ٣١ .

(٧) = ٢٧ .

ويبدأ عند عقبة العَرْج ويتجه الى الشمال حتى اقليم الجناب وتبوك . والقسم الساحلى منه تحفه جبال هى امتداد الجبال الشمالية المعروفة بالشراة والحسمة والمتصلة بجبال الشام « والعَرْج أيضا عقبة بين مكةوالمدينة على جادة الحاج تذكر مع لسقيا - عن الحازمى - وجبلها متصل بجبل لبنان (١) .

فالحجاز هو الحجاز الاسود ، وهو الجزء الشمالى من سلسلة جبال السراة ، يبدأ من جبل تثليث فى الجنوب ويمتد الى الطائف فى الشمال ، ثم حجاز المدينة وهو سلسلة من الحرات ويحمل اسم الحجاز حتى عقبة العَرْج، ثم الاقليم الثالث وهو بقية اقليم الحرات الذى يحمل اسم الجلس ، ثم الجناب ويمتد حتى تبوك أو معان شمالا .

حد الحجاز الجنوبى :

يتكون الحجاز الجنوبى من ثلاث مناطق متجاورة تمتد من الشمال الى الجنوب فى موازاة الساحل ، ويقع عند نهاية كل واحدة منها خط الحدود الذى يفصل بين الحجاز واليمن من قبلها . وهذه المناطق الثلاث هى : المنطقة النجدية الداخلية - جبال السراة المتوسطة - تهامة او منطقة الساحل الخارجية .

وخط الحدود فى المنطقة النجدية المحصورة بين سلسلة جبال السراة وبين رملة يبرين (الربع الخالى) يحدده لنا أكثر الجغرافيين عند بلدة يقال لها « الهجيرة » او « المهجَرة » عند شجرة تسمى « طلحة الملك » . « ثم الى سروم راح (منازل الطريق من مكة الى صنعاء) قريةعظيمة فيها عيونوكروم، وجرش منها على ثمانية اميال ، ثم الى المهجرة ، قرية عظيمة فيها عيون . وفيما بين سروم راح والمهجرة طلحة الملك شجرة عظيمة تشبه الغرب غير انها أعظم منه وهى الحد مابين عمل مكة وعمل اليمن » (٢) . والنص الذى ينقل عن قدامة والذى يتفق مع نص ابن خرداذبة هذا يضيف « وكان النبى صلى الله عليه وسلم حجز بها بين اليمن ومكة » (٣) والادريسى فى منازل الطريق بين مكة وصنعاء يذكر هذا الحد كذلك مع وضعه طلحة الملك فى قرية المهجرة نفسها . « ومن سروم الى المهجرة وهى قرية عظيمة فيها عيون وفيها بئر بعيدة القعر غزيرة الماء ، وبهذه القرية شجرة عظيمة تسمى « طلحة الملك »

---

(١) ياقوت : معجم البلدان - مادة « العرج » .
(٢) ابن خرداذبة : المسالك والممالك (ليدن ١٨٨٩) ١٣٥ .
(٣) قدامة : الخراج (ليدن ١٨٨٩) ١٨٩ .

تشبه شجر الخلاف غير أنها أعظم منها وهى حد ما بين عمل مكة واليمن » (١) والبكرى فى وصفه حدود اليمن يقول « وحدها الثالث طلحة الملك الى شرون. وشرون من عمل مكة » (٢) فهو يذكر شرون بدلا من سروم راح وقدامة يكتبها كذلك شروم راح .

ونستطيع ان نستخلص السبب الذى من أجله صارت طلحة الملك هذه الحد بين الحجاز واليمن من نص لابن خرداذبة « فمن صنعاء الى خيوان أربعة وعشرون فرسخا ، ومن خيوان الى صعدة ستة عشر فرسخا ، ومن صعدة الى المهجرة ، وهى تحت عقبة المنضح عند طلحة الملك التى هى اول عمل اليمن عشرون فرسخا . فبين المهجرة وصنعاء ستون فرسخا » (٣) فالمهجرة وطلحة الملك تحت « عقبة المنضح » للقادم من اليمن وهما دون هذه العقبة للقادم من مكة صاعدا نحو اليمن . فعقبة المنضح هذه هى الحد بين الحجاز واليمن . والذى أتيح له أن يصعد عقبة من عقبات البادية يستطيع أن يدرك تماما كيف تكون العقبة فاصلا بين اقليم وآخر .

وخط الحدود هذا الذى يقع اسفل عقبة المنضح ويمر بالمهجرة أو طلحة الملك يتكون من مجموعة من البلاد بعضها فى غرب طلحة الملك وبعضها الى الشرق منها ، ويتضح لنا ذلك من وصف الهمدانى لمحجة صنعاء عن طريق نجد فالقادم من صنعاء الى نجد يصل بعد تمام خمسة عشر بريدا أو بعد أن يكون قد قطع ١٨٠ ميلا الى بلدة كُتْنَة وهى اول حد الحجاز ، وتقع على خط عرض واحد مع جُرَش التى تقع فى غربيها على مسافة أقل من يوم ، ومع الهجيرة وتثليث اللتان تقعان الى الشرق من كتنه على مسيرة يوم كذلك . وخط العرض الذى تقع عليه كتنه كما ذكره الهمدانى (٤) هو ٦َ ١ْ ١٧ . فالهجيرة التى يذكرها الهمدانى هى المهجرة التى ذكرتها النصوص الاخرى . غير أن لفظ « الهجيرة » هو الاصح فيما يظهر . والراجح أن ابن خرداذبة وقدامة والادريسى قد خلطوا بين « الهجيرة » هذه التى هى نقطة الحدود وبين « المهجرة » التى تقع جنوبها فى أرض اليمن بمقدار ٧٢ ميلا تقريبا . كما خلطوا بين سروم راح التى هى على الحدود وبين سروم الفيض التى تقع الى الجنوب بمقدار ٥٠ ميلا ، كما يتضح ذلك من مقارنة منازل الطريق بين صنعاء ومكة عند هؤلاء وعند الهمدانى .

---

(١) الادريسى : نزهة المشتاق (مخطوط) الاقليم الثانى الجزء الخامس .
(٢) البكرى : معجم ما استعجم (القاهرة ١٩٤٥) ١٦ .
(٣) ابن خرداذبة : المسالك والممالك (ليدن ١٨٨٩) ١٣٥ .
(٤) الهمدانى : صفة جزيرة العرب (ليدن ١٨٨٤) ٧/١٨٦ .

وتثليث هذه التى تقع على خط الحدود السابق ولعلها كانت أبعد نقطة فيه الى جهة الشرق قد سمى باسمها الجزء الجنوبى من نجد الحجاز ، كما سمى الجبل الذى يقع خلفها والذى نجده فى الخرائط الحديثة باسم جبل تثليث . والبكرى يتخذ تثليث هذه منطقة الحدود فى بعض تحديداته . « وصار ماخلف تثليث وما قاربها الى صنعاء وما والاها من البلاد الى حضرموت والشحر وعمان وما بينهما اليمن ــ وفيها التهائم والنجود ــ واليمن يجمع ذلك كله » (١) .

ولكى نستطيع ان ندرك موقع هذا الحد من مكة التى هى ابرز نقطة فى الحجاز نذكر منازل الطريق بين هذا الحد وبينها : من كَتَنَة الى يبمبم ٢٠ ميلا ــ ثم الى بنات حرب ٢٠ ميلا ــ ثم الى الجَسَداء ٢٢ ميلا ــ ثم الى بيشة بعطان ٢١ ميلا ــ ثم الى تِبَالة ١١ ميلا ــ ثم الى القريحا ٢٢ ميلا ــ ثم الى كَرَى ١٦ ميلا ــ ثم الى تُرَبة ١٥ ميلا ــ ثم الى الصفن ٢٢ ميلا ــ ثم الى الفتق ٢٣ ميلا . والفتق هذه على خط عرض واحد مع الطائف ومكة . فالطائف ومكة تقعان الى الغرب منها . اما الطريق فليس هناك طريق ينحدر منها الى مكة ولكن يسير الطريق شمالا الى راس المناقب التى تبعد عن الفتق ٢٢ ميلا ، ثم يعود فينحدر الى الجنوب والغرب حتى قرن المنازل فمكة (٢) .

وخط الحدود فى منطقة تهامة الساحلية يضعه الجغرافيون عند حصن السُرَّين الواقع على ساحل البحر ثم يمتد هذا الخط الى الشرق حتى ينتهى على ناحية يلملم ثم على ظهر الطائف ممتدا على نجد اليمن « فما كان من حد السُرَّين حتى ينتهى على ناحية يلملم ثم على ظهر الطائف ممتدا على نجد اليمن الى بحر فارس مشرقا فمن اليمن . ويكون ذلك نحو الثلثين من ديار العرب . وما كان من حد السُرَّين على بحر فارس الى قرب مدين راجعا فى المشرق على الحِجْر الى جبلى طىء ممتدا على ظهر اليمامة الى بحر فارس فمن الحجاز » (٣) (وبحر فارس هنا يشمل الخليج الفارسى وبحر اليمن والبحر الاحمر) .

---

(١) البكرى: معجم ما استعجم (القاهرة ١٩٤٥) ٩

(٢) هذا التقدير هو تقدير الهمدانى وقد رجحناه على غيره .

(٣) ابن حوقل : صورة الارض (ليدن ١٩٣٨) ١٩ــ الاصطخرى : مسالك الممالك (ليدن ١٩٢٧) ١٤ .

وهذا الحد يقع الى الشمال كثيرا من الحد السابق فهو اذا ارتفع الى الجبل فانما يرتفع الى ظهر الطائف اى فى الجزء الشمالى من سراة ثقيف .
والسبب فى اتخاذ هذا الخط حدا بين الحجاز واليمن من هذه الناحية يرجع الى اعتبارين .

فطبيعة السّرَّين تجعل منها نقطة عسكرية وبحرية تتحكم فى طريق البرى وفى طريق النقل البحرى بين اليمن والحجاز ، ويصف ذلك الادريسى فيقول « والسّرَّين حصن حصين حسن موضعه ، كثيرة مياهه ولواليه وجابيه شىء معلوم ورسم ملزوم على المراكب الصاعدة والنازلة من اليمن بالتجارات والمتاع والرقيق . وجباياته المحصلة يصل نصفها الى صاحب تهامة ونصفها الثانى الى صاحب مكة الهاشمى » (١) . وبمقارنة وصف هذا الميناء بوصف الموانى الاخرى التى تقع فى نفس الساحل مثل حلى وضنكان والسقية نجد انها هى الحصن الحصين والميناء الامين فيما بين تهامة واليمن .

وهذا الحصن يقع خلف جبل يلملم الذى يعترض الطريق الساحلى الواصل بين الشمال والجنوب فهذا الجبل الذى يمتد من الشرق الى الغرب شمال السّرَّين يحول دون سيطرة الحجاز على هذا الحصن .

والبحر الاحمر من حيث الملاحة والرياح ينقسم الى منطقتين احداهما شمالية والاخرى جنوبية ويفصل بين المنطقتين خط عرض جدة . فأصبحت السرين من ناحية الملاحة تتصل بالموانى الجنوبية فى نظامها وتختلف عن الموانى الشمالية التى هى معظم موانى الحجاز .

فخط الحدود يمتد من « السّرَّين حتى ينتهى على ناحية يلملم ثم على ظهر الطائف » . ومعنى ذلك انه يتجه من السرين نحو الشمال الشرقى . والذى دعا الى تقدمه هذا هو جبل يلملم الذى يعترض من الشرق الى الغرب والذى يتصل بسراة ثقيف .

وخط الحدود فى منطقة جبال السراة ـ وهى المنطقة الوسطى التى تقع بين المنطقتين السابقتين ـ يختلف تبعا لاختلاف موقعه فى هاتين المنطقتين .
فالحد الاول الذى يتخذ الهجيرة نقطة امتداده يمتد منها غربا على جبال السراة فيصعد الجبل عند عشْر ثم يميل الى الشمال قليلا ويهبط الى سطح البحر عند ميناء حَمْضة التى تقع الى جنوب حَلْى وبالتالى جنوب السّرَّين .
وهذا هو تحديد الهمدانى الذى ينقله عنه ياقوت « فالى حدود الهجيرة وتثليث وكتنه وجرش ومنحدرا فى السراة الى شعف عَشْر ـ وشعف الجبل أعلاه ـ الى تهامة الى أم جحدم الى البحر الى جبل يقال له كرمل بالقرب من حَمْضة

(١) الادريسى : نزهة المشتاق (مخطوط) الاقليم الثانى الجزء الخامس .

ـ وذلك حد ما بين كنانة واليمن من بطن تهامة » (١) . والحد الثانى الذى يتجه من السرين شمالا يدخل السراة الثانية سراة بنى عقيل فى حدود اليمن، ثم يمضى بهذه الحدود شرقا فيدخل فيها البحرين وهجر « وقيل هجر قصبة البحرين وقد عدها قوم من اليمن » (٢) .

حد الحجاز الشمالى :

بذلت قبل الآن بعض المحاولات الحديثة لتخطيط الحد الفاصل بين شمال الحجاز وجنوب الشام وكانت النصوص العربية القديمة عنصرا اساسيا فى هذا التخطيط .

واول هذه المحاولات محاولة لامانس وانتهى فيها الى وضع الحدود بين سوريا والحجاز فى المنطقة الواقعة قريبا من واحة العلا فى جنوبها (٣) . وهذه الفكرة يراها صاحب المحاولة الثانية ـ وهو Alois Musil (٤) ـ فكرة لامعة لمن ينظر اليها نظرة سطحية ولكنها اذا بحثت على ضوء التفاصيل وجدت غير صحيحة من وجهة النظر العلمية . فصاحبها لم يميز بين الحدود السياسية والحدود الجغرافية كما انه لم يعر النصوص اللاتينية واليونانية اى اهتمام وكما انه لم يشرح النصوص العربية بأمانة . ويذهب موزيل بعد ذلك الى وضع الحدود الشمالية للحجاز عند السفح الجنوبى لجبال الشراة ، حيث وضع بطليموس الحد الشمالى لبلاد العرب السعيدة . ويرى موزيل بعد ذلك أن النصوص العربية رغم مابينها من اختلافات ـ نتجت عن تغير الحدود السياسية فى بعض العصور ـ فانه يستخلص منها جميعا أن الحد الجغرافى للحجاز من ناحية الشمال هو المنحدر الجنوبى لسفح جبل الشراة كما حدده بطليموس قبل ذلك .

ويبدو لى انه قد كان للحجاز أكثر من حد واحد او بعبارة اخرى ان حدود الحجاز كانت ثلاث نقط ، تقع كل واحدة منها على راس شعبة من الشعب الثلاث التى تصل بين الحجاز والشام . واولى هذه الشعب تمتد على ساحل البحر وهى الشعبة الغربية ، والثانية تسير فى المنخفض الرئيسى بين المدينة والعلا الى تبوك ومعان ـ هذا المنخفض الذى كانت تسير فيه سكة

---

(١) ياقوت : معجم البلدان ـ مادة « يمن »

(٢) = مادة « البحرين » .

(٣) H. Lammens : *L'ancienne frontière entre la Syrie et le Hidjaz (B.I.F.A.B. vol. XV, 69 ff).*

(٤) The Northern Hegaz (New York 1926) 257

حديد الحجاز ــ وهذه الشعبة هى الشعبة الوسطى ، والشعبة الثالثة تسير مع الطريق الواصل بين سلسلة الواحات التى تكونها خيبر وفدك الى تيماء ثم دومة الجندل وهذه الشعبة هى الشعبة الشرقية .

فحدود الحجاز كانت تنتهى فى الشعبة الغربية الساحلية الى مدينة مدين (التى توجد بقاياها الآن تحت اسم واحة البدع ، وهى أقصى ماتصله فى الشمال من ناحية الساحل ثم تميل بعد ذلك الى الجنوب والجنوب الشرقى مع طريق الحاج المصرى حتى شغب وبدا والسقيا الى ان تصل الحجر ثم وادى القرى . وابن حوقل والاصطخرى اللذان يتخذان ساحل البحر اساسا لتفصيل أقسام الجزيرة العربية يؤكدان لنا ذلك فى وضوح « وما كان على حد السرين على بحر فارس (يطلق على البحر الاحمر وبحر اليمن والخليج الفارسى بحر فارس) الى قرب مدين راجعا فى المشرق على الحجر الى جبلى طىء ممتدا على ظهر اليمامة الى بحر فارس فمن الحجاز » (١) فالطريق الواصل من مدين الى الحجر اسفل الجبال والذى يكون الحد الشمالى للسهل الساحلى للحجاز يمر بشغب وبدا وهذا يشرح لنا نص البكرى الذى يحدد به الحد الشمالى للحجاز « وحد الحجاز الاول بطن نخل واعلى رمة وظهر حرة ليلى والثانى مما يلى الشام شغب وبدا . والثالث مما يلى تهامة بدر والسقيا ورهاط وعكاظ والرابع مما يلى ساية وودان » (٢) .

وطريق الحاج المصرى يفصل لنا هذا الخط أكثر من ذلك . فمنازل المحجة تمر بالنقط الرئيسية فى هذا الحد وهى كما يذكرها ابن رسته وابن خرداذبة وقدامة تتكون من المراحل الاتية : مدين ــ الاغراء ــ منزل ــ الكلابة ــ شغب ــ بدا ــ السرحتين ــ البيضاء ــ وادى القرى . واليعقوبى الذى يذكر منازل هذا الطريق بشيء من الاختصار قد حفظ لنا ــ من حسن الحظ ــ اسم هذا المنزل المجهول لدى أصحاب التحديد الاول . فهو يقول من مدين الى منزل يقال له اغراء ثم الى قالس ثم شغب ثم بدا ثم السقيا . فهذا المنزل المجهول هو قالس . والبيضاء هذه المذكورة قبل وادى القرى هى احدى منازل الحجر .

واما فى الشعبة الوسطى فان حدود الحجاز تمتد الى الشمال بعد النقطة التى تقع على محاذاة « مدين » فتبوك تقع على محاذاة مدين « ومدين على بحر القلزم محاذية لتبوك على نحو ست مراحل » (٣) . والحدود بين الحجاز

---

(١) ابن حوقل : صورة الارض (ليدن ١٩٣٨) ١٩ ــ الاصطخرى : مسالك الممالك (ليدن ١٩٢٧) ١٤ .

(٢) البكرى : معجم ما استعجم (القاهرة ١٩٤٥) ١١ .

(٣) ابن حوقل : صورة الارض (ليدن ١٩٣٨) ٣٢ .

والشام تقع الى الشمال منها . فابن حوقل نفسه ـ والاصطخرى كذلك ـ حين يذكر ان تبوك يقولان « وتبوك بين الحجر وبين أول الشام على اربع مراحل فى نحو نصف طريق الشام وهى حصن » (١) . فتبوك بينها وبين اول الشام أربع مراحل . فاذا كانت فى محاذاة مدين فحدود الحجاز تمتد اذن فى الشعبة الوسطى ـ الى الشمال ـ مقدار أربع مراحل شمال أبعد نقطة فى حدود الشعبة الغربية . والنقول كثيرة فى اعتبار حدود الشام فيما وراء تبوك واعتبار تبوك من الحجاز « وحد الشام ما وراء تبوك وتبوك من الحجاز » (٢) .

والطرف النهائى لهذه الشعبة لم تحدده المصادر العربية تماما وذلك لان الطريق فيما بعد تبوك الى الشام يكاد يكون قفرا أو تكاد تكون منازله غير واضحة عند الجغرافيين . فهم يذكرون منازل هذا الطريق الذى يسلكه الحاج الشامى على النحو الآتى : دمشق ـ منزل ـ منزل ـ ذات المنازل ـ سرغ ـ تبوك . وسرغ هذه تذكر فى تاريخ الفتوح الاسلامية فيذكرون ان أبا عبيدة سار بجيش المسلمين الى سرغ ومن هناك سار الى الشام . فكأن سرغ هذه كانت فى حدود العرب .

وارى أن النهاية الشمالية للحدود من هذه الناحية كانت الى الشمال قليلا ولكن الى الشمال الغربى فقد كانت تنتهى فى أغلب الاحيان الى واحة معان .

وأما فى الشعبة الشرقية فقد كانت حدود الحجاز تتقدم نحو الشام مسيرة ثلاثة أيام من واحة تيماء ، هذه الواحة التى تقع على الطرف الغربى لصحراء النفود المسمى عند العرب برمل الهبير أو برمل عالج . « وتيماء حصن عامر بنيته أزلية وهو اعمر من تبوك وبينهما اربع مراحل . وبين تيماء وأول الشام ثلاثة أيام . وتيماء مياه ونخيل ومنه تمتار البادية (٣) . واذا اردنا ان نعين المنطقة التى تنتهى اليها الحدود من هذه الناحية فنستطيع ان نضعها فى المنطقة التى يقترب فيها الطرف الغربى للنفود من جبل الطبيق والتى تكاد تفصل وادى السرحان وواحة الجوف (دومة الجندل) عن منطقة تيماء .

والسبب الذى من أجله صارت الحدود الشمالية للحجاز على هذه الصورة نستطيع ان ندركه اذا تنبهنا الى بعض الاعتبارات . فجبال الحسمى

---

(١) ابن حوقل : صورة الارض (ليدن ١٩٣٨) ٣٢ ـ الاصطخرى : مسالك الممالك (ليدن ١٩٢٧) ٢٠ ـ الادريسى : نزهة المشتاق (مخطوط) الاقليم الثالث الجزء الخامس وهو يذكر نفس النص تقريبا .

(٢) البكرى : معجم ما استعجم (القاهرة ١٩٤٥) ١٢ .

(٣) الادريسى : نزهة المشتاق (مخطوط) الاقليم الثالث الجزء الخامس .

وجبال الشراة تقسم الجزء الشمالى من الحجاز الى ثلاث مناطق تكاد تكون منفصلة ، يستقل بعضها عن بعض ، والاعتبارات المختلفة من جغرافية وسياسية واقتصادية قد دفعت نقطة الحدود فى كل منطقة منها الى مدى يختلف فى كل واحدة منها عنه فى الاخرى .

منذ أوائل القرن العاشر قبل الميلاد تقريبا والتنافس الدولى يدفع الى السيطرة على ممرات التجارة العالمية فى هذه المنطقة . فسليمان وحليفه الفينيقى حيرام حاولا السيطرة على الطريق البحرى الذى يصل بين سواحل اليمن وميناء ايلات (عصيون جبر بعد ذلك أو أيلة او العقبة حديثا) وقد استطاعا كما استطاع من بعدهما يوشافط (٨٧٣/٨٤٩ق.م) وامازية وابنه عزيه (٧٧٩/٧٤٠ق.م) ـ وغيرهم من ملوك يهودا ـ أن يسيطروا على هذا الطريق العالمى . وكان على الدول التى خلفت ـ بعد ذلك ـ دولة يهودا وفينيقيا فى منطقتيهما ان تتابع نفس هذه السيطرة على الطريق ، وأن تؤكد هذه السيطرة بكافة الوسائل السياسية والاقتصادية والعسكرية (١) . وفى نفس الوقت كان ملوك سبأ وخلفاؤهم من ملوك معين الذين كانوا يتحكمون فى التجارة الجنوبية لبلاد العرب يحرصون على السيطرة على طريق النقل البرى الرئيسى الذى يصل بين الجنوب والشمال بين مأرب فى جوف اليمن وبين ديدان (العلا) ومعان فى الشمال (٢) ، وكان على خلفائهم من بعدهم أن

يتابعوا هذه السيطرة . وفى نفس الوقت كذلك كان الآشوريون يحاولون السيطرة على هذه الطرق الرئيسية للتجارة العالمية وتحويلها الى ناحيتهم وذلك بالسيطرة على النقط المركزية فى قلب الجزيرة العربية وربطها بمصالحهم والنفاذ عن طريقها الى ساحل البحر الاحمر . وكانت دومة الجندل (واحة الجوف) وتيماء والقبائل الضاربة حولهما هدف هذه السيطرة ليتحكموا بذلك فى طريقى النقل البرى والبحرى . ففى عهد تغلات بلازر الرابع (٧٤٦/ ٧٢٧ ق.م) اضطرت الملكة زبيبى سيدة دومة الجندل أن تدفع الجزية له وتعترف بسلطانه . كما اضطرت كذلك ـ فى عام ٧٣٢ ق.م ـ الملكة شمسى ملكة احدى الواحات المجاورة أن تعترف بسلطانه وأن تقبل فى واحتها مقيما سياسيا من قبله ، ولكنها حين حاولت ان تنحرف الى عدوه شردها فاضطرت

---

(١) من امثلة ذلك محاولة الرومان استمالة امرىء القيس سيد جزيرة تيران (ايوتاب) واقليم مدين بدعوته الى النصرانية وزيارة القسطنطينية بدعوة من الامبراطور ليو ومنحه لقب فيلارك عام ٤٧٣ .

(٢) Musil: The Northern Hegaz (New York 1926) 243 ff.

القبائل الساكنة فى تيماء وماحولها أن تدفع له الجزية مباشرة (١) . وقد تابع البابليون ـ بعد ذلك ـ ومن بعدهم الفرس نفس هذه السياسة . غير ان ميدن سيطرتهم ونفوذهم كان الى الجنوب من المنطقة السابقة وذلك لان مملكتهم كانت تقع الى الجنوب بالنسبة لمملكة الآشوريين فكان طريق سيطرتهم يقع الى الجنوب من صحراء النفود فاعتمدوا على قبيلة طى ثم على كنده بعد ذلك (٢) .

وطبيعة هذه المنطقة الجغرافية كانت تلعب دورا هاما فى حفظ التوازن والمنافسة بين هذه القوى الثلاث المتطاحنة . فجبال الحسمى والشراة تفصل الساحل عن الاخدود الرئيسى الاوسط الذى يشغله الطريق البرى الرئيسى بين الجنوب والشمال ، ومناطق الحرة الوعرة حرة الرجلاء وليلى وخيبر تفصل خط الواحات (تيماء . فدك . خيبر) عن الطريق الرئيسى الاوسط ، وتلحق هذه الواحات باقليم البادية ونجد .

حقا ان هذه الطرق تكاد تقع تحت رحمة منطقة مركزية فى الجنوب تستطيع التحكم فيها . وهذه المنطقة هى منطقة المدينة ، او منطقة القرح التى تقع شمالها قليلا (وادى القرى) ، او منطقة الحجر او واحة ديدان (العلا) القريبتان منها . فوادى اضم ـ الذى ينحدر من حرة خيبر غربا ثم يتجه الى الجنوب والجنوب الغربى حتى يصل الى المدينة ويتجه بعد ذلك الى الشمال حتى واحة ديدان ثم ينحدر صوب الغرب فيصب فى البحر الاحمر عند الوجه (قريبا من ميناء العويند) والذى يعرف الان بوادى الحمض ـ يمكن من السيطرة على الطرق الثلاثة . فواحة ديدان تسيطر على طريق النقل الرئيسى وهو الطريق الاوسط . والشعبة الغربية لوادى اضم تمكن من السيطرة على اقليم الساحل وموانيه حتى مدين . والشعبة الشرقية منه تمكن من السيطرة على خيبر ثم بعد ذلك على فدك وتيماء . وقد تستطيع القوة التى تسيطر على واحة ديدان (العلا) أن تدفع سيطرتها ابعد من ذلك حتى معان فتتخذ منها مركزا تسيطر به على النهايات الشمالية لهذه الطرق

---

(١) Musil : Arabia Deserta (New York 1927) 477 ff.

(٢) كانت كنده تسكن الى الشرق والى الجنوب قليلا من منازل طى فى المكان المعروف بالشرف وهو يقع الان تقريبا بين الرياض وحائل مع ميل قليل الى الغرب . ولا يخفى النزاع بين الفرس والروم للسيطرة على كندة وذبيان وكلب وعبس وطى لبسط نفوذهما على هذه المنطقة . وامرؤ القيس سيد جزيرة تيران واقليم مدين كان حليفا للفرس أول الامر قبل أن يستميله الروم اليهم .

فتستطيع من معان التحكم فى الطريق الغربى وذلك بالسيطرة على ايلات (أيلة او العقبة) اذ يمكن الوصول اليها بواسطة الطريق الذى يربط بينهما خلال وادى اليتم والذى يمر بجبل سعير (الجزء الشمالى من السراة) . كما تستطيع السيطرة على طريق تيماء بالتحكم فى دومة الجندل خلال الطريق الواصل بينهما شمال جبل الطبيق وشمال الحرات على الطرف الجنوبى للبلقاء او بادية الشام . وبذلك ينتقل خط الحدود الفاصل بين الحجاز والشام الى الخط الواصل من ايلة الى معان الى دومة الجندل ، والذى يستند طرفه الغربى الى البحر وطرفه الشرقى الى النفود . ولكن طبيعة هذه المنطقة لاتجعل مثل هذه السيطرة امرا سهلا . فهذه الجبال الوعرة التى يصعب فيها الاتصال قد حالت دون تماسك هذه المنطقة وجعلتها مسرحا لقبائل او لشعوب صغيرة يعيش بعضها فى عزلة وفى نزاع مستمر مع البعض الاخر . ففيها كان العمونيون والمؤابيون ، واهل ادوم وسعير ، وثمود واصحاب مدين ، والانباط وسكان طور بعل وغيرهم من امثال هذه الاقليات المستقلة المتعادية . فنتج عن ذلك تفكك هذا الاقليم وظهور المدن أو المقاطعات التى تعيش فى حماية الحصون . وكان المظهر الوحيد للتعاون بين مدن هذه المنطقة مقصورا على اتصال كل مدينة أو منطقة فى الطريق الداخلى الرئيسى بنقطة تقع فى حذائها على الساحل لتكون بمثابة حصن لها . او على العكس من ذلك كان مقصورا على اتصال حصون الساحل بنقط مركزية فى الطريق الداخلى لتموين هذه الحصون وتصريف تجارتها فى داخل الجزيرة . فكانت كل مدينة داخلية مع فرضتها على الساحل ، أو كل حصن ساحلى مع نقطة ارتكازه فى الاقليم الداخلى تكون وحدة متماسكة مستقلة يقوم وجودها على حساب غيرها من هذه الوحدات.

ونستطيع ان نزيد ذلك وضوحا باستعراض هذه الصلات . فقد اتصلت معان بايلات خلال وادى اليتم ، واتصلت سلع (بترا) بأيلة (ايلات أو العقبة) خلال وادى العربة ،واتصلت تبوك بمدين (واحة البدع الان) عن طريق ممر شِتار — المار بالسفح الجنوبى لجبل الشراة بين البلقاء والمدينة — ، واتصل اقليم القُرح أو وادى القرى والحِجر — وما يتصل به من واحة ديدان (العلا) وشَغب وبَدا (بدا يعقوب) والسقيا (سقيا يزيد) — بالعوينند (الوعيند على الخرائط الحديثة) أو بالوجه خلال وادى اضم (وادى الحمض) واتصل اقليم خيبر — وما يتصل به من المروة (ذى المروة) وفدك — بالحوراء (هى ميناء Leukekome القديمة كما يرى شبرنجر) ، واتصلت المدينة بالجار ، واتصل حصن ينبع الساحلى بالمدينة كذلك .

ونظام القبائل فى هذه المنطقة قد يزيدنا وضوحا فى فهم طبيعتها وتبين

الحدود البشرية والاجتماعية فيها . فالقبائل العربية فى هذه المنطقة ترجع الى نظم اربعة : ثلاثة منها قحطانية ، وواحد عدنانى .

اما أول هذه النظم فالنسب الذى يرجع الى الازد من قبائل اليمن ويضم الازد وخزاعة وبجيلة والاوس والخزرج ثم غسان ، وهذه القبائل امتدت ديارها على طول ساحل البحر الاحمر من اليمن الى شمال الحجاز وكانت تسيطر على طريقى النقل الرئيسيين بين الجنوب والشمال : الطريق البحرى ، والطريق البرى ، فكان بعضها يسكن تهامة والساحل والبعض الاخر يسكن فى الداخل على طول الطريق الذى يخترق سلسلة السراة والحجاز والشراة . وكانت هذه القبائل تعمل فى النقل البرى والبحرى للتجارة فى الوقت الذى كان يسيطر السبئيون والمعينيون على التجارة العالمية فى الجزيرة العربية . ولا يفوتنا ان ننبه الى ان الازد هم بحارة العرب الذين كانوا يتميزون بهذه المهنة بين القبائل العربية ، وكانوا يجوبون البحر الاحمر وبحر اليمن والخليج الفارسى .

وأما النظام الثانى فهو النسب العدنانى الذى يرجع الى اسماعيل والذى كانت تسكن قبائله فى أول الامر سلسلة الحرات وأطرافها الشرقية التى تمتد من الشمال الى الجنوب من دومة الجندل تقريبا الى حرة بنى عقيل المعروفة بسراة فهم وعدوان الواقعة جنوب الطائف بين سراة ثقيف وسراة شنوءة او الازد . والتى كانت ديارهم تقع الى الشرق من ديار قبائل الجنوب التى ذكرناها فى النظام السابق . والمصادر اليهودية تذكر أولاد اسماعيل على انهم هم ادوم وعلى انهم كانوا فى وادى فاران . أما أدوم فانها دومة الجندل كما حقق ذلك موزيل واما فاران فهو معدن فاران (١) الذى يقع فى حرة بن سليم وهو احد المعدنين القديمين المشهورين بديار العرب . احدهما فاران هذا ، والاخر عقيق بنى عقيل (١) فى حرتهم والذى يقول فيه الرسول صلى الله عليه وسلم مطرت ارض عقيل ذهبا . فارض اولاد اسماعيل هى اقليم الحرات شرقى سلسلة الجبال وهو المشهور بالذهب . والشعر العربى يصف مضر بانها « مضر الحمراء » (٢) . ويقولون فى تفسير ذلك انه نسبة الى الذهب ، فهذا التفسير له معناه . يقولون انه نسبة الى الادم الاحمر الذى اتخذت منه خيمتهم الحمراء ، وهذا له معناه كذلك فكلمة ادوم معناها فى اللغة

---

(١) انظر الهمدانى : صفة جزيرة العرب (ليدن ١٨٨٤) معدن فاران ١٧٠ ، عقيق بن عقيل ١٧٧ .

(٢) انشدوا فى ذلك :

اذا مضر الحمراء عب عبابها   فمن يتصدى موجها حين تزخر

العبرية الحمرة والبحر الاحمر كان يسمى بحر أدوم فترجم ذلك بالاحمر (١).
فلعل هناك صلة بين صفة الحمرة فى مضر وبين نسبة الحمرة الى واحة ادوم .
اما العمل الرئيسى لقبائل هذا النظام الثانى فكان رعى الابل ونتاجها فى منطقة الحرات وماسال منها شرقا . وكانت هذه الابل تعد لنقل متاجر الجنوبيين .

وأما النظام الثالث فهو نسب القبائل التى تنتهى الى قضاعة من قبائل الجنوب . ويشمل كلب وبنى القين وبنى سليح وتنوخ وجرم وراسب وبهراء وبلى ومهرة وعذرة وجهينة ونهدة . وهذه القبائل تسكن المنطقة التى تقع بين ساحل البحر الاحمر وبين طريق النقل الداخلى والى الشرق منه قليلا فى بعض اقليم الحرات فى المنطقة الواقعة بين ايلة شمالا والوجه جنوبا . وفرع من هذه القبائل يسكن دومة الجندل والحيرة . فهذه القبائل كانت تمتد فى منطقة اشبه بحزام أو شريط يصل فيما بين الحيرة والخليج الفارسى وبين منطقة ايلة ومدين على البحر الاحمر . وكانت هذه القبائل تسيطر على طريق التجارة الواصل بين منطقة الفرات والخليج الفارسى وبين منطقة خليج العقبة والشام . كانت هذه القبائل متعاونة أول الامر مع قبائل الازد التى تسيطر على الطريق من الجنوب الى الشمال . ويشيرون فى ذلك باشارة لها معناها فيقولون ان زعيما من الازد اتى البحرين فالتقى هناك بزعيم من قضاعة فتحالفا على التعاون فسموا تنوخا . ولكن هذه القبائل بعد ظهور الاشوريين على مسرح الحياة العالمية اضطرت للخضوع للاشوريين . ومما يجدر ملاحظته انه كان على راس هذه القبائل ملكات من امثال زبيبى وشمسى كن الى جوار ذلك كاهنات القبيلة . ومن بين هذه القبائل كذلك قبيلة عذرة التى اشتهرت فى الادب العربى بالهوى العذرى . واذا لاحظنا ان عبادة « اشتار » القديمة التى كانت معروفة عند الساميين كانت تدور حول الحب وتهدف الى قهر الموت والفناء عن طريق الحب امكننا أن نتبين مقدار تأثر هذه القبائل بالحياة الاشورية وبالنظام الاجتماعى الاشورى (٢) .

واما النظام الرابع فهو النسب الذى ينتهى الى كهلان من قبائل اليمن والذى يدخل فيه لخم وكندة وطى وعاملة وجذام . وكانت ديار هذه القبائل

---

(١) Le Père: De la mer Rouge Description de l'Egypte 2ème édit.) T XI, 198

(٢) لا ادرى اذا كانت هناك صلة بين عبادة « اشتار » وبين تسمية الممر الواصل بين مدين وتبوك وبالتالى بين مدين وتيماء باسم ممر « شِتَار » (ككتاب) ! . والهمدانى فى تعداده لشطوط بحر العرب (السواحل والموانى) يعد منها تيه تيماء . وكلمة تيه كما يتضح من نصه معناها الساحل أو المرسى المتصل بواد يصله بالداخل (صفة جزيرة العرب (ليدن ١٨٨٤) ١٢٧) .

تمتد من الخليج الفارسى والفرات شرقا الى البحر الاحمر غربا قريبا من اقليم مدين . وكانت ديار هذه القبائل تقع على الجملة جنوب ديار القبائل السابقة يفصل بينهما النفود الشمالى فكانت ديارهما تشتركان فى المنطقة الشمالية للحجاز . ولعل هذا الفرع لم يظهر الا فى وقت متأخر حين بدأ النزاع بين الاشوريين والبابليين . فالاشوريون يحاولون السيطرة على الطريق التجارى بمجموعة القبائل التى ترجع الى قضاعة والبابليون يحاولون ذلك بالمجموعة التى تسكن جنوب المجموعة السابقة وترجع الى كهلان . وقد اعتمد الفرس على قبائل هذا النوع الثانى فيما بعد ذلك اذا اعتمدوا على ملوك الحيرة وكندة.

فالمنطقة الشمالية للحجاز هى هذا الاقليم الذى كانت تختلط فيه النظم الاربعة السابقة من انساب الجزيرة العربية . وان كان هذا التحديد سيخرج المنطقة التى تقع فيها تيماء — والتى كانت منطقة معزولة — من الاقليم الشمالى للحجاز وقد يكون ذلك أصح واجدر بالاعتبار . فاقليم تيماء يتصل ببادية نجد أكثر مما يتصل باقليم الحرات فى الحجاز فجبل الطبيق وبادية السماوة تفصله عن اقليم الحجاز وبعض الجغرافيين يعتبره من اقليم بادية الجزيرة وبرية عساف لاتصاله بدومة الجندل وتدمر .

الحد بين الحجاز ونجد :

يتكون الحد الشرقى لاقليم الحجاز من سلسلة مناطق متتابعة يتلو بعضها بعضا من الشمال الى الجنوب وتأخذ كلما هبطنا نحو الجنوب فى الاتساع والانبعاج نحو الشرق حتى يبلغ ذلك اقصاه عند الوسط تقريبا ثم تعود بعد ذلك فتضيق ويأخذ طرفاها فى التجمع والالتصاق الواحد منهما الى الاخر حتى تبلغ أقصى الجنوب فتكون هناك أضيق مانجدها . وهذه السلسلة من المناطق التى تؤكد اسماؤها واعلامها وجودها المستقل المتميز — ترسم لنا بواسطة حدودها الشرقية او الغربية خط الحدود بين الحجاز ونجد ، وذلك تبعا للاختلاف من حيث اعتبارها فى اقليم نجد او اقليم الحجاز . وهذه المناطق هى على الترتيب من الشمال الى الجنوب : منطقة القرى — الجناب — الجلس — نجد العليا — أرض العالية — تثليث .

منطقة القرى : هذه المنطقة هى المنطقة الشمالية والشمالية الشرقية من اقليم الحجاز . وكان لها خصائصها المستقلة التى ميزتها عن غيرها وأفردتها بالتسمية التى عرفت بها . وهذه المنطقة هى التى تقع فيها واحات خيبر وفدك والسوارقية وأمثالها . والاصمعى يؤكد لنا هذا التمايز فى نصه الذى يقول فيه « وما دون الرمل (النفود) الى الريف من العراق ، يقال له العراق. وقرى عربية كل قرية فى ارض العرب نحو خيبر وفدك والسوارقية وما اشبه

ذلك » (١) والمغيرة بن عبد الرحمن فى تحديده لبلاد العرب يقول « جزيرة العرب مكة والمدينة واليمن وقرياتها » (٢) . وهذه المنطقة وان كانت تتصل بوادي القرى الا انها تستقل عنه فى خصائصها . وهى منطقة تقع فى وسط الحرات الوعرة قائمة فى شبه عزلة واستقلال ، ولما كان طريق الوصول اليها هو عن طريق الجنوب الشرقى من وادى القرى أو من وادى خيبر فاعتبرت هذه المنطقة من الحجاز . وتلامس هذه المنطقة عند حافتها الشمالية والشمالية الشرقية حدود نجد او حدود البادية . وفى شمالها الغربى تقع المنطقة المنخفضة التى تفصل بينها وبين تبوك والتى تعتبر منها منطقة المحتطب، وبذلك يتم الاقليم الفاصل المحيط بها من الشمال الغربى والشمال والشمال الشرقى والذى يفصل بين نجد وشمال الحجاز .

فالحدود بين نجد والحجاز فى هذه المنطقة تبدأ من منطقة المحتطب هذه وتتجه الى الشرق والجنوب الشرقى اسفل منطقة الحرات التى تقع عليها فدك وخيبر والسوارقية حتى تتصل برمل الهبير او عالج (النفود) وهى بهذا تفصل بين تيماء التى تقع الى الشمال عند الطرف الغربى للنفود وبين اقليم الحرات . فتيماء من بادية نجد « ومنها تمتاز البادية كما يقولون » (٣) وأقليم الحرات من الحجاز . ومما يجدر ملاحظته أن منطقة المحتطب هذه ينبت فيها الغضا وقد اعتبر ابن الفقيه ظهور هذا النبات علامة لتمييز نجد عن الحجاز فهو كما يرى لاينبت الا فى نجد « وقد قيل فرق ما بين الحجاز ونجد انه ليس بالحجاز غضا فما أنبت الغضا فهو نجد وما انبت الطلح والسَّمُر والاسل وواحدته أسلة فهو الحجاز » (٤) .

الجِناب : ويقع شمال ارض فزارة (ذبيان) وجنوب أرض كلب « فان جاوزت بلاد بنى فزارة الى أرض كلب فانت بالجناب » (٥) . والاصمعى يؤكد لنا وضع هذا الاقليم بين غطفان وكلب « والجناب مابين غطفان وكلب » (٦) . « فاذا تجاوزت بلاد فزارة فانت بالجناب الى أرض كلب » (٧) . فالجناب يقع

(١) البكرى : معجم ما استعجم (القاهرة ١٩٤٥) ١٥ .

(٢) = ٦ هذا اذا اعتبرنا الضمير فى كلمة « قرياتها » يعود على جزيرة العرب ، وان كان من الممكن ان يعود على اليمن فهى أقرب مذكور اليه .

(٣) كانت تيماء منازل طى (البكرى : معجم ما استعجم (القاهرة ١٩٤٥) مادة « تيماء ») وطى من قبائل نجد لذلك اعتبرت تيماء من نجد وليست من الحجاز .

(٤) ابن الفقيه : مختصر البلدان (ليدن ١٨٨٥) ٢٧ .

(٥) البكرى : معجم ما استعجم (القاهرة ١٩٤٥) ١٣ .

(٦) = ١٤ ، مادة « جناب » .

(٧) ياقوت : معجم البلدان ــ مادة « نجد » .

فى منطقة الحرات الشمالية التى تكون الجبهة الشمالية لاقليم الحجاز والتى تقع نجد والبادية أسفل منها . وهـذه الحرات هى : الحرة الرجلاء . حرة راهص . حرة راجل . حرة ليلى . وحرة الرجلاء هـذه فى ديار بنى القين « الحرة الرجلاء وهو علم لحرة فى ديار بنى القين بن جَسر بين المدينة والشام » وحرة راجل فى بلاد بنى عبس . وحرة راهص هى فى ديارة فزارة . وحرة ليلى لبنى مرة بن عوف من ذبيان (١) . وتكون هذه الحرات الجبهة الشمالية لمنطقة الجلس .

وكان يسكن بالجناب هذا قبائل عذره وبلى « والجناب ارض عذرة وبلى » (٢) وكان بين اقليم الجناب وبين تيماء فى المنطقة التى تكاد تقع على حدود البادية حصن السموءل « وبين جناب وتيماء حصن الابلق الفرد الذى كان ينزله السموءل » (٢) .

الجلس : اذا تصورنا الحجاز شجيرة قريبة من الارض لها جذر طويل ضارب فيها ولها جزع قصير تعلوه مجموعة كثيفة من الاغصان قد عمل التقليم والقص فى الجانب الايسر منها فقصُر عن الجانب الايمن ، كانت هذه الاغصان هى اقليم الجلس وكان ساحل البحر الاحمر هو المقص الذى جار على جانبها الايسر وكانت اغصان جانبها الايمن هى الاقليم الممتد شرقا وشمالا حتى جبلى طى . وكان راس هذه الشجيرة هو اقليم الحرات الشمالية وكانت نقطة اتصال أغصانها بجزعها عند منتصف الطريق بين مكة والمدينة وان كانت الى مكة اقرب منها الى المدينة . اما جزعها فهو جبال الحجاز واما جذرها الطويل فهو جبال السراة .

فالجلس كما يحدده لنا ابن الكلبى مابين الجحفة وجبلى طى ويعد المدينة منه « قال والجلس مابين الجحفة الى جبلى طى والمدينة جلسية » (٣) . ويذهب الى هـذا التحديد ايضـا عرّام بن الاصبَغ ويزيده وضـوحا بتعـداد بعض الاماكن التى تدخل فيـه « الجلس ما بين الجحفـة الى جبلى طى . والمدينة جلسيـة واعمال فدك وخيبر ووادى القـرى والمروة والجار والفرع » (٤) والبكرى يستكمل لنا توضيح هذه الحدود من الجنوب ثم من الشرق فيقول « الجلس ما ولى بلاد هذيل » (٥) ويقول « وبلاد أسد الجلس والقنان وابان الابيض وابان الاسود الى الرمة » (٦) .

---

(١) ياقوت : معجم البلدان ــ مادة « الحرار » .

(٢) البكرى : معجم ما استعجم (القاهرة ١٩٤٥) مادة « تيماء » .

(٣) = ١١ (٤) = ١٠

(٥) = ١٥ (٦) = ١٣

والجحفة هذه – وهى النقطة التى يبدأ عندها اقليم الجلس – منزل من منازل الحاج بين مكة والمدينة ، بينها وبين المدينة ١٧٣ ميلا وبينها وبين مكة ١٠٣ ميلا ، وهى قريبة من ساحل البحر الاحمر تبعد عنه بمقدار ثمانية أميال فقط ، وهى وفق حساب الهمدانى تقع على خط ١٠َ ٢٢ْ من خطوط العرض.

وجبلا طىء هما أجا وسلمى يقعان على خط عرض ٢٧ْ تقريبا على يسار الطريق الواصل من الحجاز الى الكوفة على مسافة ٤٠٢ ميلا من مكة ، ٢٤٧ ميلا من المدينة .

ولما كانت الجحفة تقع على ساحل البحر لاتبعد عنه الا بمقدار ثمانية أميال فقط ، ولما كان الجار فرضة المدينة على ساحل البحر قد عده عرّام بن الاصبَغ من اقليم الجلس فاقليم الجلس يضم جزءً من تهامة أو الغور وهو يمتد من الجحفة جنوبا مشرفا على ساحل البحر الى ما يحاذى أجا وسلمى وخيبر وفدك .

واذا كان جزء من الجلس من قسمه الغربى يقع فى اقليم تهامة فهل يقع قسمه الشرقى جميعه فى اقليم الحجاز ، أو ان طرفا منه يقع فى اقليم نجد ؟

البكرى يحدد لنا حدود الحجاز من هذه الناحية فيقول « ومن المدينةالى طريق الكوفة الى الرمة حجاز ، وما وراء ذلك نجد الى أن تشارف ارض العراق . ومن طريق البصرة الى بطن نخل حجاز ، وما وراء ذلك نجد الى أن تشارف البصرة . ومابين المدينة الى طريق صنعاء اذا سلك على معدن بنى سليم حجاز الى الجرد الى نجران الى صنعاء . ومن المدينة الى بطن نخل الى شباك ابن عليّة حجاز الى الربذة . وما وراء ذلك الى الشَّرَف الى أضاخ وضرية واليمامة نجد » (١) .

وبطن نخل على الطريق من المدينة الى الكوفة وهى تقع فى شرق المدينة فى محاذاتها مع ميل الى الشمال مقداره درجة تقريبا وهى تبعد عن المدينة بمقدار ٤٩ ميلا (عرض بطن نخل ٢٥ْ وعرض المدينة ٢٤ْ تقريبا . وفق حساب الهمدانى) .

والربذة على الطريق من مكة الى الكوفة على بعد ٢٠٠ ميل من مكة ، ٥٨ ميلا من معدن النقرة وهى مجمع طريقى مكة والمدينة الذاهبين الى الكوفة . والربذة بين معدن النقرة ومكة . وعرض الربذة ٢٥ْ .

ومعدن النقرة وهى مجمع الطريقين تقع بين الحجاز وبين فيد وبينها وبين فيد ١١٩ ميلا وبينها وبين مكة ٢٥٨ ميلا وبيها وبين المدينة ١٢٨ ميلا وهى على عرض ٢٦ْ . وبطن نخل تبعد عنها بمقدار ٧٩ ميلا .

---

(١) البكرى : معجم ما استعجم (القاهرة ١٩٤٥) ١٢

ومعدن بنى سليم على الطريق من مكة الى الكوفة بينها وبين مكة ١٦٠ ميلا وبينها وبين معدن النقرة ١٢٤ ميلا والربذة فى منتصف المسافة تقريبا بين معدن النقرة ومعدن بن سليم فبين الربذة ومعدن النقرة ٥٨ ميلا وبين الزبدة ومعدن بنى سليم ٦٦ ميلا . ومعدن بنى سليم على عرض ٢٣/٣٠°.

وطريق البصرة (من البصرة الى مكة) يقع الى الشرق والجنوب قليلا من طريق الكوفة (من الكوفة الى مكة) والمسافة الواقعة بين الطريقين هى مسيرة ثلاث مراحل وهى المسافة الواقعة بين معدن النقرة فى طريق الكوفة وبين النباج فى طريق البصرة . ثم تأخذ المسافة بعد ذلك فى الضيق حتى يلتقى الطريقان عند ذات عرق ، ميقات أهل العراق .

فالبكرى يصور لنا القسم الشرقى من الحجاز مثلثا تستند قاعدته الى وادى الرمة شمال المدينة وضلعه هو الخط الواصل بين المدينة ومكة ووتره يتكون من عدة انكسارات فتبدا النقطة الاولى عند التقاء الرمة بطريق الكوفة ويسير هذا الوتر حتى الربذة . ومن الربذة الى معدن بنى سليم ثم الطائف يضاف الى ذلك منطقة أخرى تقع بين بطن نخل الى طريق البصرة .

فحدود الحجاز وفق هذا التحديد تنتهى فى الشمال عند التقاء الرمة بطريق الكوفة اى فى ثلثى الطريق بين المدينة وجبلى طى تقريبا واذا اخذنا فى ذلك بتحديد عرام بين الاصبغ الذى يجعل حد الحجاز « من معدن النقرة الى المدينة » (١) فتنتهى هذه الحدود كذلك قبل ان تصل الى جبلى طى بمسافة طويلة تقارب مائة ميل ، وديار بنى أسد التى تقع فى الجلس تقع فى هذا الجزء الذى يخرج عن حدود الحجاز . وما ولى ديار هذيل الذى يقع فى الجلس هو ديار سليم وهوازن وهى تقع فى حد الحجاز هذا .

ولما كان جزء كبير من شمال الجلس يقع خارج حدود الحجاز فقد دفع ذلك قوما الى اعتباره من نجد ويساعدهم فى ذلك ان الحجاز عندهم حجازان الحجاز الاسود وهو سراة شنوءة او الحجاز والحجاز الآخر هو حجاز المدينة وبعضهم لايعتبره من الحجاز اذ يعتبر نهاية الحجاز عند العَرْج (٢) فى الطريق بين مكة والمدينة . وهى تبعد عن المدينة بمقدار ٨٥ ميلا وعرضها ٢٣ « وكذلك اذا

---

(١) البكرى : معجم ما استعجم (القاهرة ١٩٤٥) ١٠ .

(٢) يعتبر بعض الجغرافيين ان العرج هى نقطة اتصال جبال الحجاز بجبال لبنان فلذلك يقصرون اسم جبال الحجاز على السلسلة التى تمتد منها نحو الجنوب « والعرج عقبة بين مكة والمدينة على جادة الحاج ، تذكر مع السقيا ـ عن الحازمى ـ وجبلها متصل بجبل لبنان » ياقوت : معجم البلدان ـ مادة « العرج » .

تصوبت فى ثنايا العرج الى أقصه بلاد بنى فزارة أنت متهم فان جاوزت بلاد بنى فزارة الى أرض كلب فانت بالجناب » (١) ولذلك اعتبروا المدينة من تهامة. واعتبر بعضهم الجلس نجدا لاقليم الغوْر خاصة . « معنى تهامة والغور واحد ومعنى حجاز وجلس واحد . هكذا ذكر الزبير بن بكار عن عمه . وقال غيره معنى حجاز وجلس ونجد واحد » (٢) « والجلس علم لكل ما ارتفع من الغور فى بلاد نجد » (٣) .

فالجلس فيما يبدو أقليم قائم بذاته يقع فى شمال الحجاز الاسود . وجزء منه من الغور وهو الجزء المرتفع من الساحل ، وجزء منه من نجد وهو امتداد حرات خيبر وليلى نحو الشرق ، وجزء ثالث منه من حجاز المدينة الذى عرف فيما بعد مع الحجاز الاخر باسم الحجاز فقط .

وحدود الحجاز الشرقية فى اقليم الجلس هذا تقع عند التقاء طريق العراق بوادى الرمة عند الخط الفاصل بين الربذة والشرف وهو مايسميه البكرى بحد الحجاز الاول « وحد الحجاز الاول بطن نخل واعلى رمة وظهر حرة ليلى » (٤) .

نجد العليا : ونجد نجدان عليا وسفلى « ويقال فى نجد العليا النجد وفى السفلى ارض نجد » (٥) والنجد او نجد العليا هى أدنى النجدين الى الحجاز والسراة ، تمتد من الشمال الى الجنوب فى شرقى سلسلة الحرات الوسطى . «وقال ابو منصور حرة ليلى وحرة شوْران وحرة بنى سليم فى عالية نجد» (٦) وحرة ليلى فى شمال خيبر وشرقيها . وحرة شوران فى شرقى وادى العقيق وفى شرقى المدينة « قال عرام عير (جبل المدينة) جبلان احمران عن يمينك وانت ببطن العقيق تريد مكة وعن يسارك شوران » وحرة بنى سليم او حرة النار فى منازلهم حول معدن بنى سليم .

والفاصل ما بين الحجاز ونجد هو هذه الحرات فما سال منها نحو المشرق والشمال الشرقى فهو من نجد وماسال منها نحو المغرب فهو من الحجاز «وقال عمارة بن عقيل ماسال من الحرة حرة بنى سليم وحرة ليلى فهو الغور وماسال

(١) البكرى : معجم ما استعجم (القاهرة ١٩٤٥) ١٣
(٢) = ٨/٧
(٣) ياقوت : معجم البلدان ــ مادة « جَلْس » .
(٤) البكرى : معجم ما استعجم (القاهرة ١٩٤٥) ١٠
(٥) الهمدانى : صفة جزيرة العرب (ليدن ١٨٨٤) ١٧٧
(٦) ياقوت : معجم البلدان ــ مادة « الحرار »

من ذات عرق مقبلا فهو نجد . وحذاء نجد أسافل الحجاز وهى وجرة والغمرة . وماسال من ذلك عرق موليا الى المغرب فهو الحجاز » (١) غير أن عمارة يقصر معنى الحجاز فى نصه على الحجاز الاسود خاصة ويطلق لفظ الفور على اقليم الجلس وما ينقله ابن الفقيه يحدد لنا ذلك فى صورة أكثر وضوحا « قال جعفر اودية نجد تسيل مشرقة واودية تهامة تسيل مغربة »(٢)

فالمنطقة شمال وجرة والغمرة التى يعتبرها عمارة بن عقيل من الفور أو أسافل الحجاز هى منطقة الجلس (الغمر على عرض ٢٢° وهو عرض الجحفة وبينها وبين مكة ٧٣ ميلا) وقد بينا ان القسم الشرقى من منطقة الجلس او ماسال من بطن الرمة شرقا أو ماسال من حرة ليلى وخيبر شرقا فهو نجد . وماسال من حرة شَوْران شرقا فهو نجد . ويقع ذلك عند اتصال الجلس بنجد فى هذه المنطقة قريبا من الربذة . وماسال من حرة سليم شرقا فهو نجد كذلك وحده جبل حَضَن الذى قالوا فيه ان من راى حضنا فقد انجد « حَضَن جبل بالعالية مشرف على السّى الى جانب ديار سُليم وهو أشهر جبال نجد » فحضن هو الحد بين اقليم الحرة وبين نجد .

والجغرافيون الذين اتخذوا ساحل البحر اساسا لتحديد الاقسام الداخلية للجزيرة يضعون نجدا فى المنطقة الواقعة شمال المدينة فتكون الحدود بين نجد والحجاز هى من ناحية الشمال فحسب ولعلهم قد اضافوا اليمامة الى أعمال المدينة كما كان الحال فى عهد الامويين فتكون الحدود بين نجد والحجاز هى اقليم حرة خيبر ومنطقة جبلى طى الى أن تتصل برمل الهبير (النفود) وممن ذهب الى هذا التقسيم ابن حوقل والاصطخرى « وما كان من اليمامة الى قرب المدينة راجعا على بادية البصرة حتى يمتد على البحرين فمن نجد » (٣)

ارض العالية او العروض : وارض العالية التى تقع الى الجنوب من نجد العليا والى الشرق من الحجاز كانت تعرف بالعروض او الاعراض . وهى المنطقة المشتركة بين نجد والحجاز وتمتد مساحتها شرقا حتى اليمامة والبحرين وجنوبا حتى اليمن . وابن الكلبى يميزها ويرسم لنا حدودها فى نصه الذى يقول فيه « وارض العالية والبحرين الى عمان من العروض » (٤) .

---

(١) البكرى : معجم ما استعجم (القاهرة ١٩٤٥) ١٤

(٢) ابن الفقيه : مختصر البلدان (ليدن ١٨٨٥) ٢٦

(٣) ابن حوقل : صورة الارض (ليدن ١٩٣٨) ٢١ ــ الاصطخرى : مسالك الممالك (ليدن ١٩٢٧) ١٤

(٤) البكرى : معجم ما استعجم (القاهرة ١٩٤٥) ١٠

ويذهب الى ذلك ايضا ابو اسحق الحربى فيقول « واخرج عمر بن الخطاب اليهود والنصارى من جزيرة العرب الا انه لم يخرجهم من نجران ولا اليمامة والبحرين فسميت العروض » (١) فهذه المنطقة كانت منطقة واحدة متميزة تقع بين الحجاز ونجد واليمن والخليج الفارسى .

والجزء الغربى من هذه المنطقة الذى يقع بين جبال السراة ورمال الربع الخالى المعروفة برملة بنى سعد او رملة يبرين وان كان هو ـ فى حقيقة الامر ـ الطريق البرى الوحيد الموصل بين اليمن وبين اليمامة ثم الى البحرين وعمان، او بين تهامة والحجاز وبين هذه المناطق ـ خلال وادى الدواسر الذى يشق منطقة الرمال الفاصلة ، ـ فانه على الرغم من ذلك كان منفصلا ومستقلا من الناحية الجغرافية عن هذه المناطق . فان بحر الرمال كان يفصله عن اليمامة والبحرين وعمان وان كانت الصلات الاخرى الاجتماعية والاقتصادية تربطه بهما .

فالاعتبارات الجغرافية تضيف هذا الاقليم الى الحجاز او الى نجد العليا الملاصقة للحجاز . والنصوص تؤكد هذه الاضافة « والاعراض ايضا قرى بين الحجاز واليمن » (٢) . « واعراض الحجاز رساتيقه الواحدة عرض » (٣) . « واعراض نجد هى بيشة وترج وتبالة والمراغة ورنية » (٤) وكلمة نجد المستعملة هنا هى نجد الحجاز او « ارض العالية » .

والحس اللغوى قد تنبه الى ان منطقة العروض او الاعراض هذه هى فى واقع الامر منطقتان تفصل بينهما رمال الربع الخالى فاكد ذلك الفصل فى التسمية فكان يطلق العروض على اليمامة والبحرين وعمان . وكان يطلق اسم الاعراض على القسم الاخر .

والخط الواصل بين حضن فى الشمال وبين جبل تثليث فى الجنوب ينطبق على الحافة الغربية لمنطقة الرمال الفاصلة وهى تكون الحد بين الحجاز ونجد فى هذه المنطقة اذا اعتبرنا هذه الرمال من منطقة نجد .

تهامة :

يطلق على الساحل المحصور بين البحر وجبال السراة او الحجاز لفظ

---

(١) البكرى : معجم ما استعجم (القاهرة ١٩٤٥) ١٢

(٢) ياقوت : معجم البلدان ـ مادة « عرض » .

(٣) القاموس المحيط ـ مادة « عروض » .

(٤) البكرى : معجم ما استعجم (القاهرة ١٩٤٥) ٩

تهامة او الفور ، غير ان الاغلب ان يطلق لفظ تهامة على الجزء منـــه الواقع فى حدود اليمن ، فيقال تهامة اليمن ، ويغلب اطلاق لفظ الغور على الجزء الشمالى منه الواقع شمال الجحفة ، ويطلق لفظ الغور او تهامة ـ بدرجة واحدة من التساوى ـ على الجزء الاوسط منه الواقع فى حيز الحرم حتى الجحفة .

واساس التخصيص فى هذه التسمية هو الارتباط بجبال السراة . فسلسلة السراة التى تنتهى عند ذات عرق حيث تختفى النهاية الشمالية لسراة ثقيف او السراة الثالثة تنهى معها تهامة حيث يلتقى طرفا نجد وتهامة بعد ان اختفى الحجاز الاسود الفاصل بينهما . لذلك كانت ذات عرق فصل ما بين تهامة ونجد والحجاز « وذات عرق فصل ما بين تهامة ونجد والحجاز . وقيل لاهل ذات عرق امتهمون انتم ام منجـدون فقالوا لامتهمون ولامنجـدون » (١) . وكانت الحدود الشمالية لتهامة تقف عند الخط الواصل من ذات عرق هذه الى البحر « وأما تهامة فانها قطعة من اليمن جبال مشتبكة اولها مشرف على بحر القلزم مما يلى غربيها . وشرقيها بناحيـــة صَعْدة وجُرَش ونجران . وشماليها حدود مكة . وجنوبيها من صنعاء على نحو من عشر مراحل » (٢) .

وفى النقطة التى يختفى عندها الحجاز الاسود تبدا سلسلة حرات الحجاز التى تتجه الى الشمال مكونة حجاز المدينة الذى يعلو منطقة الجلس ابتداءً من حد الجحفة . ويسير ساحل تهامة موازيا لهذا الحجاز حتى اذا صـادف اقليم الجلس مضى فيه قليلا الى نقطة تقع فى الشمال والشمال الشرقى من الجحفة حيث يلتقى هناك حجاز المدينة (او اقليم الحرة) وتهامة (او الغور) واقليم الجلس . وهـذه النقطة التى تلتقى عنـدها الاقاليم الثـلاثة تعرف بالعَرْج « طول الحجاز من حد العَرْج الى السراة » (٣) . والمنطقة التى تقع جنوب الجحفة هى الغور او تهامة ، والمنطقة التى تقع الى شمال الجحفة على ساحل البحر هى الغور فقط اى غور الجلس « فصار ما خلف هذا الجبل فى غربيـه الى أسياف البحر من بلاد الاشعريين وعك وكنانة الى ذات عـرق والجحفة وما والاها وصاقبها وغار من أرضها الغور ، غور تهامة ـ وتهـامة تجمع ذلك كله ـ وغور الشام لايدخل فى ذلك » (٤) .

---

(١) البكرى : معجم ما استعجم (القاهرة ١٩٤٥) ٩

(٢) ابن حوقل : صورة الارض (ليدن ١٩٣٨) ٣٦ ـ الاصطخرى : مسالك الممالك (ليدن ١٩٢٧) ٢٣

(٣) ابن الفقيه : مختصر البلدان (ليدن ١٨٨٥) ٢٧

(٤) البكرى : معجم ما استعجم (القاهرة ١٩٤٥) ٩

ولما كانت العرج نقطة اتصال جبال الحجاز بجبال لبنان « والعرج عقبة بين مكة والمدينة على جادة الحاج تذكر مع السقيا ـ عن الحازمى ـ وجبلها متصل بجبل لبنان » (١) فانا نستطيع ان نفهم لم خصص الجز من شمال الجحفة باسم الغور فقط ـ وذلك لان غور الشام لايدخل فى حد تهامة « وغور الشام لايدخل فى ذلك » . وكثيراً مانجد هذه المنطقة تسمى « بسيف البحر » الى جانب تسميتها بالغور .

ولما كان الجزء الجنوبى من ساحل البحر يعرف بتهامة وكان الجزء الشمالى منه يعرف بالغور فان الجزء الاوسط جمع بين الاسمين فسمى تهامة وسمى الغور أيضا .

ومن حدد مفهوم لفظ الحجاز فقصره على الحجاز الاسود اى جبال السراة فقد اعتبر مكة من تهامة فهى دون هذا الجبل ، محصورة بينه وبين البحر . ومن فهم من لفظ الحجاز الحجازين جميعا : الاسود ، وحجاز المدينة فمكة عنده من الحجاز لانها تقع فى الهضبة المرتفعة التى ترتكز عليها جبال السراة او الحجاز الاسود . وكذلك شأن المدينة فهى من تهامة او الغور عند من يقصر معنى الحجاز على الحجاز الاسود فقط وهى من الحجاز على المعنى الثانى فهى تقع فوق نفس الهضبة الحجازية التى ترتكز عليها سلسلة السراة . ومن لايعترف الا بالحجاز الاسود قد يعتبرها كذلك من نجد لانه قد يعتبر اقليم الجلس من نجد « على أن من العلماء بتقسيم هذه الديار من زعم أن المدينة من نجد لقربها منها وان مكة من تهامة اليمن لقربها منها » (٢) .

* * *

ونصوص الجغرافيين فى رسم الحدود الحاجزة بين اقسام الجزيرة العربية تكشف لنا ـ عن طريق تحليلها واستعراض اوجه الخلاف بينها ـ عن بعض من مراحل التطور فى حياة الجزيرة العربية . فقد كانت هذه المراحل تنعكس فى اغلب الاحيان على الاعلام الجغرافية والعناصر الثابتة فى حياة الجزيرة العربية . ولعلنا نوفق الى تتبع هذا التطور فى مناسبة اخرى .

عبد المحسن الحسينى

---

(١) ياقوت : معجم البلدان ـ مادة « العَرْج » .
(٢) ابن حوقل : صورة الارض (ليدن ١٩٣٨) ٢١

مشكلات الرى فى دلتا النيل
تطور نظام الرى فى الدلتـــا

للدكتور محمد ابراهيم حسن

مصر مهد الزراعة القديمة قد حبتها الطبيعة تربة خصبة ومناخا رائعا وماء موفورا . وقد اكب زراع الوادى على استغلال تلك المزايا استغلالا منظما . وكان الرى الحوضى نظاما سائدا فى الوادى قبل ادخال نظام الرى الدائم ، فكانت الارض مقسمة الى احواض تتراوح مساحة الواحد منها بين ٥٠٠ فدان و ٣٠٠٠ فدان . وقد كانت هذه الاحواض محاطة بأسوار عريضة استخدمت كطرق زراعية وفى وقت الفيضان تملا الاحواض بالمياه ، ثم تنحسر عنها بعد أن تترك عليها طبقة من طمى النيل المخصب (١) .

ولنظام الرى الحوضى مزايا كثيرة يمكن ان تتلخص فيما يأتى : (اولا) راحة الارض مدة الشراقى ، فبعد ان يجمع المحصول فى ابريل او مايو تترك الارض بدون زراعة حتى تغمرها مياه الفيضان من جديد . واثناء فترة الشراقى التى تسبق الفيضان تجف الارض فتتشقق وتتسرب الى باطنها اشعة الشمس مما يؤدى الى ارتفاع الاملاح الى السطح بفعل الجاذبية الشعرية حتى اذا ما جاء الفيضان التالى غسل هذه الاملاح وجدد خصوبة التربة . وهكذا كانت الارض دائمة الخصوبة قليلة الاملاح (٢) . (ثانيا) ان نظام رى الحياض اعطى فرصة لنوع من الهجرة الداخلية الى مناطق الرى الدائم لتطهير الترع وتجفيف المستنقعات وجنى المحصول والعمل فى البناء والصناعة وغير ذلك .

---

(١) ب . س . جيرار ـ الاحوال الزراعية فى القطر المصرى فى اثناء حملة نابليون بونابرت . من ص ١٠ ـ ١٦ . (قام بتعريب هذا الجزء من كتاب وصف مصر كل من الدكتور يوسف نحاس وخليل مطران تحت اشراف الجمعية الزراعية الملكية ، وقد نشر سنة ١٩٤٢) .

(٢) ماكنزى وشيلى بيرنز ـ النشرة الفنية رقم ٢٥ عن اساس الفلاحة المصرية وعلاقته بنقص متوسط محصول الفدان من القطن . (وزارة الزراعة سنة ١٩٢٤ ـ تعريب عبد العزيز نصار ـ من ص ٦ ـ ١٥) .

وقد كانت الاراضى العالية تزرع فى أثناء الفيضانات العالية . أما الاراضى المنخفضة المجاورة للترع وفروع الدلتا فكانت تزرع على مدار السنة .

ولما ولى محمد على أمر مصر سنة ١٨٠٥ بدأ يعمل على زيادة موارد الثروة حتى يتمكن من التوسع فى سياسة الاصلاح ومواجهة الاعباء العسكرية. وقد بدأ بالغاء نظام الالتزام الذى كان يقيم بين الدولة والزراع طائفة من الناس يتصلون بالفلاحين ويجمعون منهم مقادير مختلفة من المال يقدمون بعضها للحكومة ويستبقون لانفسهم بعضها الاخر . وقد وضع الوالى نظاما جديدا اصبح بمقتضاه مالكا لاكثر اراضى القطر . وكان من الطبيعى ان يبقى الفلاحين يزرعونها ويقدمون اليه نصيبه من خيراتها . وقد استطاع محمد على بفضل الاستيلاء على الارض وتنظيم الزراعة ان يدخل فى مصر غلات جديدة اهمها القطن وقصب السكر والنيلة والقنب .

وكان لانتشار زراعة هذه المحاصيل الجديدة نتيجة هامة هى تنفيذ سياسة مائية جديدة بداها محمد على واستمر العمل بها حتى الوقت الحاضر. وترمى هذه السياسة الى ضبط ماء النيل وادخال نظام الرى الدائم ليحل محل نظام رى الحياض الذى عرفته مصر منذ ان عرفت الزراعة . وقد امر محمد على بحفر ترع السرساوية والباجورية والنعناعية وتطهير بحر شبين فى وسط الدلتا ، ثم انتشرت الترع بعد ذلك فى معظم جهات الدلتا (١) . وكانت الترع تعمق فى وقت التحاريق الى منسوب يسمح بدخول مياه النيل المنخفضة . اما عملية تطهير هذه الترع فكانت تتم وفقا لنظام السخرة ، اذ فرض على كل مركز ان يقدم ربع رجاله بالتناوب من سن ١٥ الى ٥٠ سنة للعمل مدة تبلغ ٤٥ يوما فى تقوية الجسور وتطهير الترع . وكان يعفى من السخرة رجال الدين وموظفو الحكومة والتجار الذين يدفعون قدرا خاصا من الضرائب . وكان للفرد الحق ان يتخلص من عمل السخرة اذا دفع قدرا ماليا محدودا ، وقد شمل الاعفاء البدو والعمال فى املاك الدولة والدائرة السنية (٢) .

---

(١) ا : الياس الايوبى ــ تاريخ مصر فى عهد الخديوى اسماعيل (المجلد الاول ص ٧٠ وما بعدها . القاهرة سنة ١٩٢٣) ب . خريطة ترع الدلتا كما وضعها لينان دى بلفون سنة ١٨٥٨ (من محفوظات الجمعية الجغرافية الملكية بالقاهرة ــ النسخة الفرنسية) .

جـ . Julien Barois : *Les Irrigations en Egypte. (Paris 1911, p, 144-182).*

(٢) Linant de Bellefonds : *Principaux travaux d'utilité publique en Egypte, Paris 1873, p, 341 - 381*

وقد كان معظم رى الوجه البحرى فى ذلك الوقت يعتمد على عدد من الترع التى تخرج من فرعى دمياط ورشيد . ولاشك أن ادخال زراعة القطن والمحصولات الجديدة الاخرى أبرز شدة الحاجة الى تطهير الترع وتعميقها مما أدى الى استخدام آلاف من العمال وتكليف الخزينة نفقات كثيرة . كل ذلك دفع لينان باشا أن يقدم الى محمد على مشروعا جديدا لتوفير المياه يتضمن بناء قنطرتين على فرعى الدلتا ، الاولى على فرع رشيد تجاه كفر منصور على بعد تسعة كيلو مترات من موقعها الحالى ، والاخرى على فرع دمياط تجاه دروه على بعد خمسة كيلو مترات من موقعها الحالى ، واعتمد محمد على هذا المشروع الا أن تفشى الامراض بين العمال اوقف العمل فى سنة ١٨٣٧ مما ادى الى العودة الى تطبيق النظام القديم الذى يقضى بتعميق الترع وتطهيرها بأنفار السخرة على الرغم مما فى هذا النظام من عنف وارهاق .

وقد واصل المهندس الفرنسى موجل بك مجهود سلفه لينان باشا فحبب المشروع الى نفس الباشا بعد أن أقنعه باهميته فى زيادة ثروة البلاد ، وبأن اكتشاف صخور جيرية متينة بجوار الاسكندرية تسهل مهمة بناء المنشآت المائية . واستقر الرأى على اقامة قنطرتين على فرعى رشيد ودمياط بجانب راس الدلتا فى المنطقة المعروفة ببطن البقرة حيث يتفرع فرعا الدلتا ويتضمن المشروع ايضا حفر الرياحات الثلاثة . وفى سنة ١٨٤٧ وضع محمد على اساس القناطر الخيرية . واستمر موجل بك فى العمل بعناية فائقة ، وكان بناء القناطر يسير ببطء فلم يطمئن عباس باشا الاول الى تقدم سير العمل فأقال موجل بك سنة ١٨٥٣ وعين مكانه مظهر بك الذى مضى فى اتمام العمل . وفى سنة ١٨٦١ تم بناء القناطر الخيرية . وفى أواخر تلك السنة لوحظ أن القناطر أضعف من أن تتحمل ضغط المياه المحجوزة أمامها . وعلى الرغم من الترميمات المتوالية والرقابة الشديدة لم تقم القناطر بعملها على الوجه الاكمل بل تطلبت بعض القواعد الاستثنائية فى الموازنة عليها وقت طلائع الفيضان حيث تكون الحاجة للمياه فى الترع على أشد حالتها (١) .

وفى سنة ١٩٣٢ تشكلت لجنة لبحث حالة القناطر . ووصلت اللجنة الى ان حالة القناطر لاتساعد على الثقة فى امكان تقويتها لتقاوم الضغوط الجديدة الناتجة من رفع المياه أمامها . وقد اشارت هذه اللجنة بضرورة بناء قناطر جديدة لتحل مكان القناطر القديمة التى اصبحت اثرا من الاثار التى تعتز بها

---

(١) الدكتور حسن زكى — مذكرة عن القناطر الخيرية فى القرن العشرين (من مطبوعات وزارة الاشغال سنة ١٩٣٧) من ص ١ — ١٢ .

القومية المصرية (١) .

وفى سنة ١٩٣٦ بدىء العمل فى بناء القناطر الجديدة التى تمت سنة ١٩٣٩، وتقع الى الشمال من القناطر القديمة بنحو سبعة كيلو مترات . وتتكون قنطرة فرع رشيد من ٤٦ فتحة سعة الواحدة ثمانية امتار ، على حين تتكون قنطرة فرع دمياط من ٣٤ فتحة سعة كل منها ثمانية أمتار ايضا . وبكل من القنطرتين هويس للملاحة طوله ٨٠ مترا وعرضه ١٢ مترا . وقد رفعت هذه القناطر الجديدة فرق التوازن الى ٣٫٨٠ مترا بعد أن كانت ثلاثة أمتار فقط فى القناطر القديمة . هذا ومن الممكن ايضا الحصول على قوة مائية مقدارها ١٥٠٠٠ حصان على الاقل مدة تسعة اشهر من السنة ، ونحو ٥٠٠٠ حصان فى الثلاثة أشهر الباقية (٢) .

وتغذى هذه القناطر الرياحات الثلاثة . أما الرياح المنوفى فقد أصبح يغذى معظم ترع وسط الدلتا وهو اهم الرياحات الثلاثة ، ويليه فى الاهمية الرياح التوفيقى ثم الرياح البحيرى .

---

(١) الدكتور حسن زكى ـ القناطر الخيرية من الوجهة التاريخية ـ من ص ٤٣ ـ ٥٧ من الكتاب السنوى السابع لسنة ١٩٣٧ للمجمع المصرى للثقافة العلمية .

(٢) احمد راغب ـ القناطر الخيرية ومشروع قناطر محمد على . القاهرة سنة ١٩٣٦ من ص ١٣ ـ ٢٧ .

نظام الصرف فى وسط الدلتا

تنقسم الدلتا الى مناطق كثيرة للصرف ، وتعتمد كل منطقة على مصرف رئيسي يتبعه مصارف ثانوية ، وتمتاز هذه المناطق بشبكة كبيرة من المصارف ومحطات الصرف .

١ ـ **منطقة شرق المنوفية** ـ وتبلغ مساحتها ١٢٠٫٠٠٠ فدان وتشتمل على جميع الاراضى التى تقع الى شرق بحر شبين وجنوب الرياح العباسى ، وتدخل هنا الاجزاء الشرقية من مركز منوف وكل مركز قويسنا وشرق مركز شبين الكوم والجزء الجنوبى الشرقى من مديرية الغربية الذى ينحصر بين الرياح العباسى والحدود الادارية الشمالية لمديرية المنوفية (١) .

ومصرف العطف يمثل المصرف الرئيسى لهذه المنطقة ، ويبدأ جنوبا قرب نقطة تفرع ترعتى العطف والساحل ، ثم يتجه نحو الشمال مخترقا وسط المنطقة حتى يصب فى مصرف زفتى الرئيسى بعد ان يمر تحت قاع الرياح العباسى . وتصرف منطقة شرق المنوفية بالراحة طول السنة الى مصرف زفتى الرئيسى . هذا ويقترح انشاء طلمبات صرف عند نهاية مصرف العطف ، وسيساعد انشاؤها على صرف مياه المنطقة الى الرياح العباسى وقت الفيضان وبذلك يخف الضغط على مصرف زفتى الرئيسى فى ذلك الوقت . وفى غير هذه الفترة يستمر الصرف بالراحة على مصرف زفتى الرئيسى . اما مصرف زفتى الرئيسى فيصب بدوره فى مصرف الغربية الرئيسى الذى يحمل مياه الصرف الى البحر الابيض المتوسط (٢) .

٢ ـ **منطقة غرب المنوفية** ـ تضم الاراضى التى تقع الى الغرب من بحر شبين والرياح المنوفى والى الجنوب من خط يبدأ من مدينة شبين الكوم متجها نحو الغرب حتى فرع رشيد . وتبلغ مساحتها ١٦٠٫٠٠٠ فدان ، وتشتمل على كل مركز أشمون ومعظم مركز منوف (مع استثناء الاجزاء الشرقية) والجزء الجنوبى من مركز شبين الكوم . ويمثل مصرف سبل الرئيسى المصرف

---

(١) راجع الخريطة المرفقة بهذا البحث والتى تبين أهم الترع والمصارف ومناطق الصرف فى الدلتا .

(٢) راجع خريطة مشروعات رى وصرف وسط الدلتا ١/١٠٠٫٠٠٠ ، عمل وزارة الاشغال قسم المشروعات سنة ١٩٤٩ ـ ١٩٥٠ .

كذلك راجع التقرير السنوى لوزارة الاشغال سنة ١٩٣٣ ـ ١٩٣٤ الجزء الثانى ص ٢٩٤ .

الاساسى لهذه المنطقة ، ويبـدأ فى جنوب مركز أشمون متجهـا نحو الشمال الغربى فى محاذاة الترعة النعناعية والى الشمال قليلا من قرية طملاى (مركز منوف) يتجـه المصرف نحو الشمال الشرقى حتى ترعة البـاجورية . والى الشمال قليلا من قرية طملاى يتصل مصرف سبل بفرع رشيد بواسطةوصلة تمتد من الشرق الى الغرب . وتصرف منطقة غرب المنوفيـة بالراحة فى غير وقت الفيضان على فرع رشيد بواسطة وصلة مصرف سبل . أما فى وقت الفيضان فنظرا لارتفاع مستوى المياه فى فرع رشيد عنها فى مصرف سبل فان المصرف يتحول على ترعة الباجورية وذلك بمساعدة طلمبات صرف محطـة شبراباص التى تمت سنة ١٩٣٧ . هذا ولا تؤثر كثيرا مياه الصرف فى ميـاه ترعة الباجورية من الناحيـة الكيماوية وذلك لعظم اتساع هـذه الترعة وأن ما ينصرف اليها ضئيل نسبيا اذا ماقورن بكميات ميـاهها العظيمة وضخامة تصريفها فى وقت الفيضـان .

٣ ـ **منطقة نشرت** ـ ومساحتها ۳۰,۰۰۰ فدان . وتشمل الاراضى التى تقع غربى ترعة القاصد والى الشمال من خط يمتد من شبين الكوم متجهـا نحـو الغرب حتى فرع رشيد . ومصرف دنشـواى يمثل المصرف الرئيسى للقسم الجنوبى من هذه المنطقة . ويبدأ مصرف دنشواى فى جنوب المنطقـة ثم يتجه نحو الشمال موازيا لترعة الباجورية والى الغرب منها ويصب فى فرع رشيد جنوب كفر الزيات . ويصرف هذا القسم بالراحة على فرع رشيد فى غير وقت الفيضـان ، أما فى وقت الفيضان فيصرف أيضا على فرع رشـيد ولكن بمساعدة طلمبات صرف محطة كفر الزيات التى تمت سنة ١٩٤٣ وذلك لارتفاع مستوى مياه فرع رشيد عن مستوى مياه مصرف دنشواى فى ذلك الوقت . اما باقى المنطقـة فمصرفها الرئيسى هو مصرف نشرت الذى يبـدأ الى الشرق من كفر الزيات متجها نحو الشمال حتى يتصل بمصرف نمرة ٩ فى الركن الشمالى الغربى من مديرية الفؤادية ، وتساعد محطة طلمبات الزينى على تحسين الصرف فى هذه المنطقة .

٤ ـ **منطقة مصرف الغربية** ـ ومسـاحتها ۳٤۰,۰۰۰ فـدان وتقع الى الشرق من ترعة القاصـد والى الشمال من منطقة شرق المنوفيـة . ويعتبر مصرف زفتى المصرف الرئيسى لهذه المنطقة ، ويبدا هذا المصرف جنوبا قرب الرياح العباسى ثم يتجـه صوب الشمال حيث يتصل بمصرف سماتاى الذى يصرف القسم الغربى من هذه المنطقة . ويعتبر مصرف زفتى هذا مكملا لمصرف الغربية الرئيسى الذى يحمل مياه صرف المنطقة الى البحر الابيض ، وتساعد محطة صرف رقم ٦ على تحسين صرف هذه المنطقة .

٥ ـ **منطقة طلمبات وسط الدلتا** ـ وهذه تحد جنوبا بخط كنتور ثلاثة امتار (١) ذلك الخط يفصل بين منطقتين مختلفتين من حيث نظام الصرف ، فالمنطقة الجنوبية تتمتع بصرف طبيعى على حين ان المنطقة الشمالية تحتاج الى صرف صناعى بواسطة الطلمبات الرافعة . وقد اهتمت وزارة الاشغال بحفر شبكة كبيرة من المصارف الرئيسية والثانوية التى تقطع هذه المنطقة وتنحدر مع الانحدار العام صوب الشمال . ويعتبر مصرف الغربية الرئيسى اهم مصارف القسم الشرقى من هذه المنطقة بينما يمثل مصرف نشرت أهم مصارف القسم القسم الشرقى . كذلك قد انشئت شبكة كبيرة من محطات الصرف التى من أهمها محطة صرف الزينى على مصرف نشرت ومحطة صرف رقم ٦ على مصرف الغربية .

نظام الصرف فى شرق الدلتا

٦ ـ **منطقة صرف بحر البقر** ـ وتبلغ مساحتها ٠٠٠ر٢٨٠ فدان ، وتبدو على شكل مستطيل يحده غربا فرع دمياط وشمالا بغرب منطقة صرف بحر حادوس . ويعتبر مصرف بحر البقر المصرف الرئيسى لهذه المنطقة ويبدأ فى الركن الجنوبى الشرقى باسم مصرف بلبيس ثم يتجه نحو الشمال الشرقى باسم مصرف بحر البقر حتى ينتهى عند بحيرة المنزلة . ويعتمد القسم الغربى من هذه المنطقة على مصرف القرطامية الذى يتصل بدوره بمصرف فاقوس وهذا الاخير يلقى بمياهه فى مصرف حادوس الذى يحملها الى بحيرة المنزلة. اما وادى الطميلات فيصرف بواسطة مصرف الوادى الذى يمتد الى الجنوب من ترعة الاسماعيلية ويلقى بمياهه فى بحيرة التمساح ، وتبلغ مساحة منطقة مصرف الوادى ٠٠٠ر٢٠ فدان . وقد انشئت محطة صرف القصاصين على هذا المصرف لتساعد على تحسين الصرف . ولكن مصرف الوادى هذا لم يتمكن من صرف كل الوادى صرفا جيدا ولذلك لاتزال بعض الاراضى تعانى ارتفاع الماء الباطنى ولا سيما فى الاطراف الجنوبية والشريط الذى يقع الى الشمال من ترعة الاسماعيلية . وهناك مشروع يرمى الى تعميق مصرف الوادى والى حفر مصرف آخر الى الشمال من ترعة الاسماعيلية ليساعد على تحسين الصرف .

٧ ـ **منطقة صرف بحر حادوس** ـ ومساحتها ٠٠٠ر٥٥٠ فدان ، وتبدو على شكل مثلث يمثل فرع دمياط ضلعه الايسر بينما يعتبر ضلعه الايمن الحد

---

(١) Hussein Kamel Selim: *Twenty years of Agricultural Develop-ment in Egypt. (1919-1939), Page 56-57.*

الفاصل بين منطقة صرف بحر البقر ومنطقة صرف بحر حادوس كما أن قاعدة هذا المثلث هى الفاصل بين منطقة طلمبات شرق الدلتا ومنطقة صرف بحر حادوس . ويصرف القسم الغربى من هذه المنطقة على مصرف بحر حادوس الذى يحمل مياه هذا القسم الى بحيرة المنزلة ، ويمثل مصرف بحر صفط المصرف الرئيسى للقسم الشرقى من هذه المنطقة ويتجه نحو الشمال ليتصل بمصرف بحر حادوس قرب مصبه . وتعتبر هذه المنطقة فقيرة بالمصارف الثانوية ولاسيما فى قسمها الشرقى وهناك مشروع يرمى الى حفر شبكة من تلك المصارف يتصل معظمها بمصرفى بحر صفط وفاقوس .

٨ – **منطقة طلمبات شرق الدلتا** – وتمتد الى الشمال الشرقى من منطقتى صرف بحر البقر وبحر حادوس ، ويحدها شمالا بحيرة المنزلة ويصرف هذه المنطقة شبكة من المصارف الرئيسية التى من أهمها مصرف بحر البقر ومصرف بحر حادوس ومصرف السرو . اما مصرف بحر البقر فيصرف الطرف الجنوبى الشرقى من هذه المنطقة ، وهذا الجزء فى حاجة ماسة الى تحسين نظام الصرف وذلك لان انحداره ضعيف للغاية ويقترح انشاء محطة للصرف على مصرف بحر البقر حتى تحسن من صرف هذا الجزء كما ان هذه المحطة ستحسن ايضا صرف القسم الشمالى الشرقى من منطقة صرف بحر البقر التى سبقت الاشارة اليها . ويعتمد القسم الاوسط من هذه المنطقة فى صرف مياهه على مصرفى فاقوس وحادوس وكلاهما بطىء الصرف لضعف الانحدار ويقترح انشاء محطة للصرف عند نقطة التقاء مصرف فاقوس بمصرف بحر صفط كما يقترح انشاء محطة صرف اخرى على مصرف بحر حادوس قرب مصبه . وتساعد محطة بنى عبيد ومحطة الايراد على تحسين الصرف فى هذا القسم . اما القسم الغربى من هذه المنطقة فهو اوفر الاقسام الثلاثة حظا فى نظام الصرف وفى محطات الصرف ايضا ، فمصرفه الرئيسى هو مصرف السرو بفروعه الثانوية العديدة كما تساعد محطة السرو على تحسين الصرف فى هذا القسم .

نظام الصرف فى غرب الدلتا

٩ – **منطقة مصرف ادكو** – وهذه تبلغ مساحتها ٢٧٠٫٠٠٠ فدان وتحد شرقا بفرع رشيد وجنوبا بجزء من ترعة الحاجر وقد قطعت هذه المنطقة بكثير من الترع الرئيسية مثل ترعة الحاجر والنوبارية كما يحدها شمالا ترعة المحمودية . وتبدو هذه المنطقة فقيرة فى نظام الصرف اذ لاتعتمد الا على مصرف رئيسى واحد هو مصرف ادكو وهى فى حاجة ماسة الى شبكة من المصارف الفرعية التى تتصل بمصرف ادكو .

١ ـ **منطقة طلمبات غرب الدلتا** ـ وهـذه منطقة واسعة تحـد جنوبا بشرق بمنطقة مصرف ادكو ، وشرقا بفرع رشيد وشمالا بساحل البحر الابيض وجنوبا بترعة النوبارية . ويعتمد القسم الشرقى من هذه المنطقة على مصرف ادكو الرئيسى الذى يحمل مياه الصرف الى بحيرة ادكو . ويمتاز هذا المصرف بمحطتين للصرف تساعدان على تحسين الصرف ، أحدهما وهى محطة زرقون تقع على منتصف هذا المصرف أما الثانية وهى محطة حلق الجمل فتقع قرب مصبه وتساعد على نقل مياه الصرف الى البحيرة .

اما القسم الغربى من هذه المنطقة فيعتمد على مصرف العموم الذى يصب فى بحيرة مريوط والذى يتصل بجانبه الايسر كل من مصرف شرشابه ومصرف النوبارية وقد ساعدت هذه المصارف الثلاثة الكبيرة على تحسين الصرف فى هذا القسم وتعمل محطة المكس على رفع مياه هذه المصارف من البحيرة الى البحر الابيض وتحتاج هذه المنطقة الى التوسع فى نظام الصرف حتى يسهل تحويل الاطراف الشمالية الى اراض زراعية جيدة .

ارتفاع مستوى الماء الباطنى وضعف التربة

كانت معظم اراضى الدلتـا حتى أوائل هـذا القرن من أغنى اراضى مصر واخصبها حتى عمها نظام الرى بالراحة تخفيفا للمجهود البشرى : ولـكن لم يتبع انتشار نظام الرى بالراحة نظام دقيق للصرف مما ادى الى رفع مستوى الماء الباطنى فى كثير من المناطق ولا سيما النطاق الشمالى للدلتا (١) . ولقـد ساعدت هذه المياه الباطنية على تخفيض درجة حرارة باطن الارض والحـاق الضرر بكثير من الغلات ولا سيما القطن (٢) .

ازاء هذه المشكلة أخذت وزارة الاشـغال تهتم بسياسة حفر المصـارف الرئيسية والفرعية . ولكن يشك فى امكان صرف جميع الماء الزائد من باطن الارض بواسطة انتشار المصارف على اختـلاف انواعها مع السخاء فى نظـام الرى وتوزيع الماء .

---

(١) محمد عزيز فكرى ـ اصـلاح الاراضى فى الوجه البحرى (من نشرات الجمعية الزراعية الملكية سنة ١٩٢٠) ص ٣٩ ـ ٤٨ .

(٢) ا ـ حسين كامل سليم **Twenty Years of Agricultural Development in Egypt, (1919-1939), p. 13 & 14.**

ب ـ ماكنزى تيلور ـ تاثير الرى على درجة حرارة الارض (وزارة الزراعة ـ النشرة الفنية رقم ٣٥ ، تعريب محمود مرعى) ص ١٧ .

كذلك يلاحظ أن المصارف التى سيحفرها الزراع فى حقولهم ستكون صغيرة قد لايتجاوز عمقها ٥٠ أو ٧٠ سنتيمترا ، فاذا انتشرت هذه المصارف واستمر نظام الرى كما هو فى الوقت الحاضر فمعنى هذا أن يبقى مستوى الماء الباطنى فى حقول الزراع الى عمق ٥٠ أو ٧٠ سنتيمترا من السطح . وقد ثبت أن وجود الماء الارضى الى هذا المستوى القريب من السطح يساعد على احداث تغييرات كيماوية يعقبها تغير فى طبيعة التربة وضعفها (١) ، واذا كانت وزارة الاشغال قد اخذت تسير على سياسة تعميق مصارفها العامة الى مترين ونصف ، فان المصارف الخاصة لاتزال على أعماقها القديمة ، فالفلاح لايرغب كثيرا فى تعميق مصرفه لان هذا يكلفه تضحية جزء من ارضه الزراعية، ومن الصعب اكراه الفلاح الرقيق الحال على تعميق مصارفه الخاصة لان مثل هذا العمل قد يعجزه بسبب كثرة تكاليفه ونفقاته .

ويتضح من هذه الاعتراضات السابقة أن الاعتماد الكلى على المصارف وحدها لايحل مشكلة ارتفاع مستوى الماء الباطنى مادام نظام الترع الحالية يقضى بأن الماء يجرى فيها على مستوى عالى يمكن الاهالى من الرى بالراحة . وقد اظهرت التجارب عدم التناسب بين سرعة تدهور خصوبة التربة وبين كفاءة عمليات الصرف (٢) . ومن خير الامثلة وادى الطميلات ومساحته ٢٠٫٠٠٠ فدان اذ تحول جزء منه الى أراضى ملحية بسبب انخفاضه عن مستوى ترعة الاسماعيلية ، وعلى الرغم من وجود المصارف منذ نحو نصف قرن فان عملية استصلاحه ورد ارضه الى خصوبتها القديمة ما زالت فى مراحلها الاولى .

السياسة المائية

ان خير حل لمشكلة الماء الباطنى ان يتجه الراى الى انشاء نوع من التوازن بين نظامى الرى والصرف . لذلك يجب أن نوجه العناية الى وضع سياسة شاملة مستقرة للسير عليها فى كل مايتعلق بشئون الرى والصرف . وتعتمد هذه السياسة الشاملة على الاسس الهامة الاتية :ـ

---

(١) الدكتور يوسف ميلاد ـ « فى مشروعات الرى والصرف » ص ٣٤٧ـ ٣٥٣ ، من ابحاث المؤتمر الزراعى الاول سنة ١٩٣٦ ، قسم الزراعة العامة .

(٢) Mosseri V. : *Le Drainage en Egypte. Bulletin de l'Institut d'Egypte, 1909, p. 104.*

١ ـ **مشروعات الرى المستقبلة** ـ يجب أن يراعى فى هذه المشروعات أن تكون الترع عميقة بحيث يكون مستوى الاراضى الزراعى اعلى من مستوى الماء فى الترع بما لايقل عن متر ونصف متر فى زمن الفيضان . وان هذا المبدأ سيؤدى الى تخفيض مستوى الماء الارضى الى عمق متر ونصف على الاقل وهو عمق يسمح بنمو معظم الغلات النباتية بنجاح كما ان فيه خير وقاية لخصوبة التربة . وسيشجع مثل هذا المشروع الاهتمام باستخدام الآلات الرافعة التى ستعلم الزراع الاقتصاد فى استهلاك المياه . كما أن العناية بزيادة السواقى ستؤدى الى زيادة محسوسة فى تربية المواشى وهذا مظهر هام من مظاهر التقدم الاقتصادى .

ولاشك أن سياسة انشاء الترع العميقة ستؤدى الى اقتصاد كبير فى نفقات الصرف الحالية ، كما سيترتب عليها تأخير ظهور تلف التربة الى سنوات كثيرة ويكون من الميسور العمل على تلافيه . هذا فضلا عن ان هذه الترع العميقة ستكون ضيقة ومساحتها صغيرة فلن تكلف الدولة كثيرا فى نزع الملكية ولن يحتاج الامر الى اقامة القناطر الكبيرة كالتى تبنى الان بنفقات باهظة ولن تحتاج عمليات الرى الى عدد كبير من الحواجز والسدود التى تبنى على مجارى الترع الحالية لحجز مياهها ورفعها لمستوى الرى بالراحة .

٢ ـ **فى نظام الرى الحالى** ـ انه من الصعب تغيير نظام الترع الحالية المرتفعة المنسوب وابدالها بترع عميقة منخفضة المنسوب اذ أن هذا العمل يتطلب خفض القناطر الحالية . غير انه لوقاية الاراضى الواقعة على جانبى هذه الترع يمكن ان تحفر مصارف موازية لها يتراوح عمقها بين مترين ومترين ونصف على طول امتداد الاراضى التى لحقها الضرر ، ويؤدى هذا الى خفض مستوى الماء الباطنى تدريجيا (١) . ولقد تأثرت بعض اراضى جنوب الدلتا بارتفاع مستوى الماء الباطنى مما ادى الى ظهور بعض بقاع ملحية وشدة

---

(١) يحسن الرجوع الى ـ ا ـ ماكنزى تيلور ، تأثير الرى على درجة حرارة الارض . (وزارة الزراعة ـ النشرة الفنية رقم ٣٥ ـ تعريب محمود مرعى) ص ١٧ وما بعدها .

ب ـ Willcocks : *Egyptian Irrigation, vol. 2, p. 449-518.*

جـ ـ Mosseri V. : *Le Drainage en Egypte. Bulletin de l'Institut d'Egypte 1909, p. 104.*

د ـ دكتور يوسف ميلاد ـ فى مشروعات الرى والصرف (أبحاث المؤتمر الزراعى الاول ١٩٣٦ قسم الزراعة العامة ص ٣٤٧ ـ ٣٥٣) .

تماسك ذرات التربة ، ومثل هذه الاراضى فى حاجة ماسة الى اصلاح سريع حتى يعود اليها ما اشتهرت به من خصب قديم (٢) .

٣ ــ **نظام الصرف** ــ يتجه الاهتمام الى تعميق المصارف الرئيسية الى مترين ونصف متر عن سطح الارض المجاورة وكذلك تعميق المصارف الحقلية، والاهتمام الى تعميق المصارف المغطاة والمصارف الحقلية ، وذلك حتى ينخفض مستوى الماء الباطنى بحيث تصبح الارض صالحة للزراعة ولا سيما فى المناطق التى تأثرت كثيرا بالمياه الارضية .

وقد بدأت وزارة الاشغال منذ أوائل سنة ١٩٤٢ تسير على هذه السياسة وقد تم تعميق بعض المصارف الرئيسية فى الدلتا كمصرف بحر البقر فى شرق الدلتا ومصرف سبل الرئيسى فى المنوفية ومصرف الغربية الرئيسى فى الغربية كذلك بدأت الهيئات المسئولة منذ أوائل سنة ١٩٤٣ فى تنفيذ مشروع المصارف المغطاة . ولوحظ البدء أولا بالمناطق المحتاجة الى الصرف والتى تمتاز بظاهرة الملكيات القزمية والصغيرة وشدة كثافة السكان . وفقا لهذه الاعتبارات نفذ هذا المشروع فى اجزاء مبعثرة فى الدلتا مثل مركز منوف والمنطقة التى تقع الى الغرب من مدينة طنطا (١) .

ويتكون المصرف المغطى من انابيب فخارية يبلغ طول الانبوبة منها قدم واحد وقطرها بوصتان وتوضع متلاصقة على عمق مترين او متر ونصف من سطح الارض المجاورة . ويبلغ طول المصرف المغطى مائة متر فى المتوسط ، كما تبلغ المسافة بين كل مصرف وآخر حوالى سبعين مترا . وتتصل هذه المصارف المغطاة بمصرف مغطى رئيسى يصل بدوره الى أقرب مصرف مكشوف وبهذه الطريقة تصرف المنطقة صرفا منظما دون ان يستغل اى جزء منها فى عملية الصرف . ويبدو ان هذا نظام ملائم للمالك الصغير اذ يصبح فى مقدرته ان يستغل كل أرضه . وهكذا تحمل هذه الطريقة تأمينا لنظام الصرف فلا يتعرض المزارع الصغير لهذه المصارف بالردم أو التخريب . وقد يبدو أن

---

(٢) شاهد الكاتب بعض أراضى المنوفية مثل منطقة شنوان وغرب تلا وقد تأثرت بارتفاع مستوى الماء الباطنى مما أدى الى ظهور بعض بقاع ملحية (راجع : محمد حسن ــ بعض مظاهر الحياة الاقتصادية لمديرية المنوفية ص ٦٠ رسالة الماجستير سنة ١٩٤٥) .

(٢) يحسن الرجوع الى تقرير وزارة الاشغال عن المصارف المغطاة لسنتى ١٩٤٤و١٩٤٩ (هذه التقارير من محفوظات تفتيش رى ومشروعات وسط الدلتا) .

نظام المصارف المغطاة يتطلب بذل نفقات أكثر من استخدام نظام الصرف العادى ولكن ما يتضمنه من المزايا يعوض هذه النفقات .

٤ ــ **تعريض الجسور وتقويتها** ــ تعتبر الدلتا من اشد جهات القطر تأثرا بالفيضانات العالية وذلك لكثرة ترعها وفروعها ومنذ أن ادخل نظام الرى الدائم فى القرن الماضى حدث نحو خمسة عشرة فيضانا خطيرا تسبب عنها حدوث خسائر جسيمة اذ اغرقت بعض الاراضى وظهرت آثار الرشح على شكل برك ومستنقعات فى جهات كثيرة وتأثرت التربة الطينية الثقيلة لانها أشد انواع التربة احتفاظا بالماء الباطنى ، وادى هذا الى ضعف محصول القطن والى ظهور الاملاح الضارة على سطح الارض . ويعتبر فيضان سنة ١٩٣٨ من اخطر الفيضانات التى حدثت اذ وصل ارتفاع المياه وفق مقياس الروضة الى ٢٤ ذراعا ١١ اصبعا (١) . لهذا اهتمت وزارة الاشغال بتقوية الجسور حتى تحمى الزراعات الصيفية من خطر الفيضانات . ويرجع تاريخ هذا الاهتمام بتقوية الجسور الى عهد محمد على الذى فرض على كل مديرية ان تجمع رجالها لحماية جسورها أثناء الفيضان كما يبدو من الجدول الاتى : ــ

وقد كان على كل مركز أن يقدم ربع رجاله بين سن ١٥و٥٠ سنة كل ٤٥ يوما للعمل فى تقوية الجسور وان يستمر العمل على هذا النحو اثناء فترة الفيضان . واستمر نظام السخرة هذا نافذا فيما يتخص بمراقبة الجسور وتقويتها حتى سنة ١٩٣٧ اذ الغى نهائيا واصبحت مراقبة الجسور وتقويتها تؤدى نظير أجور محدودة .

---

(١) قسم مقياس الروضة حسب النظام الاتى : ــ ١ ــ من الذراع الاول الى الذراع ١٦ كل ذراع = ٥٤ سم وكل أصبع = ٢ ١/٤ سم .

ب ــ من الذراع ١٧ الى الذراع ٢٢ كل ذراع = ٢٧ سم وكل اصبع = ١ ١/٨ سم . جـ) ما بعد الذراع ٢٢ يتبع المقياس النظام الاول .

راجع امين سامى باشا ــ تقويم النيل ، ص ٢٥ وما بعدها من الجزء الاول ، القاهرة ١٩٢٨

نوع الفيضان	منسوب المياه	نوع الفيضان	منسوب المياه
فيضان منخفض	من ١٨ ــ ٢٠ ذراعا	فيضان عال	من ٢٢ ــ ٢٤ ذراعا
« متوسط	« ٢٠ ــ ٢٢ «	« خطر	اكثر من ٢٤

المديرية	متوسط الانفار التى كانت تعمل فى اعمال الرى سنويا	متوسط مجموع رجال كل مديرية	المديرية	متوسط الانفار التى كانت تعمل فى اعمال الرى سنويا	متوسط مجموع رجال كل مديرية
الشرقية	٤٨ر٠٢٠	٩٦ر٠٤١	المنوفية	٢٦ر٠٧٣	٨٦ر٠٢١
الدقهلية	١٨ر٢٧٧	٦٨ر٢٧٧	البحيرة	١٨ر٥١٧	٥٥ر٥٥٢
الغربية	٨٣ر٦٧٧	١٦٧ر٣٥٤	القليوبية	٤٣ر٦٠٨	١٣ر٨٢٥ (١)

ولتوفير هذه الاموال اتجهت وزارة الاشغال الى الاهتمام بتقوية جسور النيل وتهذيب مجراه ، وذلك أن تكون التقوية على اساس متين وليست مجرد تكويم احجار وطين على جانبى النيل (٢) . ولاشك أن مثل هذا المشروع سيكلف الدولة نحو اربعة ملايين من الجنيهات ولكنه سيوفر لها بعد ذلك نحو ١٥٠ر٠٠٠ جنيه سنويا كانت تنفق على أعمال التقوية للجسور والسهر عليها، هذا فضلا عن حفظ الزراعات الصيفية من الفيضانات العالية .

وهناك مشروع آخر يتلخص فى تصريف مياه الفيضان العالى فى منخفض الريان اذ ان مجرد تقوية جسور النيل لايمنع خطر الفيضان الخطير الذى يهدد القطر يوما ما كما سبق ان هدده من قبل . لذلك كان لابد من التفكير فى التخلص من مياه الفيضانات الخطيرة وربما كان مشروع منخفض الريان يمثل الحل الطبيعى المنشود للتخلص من مياه الفيضان العالى الخطير . وتبلغ مساحة هذا المنخفض حوالى سبعمائة كيلو متر مربع ، ويفصله عن منخفض الفيوم حاجز من الحجر الجيرى يبلغ متوسط عرضه خمس عشرة كيلو مترا. وهذا المنخفض الذى يقع الى جنوب غرب الفيوم محاط بسلسلة من التلال متوسط عرضها ستة كيلو مترات ومتوسط ارتفاعها عن سطح البحر فى معظم جهاتها حوالى ستة وثلاثون مترا . اما المنخفض نفسه فينخفض عن مستوى سطح البحر بنحو اثنين واربعين مترا فى اعمق اجزائه (٣) .

(١) Linant de Bellefonds : *Memoires sur les Principaux Travaux d'Utilité Publique.*

ص ٤٥١ ومابعدها ، كذلك الفصل الرابع من ص ٣٤١ ــ ٣٨١

(٢) Hussein Sirry : *La Defense contre les Hautes Crues du Nil (Bulletin de l'Institut de l'Egypte, T. 20, session 1937—1938, p. 183—189.*

(٣) ا ــ الدكتور محمد عوض محمد ــ نهر النيل ص ١٣١

ب ــ زكريا محمد بسيونى ــ مشروع وادى الريان ص ٩٨ (مجلة المهندسين) تصدرها نقابة المهن الهندسية عدد سبتمبر واكتوبر ١٩٤٩) .

ويقترح حفر قناة من بلدة ببا على النيل حتى المنخفض ، وقدر طولها بنحو ٤٦ كيلو مترا ، ومتوسط انحدارها ١ : ٢٠٫٠٠٠ وعندما يصل مستوى مياه الخزان الى ٢٧ مترا فوق سطح البحر ، سيصل مقدار المخزون فيه الى نحو ١٨٫٥٦٦٫٧٦٠٫٠٠٠ متر مكعب (١) . ويمكن الاستفادة بالمياه مابين مستوى ٢٥ مترا و٢٧ مترا ، أى بمقدار ١٫٢٦٣٫٩٢٠٫٠٠٠ متر مكعب أو مايعادل ١٢٫٦٣٩٫٢٠٠ متر مكعب فى اليوم . هذا القدر من المياه سيعمل على تحسين نظام المناوبات الصيفية سيقضى على مشكلة خطيرة من مشكلات الرى الدائم فى الدلتا اذ أن سوء المناوبات الصيفية كثيرا ما أدى ويؤدى الى متاعب كثيرة وجرائم عديدة .

وسيكون متوسط تصريف القناة فى النيل فى فصل الصيف نحو ١٢٫٠٠٠٫٠٠٠ متر مكعب فى اليوم . ولما كان متوسط تصريف النيل فى الصيف عند القاهرة هو ٣٤٫٠٠٠٫٠٠٠ متر مكعب فى اليوم ، فاذا اضفنا اليها ١٠٫٠٠٠٫٠٠٠ متر مكعب من منخفض الريان فسيصل متوسط التصريف فى القاهرة فى الصيف الى ٤٤٫٠٠٠٫٠٠٠ متر مكعب فى اليوم وهذه توزع على النحو التالى : ــ

البحيرة ــ ٨ مليون متر مكعب فى اليوم .

المنوفية والغربية والفؤادية ــ ١٦ مليون متر مكعب فى اليوم

الدقهلية والشرقية والقليوبية ــ ٢٠ مليون متر مكعب فى اليوم (٢) .

وهذا الخزان لايؤثر على اراضى الفيوم لاتساع الحاجز المتين بين المنخفضين ، كما أن املاح المنخفض القليلة لاتؤثر تأثيرا يذكر فى مياه المنخفض المخزونة اذ ثبت أن نسبة الاملاح ضعيفة (٣) . هذا ويرى البعض ضرورة الاحتفاظ بأراضى الحياض الباقية حتى تكون هى ايضا منفذا للتخلص من الفيضانات العالية الخطيرة ، وتبلغ مساحة اراضى الحياض ٩٤٧٫٤٤٤ فدان (٤) .

---

(١) Willcocks : *Egyptian Irrigation, P. 689*

(٢) تقرير وزارة الاشغال ، قسم الخزانات ، عن مشروع وادى الريان سنة ١٩٤٤ (وهو من محفوظات القسم) .

(٣) زكريا محمد بسيونى ، مشروع وادى الريان ص ١١٠ وما بعدها (مجلة المهندسين التى تصدرها نقابة المهن الهندسية ، عدد سبتمبر واكتوبر سنة ١٩٤٩) .

(٤) الاحصاء السنوى العام سنة ١٩٤٥ ــ طبعة القاهرة سنة ١٩٤٨ ص ٣٠٣

هذه هى اسس السياسة المائيــة الحديثة التى تتبعها وزارة الاشــغال وتنفذها تدريجيا . ويجــدر ان يتبع تنفيذ هــذه السياسة الاهتمام الكبير بتشجيع دورة زراعية علمية يكون من اهم أغراضها اطالة فترة الشراقى حتى تستريح التربة وتتخلص من بعض مائها الباطنى . وتنتشر فى الدلتــا دورة ثنائية من ابرز عيوبها أن فترة الشراقى قصيرة قلما تعطى الارض الفرصــة المناسبة للراحة والاستجمام . كما ان هذه الفترة القصيرة من الشراقى لاتظهر الا فى السنة الثانية من الدورة كما يبدو ذلك من التوزيع الاتى (١) :ــ

نوع المحصول	المــدة
قطن	من فبراير الى اكتوبر
قمح او برسيم	من نوفمبر الى مايو
شراقى	من مايو الى يوليه
ذرة	من اغسطس الى نوفمبر
برسيم	من نوفمبر الى ديسمبر

من هذا الجدول يتضح انه من الافضل أن تستخدم وتشجع دورة ثلاثية كما يوضحها الجدول الاتى :ــ

السـنة	المــدة	المحصــول
السنة الاولى	من نوفمبر الى مارس	برسيم
	من ابريل الى اكتوبر	قطن
السنة الثانية	من نوفمبر الى مايو	خضر
	من مايو الى نوفمبر	شراقى
السنة الثالثة	من نوفمبر الى مارس	حبوب شتوية
	من ابريل الى يونيه	شراقى
	من يونيه الى أكتوبر	ذرة

فلهذه الدورة الثلاثية مزايا عديدة يمكن ان تلخص فيما ياتى :ــ

(١) جلال فهيم ــ دورة زراعة القطــن فى مصر ــ من مجلة الفــلاحة ص ٢٩٩ ــ ٣١٣ ، العدد الرابع ــ يوليه واغسطس سنة ١٩٣٧ .

١ ـ تبلغ مساحة الحاصلات البقولية فى الدورة الثلاثية ثلث المساحة الاجمالية بينما تبلغ الربع او اقل فى الدورة الثنائية ، ولاشك ان للحاصلات البقولية اثر كبير فى زيادة الازوت فى التربة . وزيادة مساحتها فى الدورة الثلاثية معناه زيادة خصب التربة من هذا العنصر الهام .

٢ ـ تخلو الارض عادة من الحاصلات الشتوية فى شهر مايو : وتبقى خالية من الزرع بعض الوقت ، ونظرا لشدة الحرارة فى هذا الوقت يحدث بالتربة شقوق متسعة تفيد كثيرا فى تهوية التربة . ولا شك ان هذه الحرارة التى تتخلل التربة تعيد اليها نشاطها . ولما كانت مساحة الحاصلات الشتوية فى الدورة الثلاثية أكبر منها فى الدورة الثنائية فان مساحة الشراقى تكون فى الدورة الثلاثية أكبر تبعا لذلك فتعظم الفائدة .

٣ ـ يلاحظ أن القطن يحتاج الى تكرار الرى فى شهور الصيف الحارة ، ولاشك ان ازدياد مساحته فى الدورة الثنائية يكون من اسباب عجز الماء صيفا مما يؤثر على الاخص فى الزراعات الواقعة عند نهايات الترع . فاذا اتبعت الدورة الثلاثية امكن التوفيق بين حاجة القطن وكميات الماء التى تستطيع الترع توزيعها بانتظام وذلك يزيد فى محصول الفدان من القطن وقد يؤدى فى الوقت نفسه الى تحسين التيلة .

٤ ـ تؤثر الريات المتوالية فى ارتفاع منسوب الماء الباطنى مما يؤثر فى نمو النبات . ولا شك أن اطالة فترات الشراقى كما هو الحال فى الدورة الثلاثية تساعد على تخفيض مستوى الماء الباطنى وسهولة الصرف .

٥ ـ تمتاز الدورة الثلاثية بزيادة مساحة مايزرع من حاصلات العلف مما يساعد على نمو الثروة الحيوانية ومما يتبعه من زيادة فى كميات الاسمدة. ولاشك أن لكل هذا قيمته الخاصة فى تقوية التربة وفى تعويض بعض العناصر التى تفقدها .

هذه هى أهم مزايا الدورة الثلاثية التى اذا انتشرت ستساعد كثيرا على حفظ التربة من التدهور . وان الامل عظيم فى أن تتخلص تربة الدلتا من مشكلاتها المختلفة اذا نفذت هذه السياسة المائية التى درسها الاخصائيون دراسة وافية .

المديريات	الاتساع عند المصب بالمتر	طول المصارف				طول الترع			
		صالحة للملاحة		غير صالحة للملاحة		صالحة للملاحة		غير صالحة للملاحة	
		١٩٤٥	١٩٤٤	١٩٤٥	١٩٤٤	١٩٤٥	١٩٤٤	١٩٤٥	١٩٤٤
مديريات الوجه البحرى									
البحيرة	٥ متر فأقل	—	—	١ر٠٠٨	١ر٠١٧	—	—	٩٤٤	١ر٠٥٥
	أكثر من ٥ـ ١٠ متر	—	—	٢٢٤	٣٥٣	—	—	٢٢٥	٣١٣
	أكثر من ١٠ متر	—	—	١٥٠	٤٦	١٦٨	١٤٢	٤٥٣	٢٣٢
	الجملة	—	—	١ر٣٨٢	١ر٤١٦	١٦٨	١٤٢	١ر٦٢٢	١ر٦٠٠
الغربيــــة	٥ متر فأقل	—	—	١ر٥٤٨	١ر٧٠١	٩	—	١ر٦٣١	١ر٩٢١
	أكثر من ٥ـ ١٠ متر	٢	١٤	٣٥٧	٣٩٨	٤٧	١٠١	٤١٦	٥٣٦
	أكثر من ١٠ متر	٨٣	٧٤	١٩٨	١٧٤	١٧٦	٢٦٢	٣٢٢	٢١٨
	الجملة	٨٥	٨٨	٢ر١٠٣	٢ر٢٧٣	٢٣٢	٣٦٣	٢ر٣٦٩	٢ر٦٧٥
الدقهلية	٥ متر فأقل	—	—	١ر٢٩٥	١ر١٣٠	—	—	١ر٤٧١	١ر٢٨٨
	أكثر من ٥ـ ١٠ متر	٢٨	٣٩	١٥٣	١٠٩	٢٠	٦٣	٢٩٧	٢٦٠
	أكثر من ١٠ متر	٨٠	٥٣	٣١	٣١	١٤٢	٦٨	٧٦	١٠١
	الجملة	١٠٨	٩٢	١ر٤٧٩	١ر٢٧٠	١٦٢	١٣١	١ر٨٤٤	١ر٦٤٩

الشرقيــة	٥ متر فاقل	—	—	٨٧٤	٨٧١	—	—	١ر٤٥٧	١ر٣٩٤
	أكثر من ٥ـ١٠ متر	٤٦	٤٦	٢٠٩	١٩٥	٦٣	٦٣	٣١١	٣٢٩
	أكثر من ١٠ متر	١٤٤	١٤٤	١٥	٣٩	١٠٦	١٨٠	٥٢	٦٤
	الجملة	١٩٠	١٩٠	١ر٠٩٨	١ر١٠٥	١٦٩	٢٤٣	١ر٨٢٠	١ر٧٨٧
المنوفيــة	٥ متر فاقل	—	—	٣٩٢	٤١١	—	—	٧٥٢	٧٦٤
	أكثر من ٥ـ١٠ متر	—	—	٧٨	٧٨	—	—	٣١٤	٣١٤
	أكثر من ١٠ متر	—	—	٣	٣	١٤٦	١٤٦	٢٢٤	٢٢٤
	الجملة	—	—	٤٧٣	٤٩٢	١٤٦	١٤٦	١ر٢٩٠	١ر٣٠٢
القليوبيــة	٥ متر فاقل	—	—	٣٨٢	٣٨٢	—	—	٦١٩	٦١١
	أكثر من ٥ـ١٠ متر	—	—	٧	٧	—	—	١٢٢	١٢٢
	أكثر من ١٠ متر	—	—	—	—	٨٦	٨١	٧٧	٧٧
	الجملة	—	—	٣٨٩	٣٨٩	٨٦	٨١	٨١٨	١١٠
الجمــلة	٥ متر فاقل	—	—	٥ر٤٩٩	٥ر٥١٢	٩	—	٦ر٨٧٤	٧ر٠٢٣
	أكثر من ٥ـ١٠ متر	٧٦	٩٩	١ر٠٢٨	١ر١٤٠	١٣٠	٢٢٧	١ر٦٨٥	١ر٨٧٤
	أكثر من ١٠ متر	٣٠٧	٢٧١	٣٩٧	٢٩٣	٨٢٤	٨٧٩	١ر٢٠٤	٩١٦
	الجملة	٣٨٣	٣٧٠	٦ر٩٢٤	٦ر٩٤٥	٩٦٣	١ر٠٦٦	٩ر٧٦٣	٩ر٨٢٣

مصلحة الاحصاء والتعداد ، الاحصاء السنوى العام (١٩٤٥ ـ ١٩٤٤) صفحة ٣٠٤ طبعة القاهرة ١٩٤٨

الترع الرئيسية فى شرق الدلتا

اسم الترعة	الطول بالكيلو متر	الزمام المنزرع بالفدان
الاسماعيلية	١٢٨ر٥٠٠	١٧٧٠٠٠
الشرقاوية	٨٤ر٠٠٠	٢١١١٠٠
الباسوسية	٢٤ر٢٥٠	٧٣٥٠٠
الرياح التوفيقى	٣٧ر٠٠٠	٤٠٤٠٠٠
ابو المنجا	١٨ر٩٠٠	٦٧٠٠٠
المنصورية	٤٣ر —	٣٤٢٢٠٠
البحر الصغير	٦٣ر —	١٢١٩٠٠
بحر طناح	٢٣ر —	٧٦٦٠٠
البوهية	٤٩ر —	١١٧٢٠٠

الترع الرئيسية فى وسط الدلتا

اسم الترعة	انطول بالكيلومتو	الزمام الذى ترويه فى المنوفية بالفدان	الزمام الذى ترويه فى الغربية بالفدان
رياح المنوفية	٢٩ر٠٦٠	٥٠٠٠	—
بحر شبين	١٨٦	١٠٦٠٠	١٦٥٠٠
الترعة الباجورية	٩٠ر٠٤٠	١٦٥٠٠	١٠٥٠٠
الترعة النعناعية	٩٢ر٨٠٠	٥٤٦٠٠	٩٧٠٠
التعة السرساوية	٣١ر٢٣٠	٣١١٠٠	—
ترعة العطف	٤٦ر٥٨٠	٢٩٣٠٠	٩٠٠٠
ترعة الخضراوية	٣٧ر٢٦٠	٢٤٧٠٠	٩٦٠٠
ترعة الساحل	٣٧ر٦٣٠	٢٢ر٥٠٠	١١ر٣٠٠
ترعة البتانونية	٤٧ر١٧٠	٥٦ر١٠٠	٣١ر١٠٠
ترعة النجايل	١٠ر٩٤٠	٣١ر٠٠٠	—
ترعة القاصد	٧٢ر٠٦٠	٢٠٠٠	٢٢ر٥٠٠

نقلا عن تفتيش رى قسم ثان (وزارة الاشغال سنة ١٩٤٦)

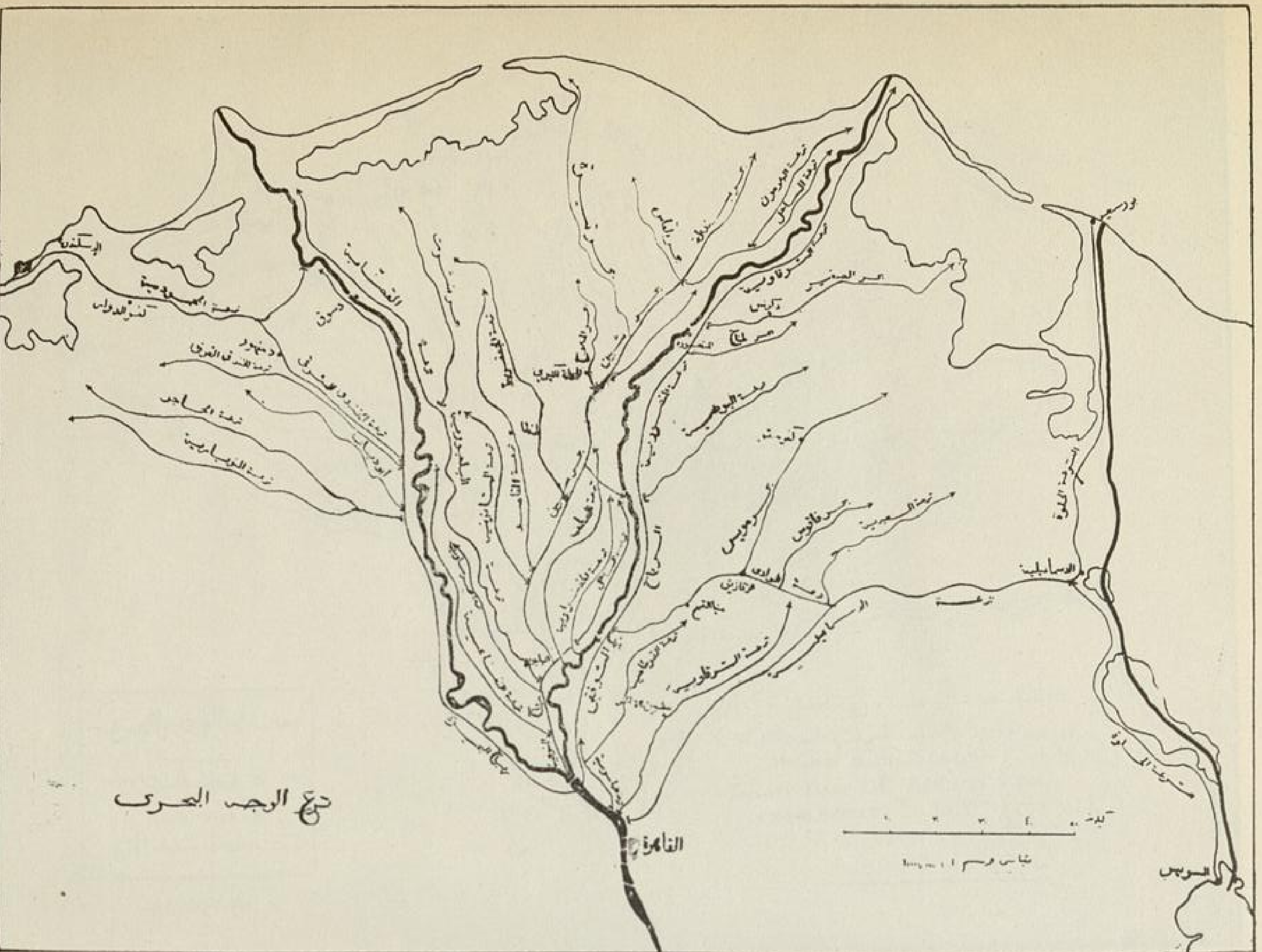
الترع الرئيسية فى غرب الدلتا

اسم الترعة	الطول بالكيلومتر	الزمام المنزرع بالفدان
رياح البحيرة	٩٤٫٨٥٠	٧٢٣٥٠٠
النوبارية	٨١٫٢٠٠	١٧٠٥٠٠
الحاجر	٦٨٫٠١٠	٦٤١٠٠
أبو دياب	٣٦٫١٦٠	٤٥٨٠٠
الخندق الغربى	٣٣٫٤٠٠	٥٨٩٠٠
الخندق الشرقى	٤٣٫٤٤٠	٣٧٩٠٠
ساحل مرقص	٥٤٫٤٠٠	١٠٥٠٠٠
المحمودية	٧٧٫١٧٠	٢٤٧٠٠٠

نقلا عن تفتيش رى القسم الثالث (وزارة الاشغال سنة ١٩٤٦)

نخ الدلتا في عهد محمد على باشا

J. BAROIS: LES IRRIGATIONS EN EGYPTE. (PARIS 1911). P. 146



نقلا عن خرائط مشروعات ري الدلتا ١/ ١٠٠٫٠٠٠ – عمل وزارة الأشغال «قسم المشروعات سنة ١٩٣٣ – سنة ١٩٥٠»



مصارف الوجه البحري
محطات الصرف الموجودة
محطات الري
المصارف ---- الترع ——
محطات الصرف المقترحة
HUSSEIN KAMEL SELIM
TWENTY YEARS OF AGRICULTURAL
DEVELOPMENT IN EGYPT (1919-1939)
P. 57-58-59

المراجع العربية

١ ــ **أحمد محمود** ــ الاسمدة الفسفاتية ، من نشرات الجمعية الزراعية الملكية قسم الكيمياء ، سنة ١٩٣٤ .

٢ ــ **أحمد محمود** ــ التسميد الازوتى والفوسفاتى وزراعة القطن ، من نشرات الجمعية الزراعية الملكية ، قسم الكيمياء سنة ١٩٣٧ .

٣ ــ **أحمد محمود** ــ تسميد القطن ، من ص ٧٥ ــ ٩٦ من أبحاث المؤتمر الزراعى الاول سنة ١٩٣٦ .

٤ ــ **أحمد راغب** ــ مشروع قناطر محمد على ، القاهرة سنة ١٩٣٦ .

٥ ــ **الجمعية الزراعية الملكية** ــ نشرة عن الاراضى القلوية وطرق علاجها سنة ١٩٣٦ وسنة ١٩٤٥ .

٦ ــ **الجمعية الزراعية الملكية** ــ الاسمدة وتسميد الحاصلات المصرية ، قسم الكيمياء سنة ١٩٣٥ .

٧ ــ **أمين سامى** ــ تقويم النيل وعصر محمد على ، من ص ١٩٥ ــ ٥٨٤، الجزء الثانى ، القاهرة سنة ١٩٢٨ .

٨ ــ **أمين فكرى** ــ الصرف وعلاقته بصحة النباتات ، ص ١٧ــ٢٧ ، من ابحاث المؤتمر الزراعى الاول سنة ١٩٣٦ ، جزء الافات والامراض .

٩ ــ **جلال فهيم** ــ دورة زراعة القطن فى مصر من ص ٢٩٩ ــ ٣١٣ من مجلة الفلاحة ، العدد الرابع يوليه واغسطس ١٩٢٧ .

١٠ ــ **جيمس ارثر برسكوت** ــ السباخ البلدى فى مصر ، من نشرات الجمعية الزراعية السلطانية ، تعريب محمد عزيز فكرى .

١١ ــ **حسن زكى** ــ القناطر الخيرية ، من الوجهة التاريخية من ص ٤٣ــ٥٩ الكتاب السنوى السابع للمجمع المصرى للثقافة العلمية سنة ١٩٣٦ .

١٢ ــ **حسين سرى** ــ علم الرى ، الجزء الاول والجزء الثانى ــ القاهرة سنة ١٩٣٣ .

١٣ ــ **حسين سرى** ــ الرى فى مصر ، القاهرة سنة ١٩٣٧ .

١٤ ــ **حسين سرى** ــ السياسة المائية فى مصر ، القاهرة سنة ١٩٣٥ .

١٥ ــ **زكريا محمد بسيونى** ــ مشروع وادى الريان ص ٩٧ مجلة المهندسين ــ تصدرها نقابة المهن الهندسية ، عدد سبتمبر ــ اكتوبر ١٩٤٩ .

١٦ ــ **عبد العزيز أحمد** ــ مشروع طلمبات صرف اراضى منطقة شمال الدلتا ، من ص ١٢ــ١٧ من أبحاث المؤتمر الزراعى الاول سنة ١٩٣٦ ، جزء الزراعة العامة .

١٧ ــ **عثمان اباظه** ــ اصلاح الاراضى البور وكيفية توزيعها ، من ص ٣١ــ٤٢ من أبحاث المؤتمر الزراعى الاول سنة ١٩٣٦ قسم الزراعة العامة .

١٨ ــ **محمد عوض محمد** ــ نهر النيل ، القاهرة سنة ١٩٣٠ .

١٩ ــ **مصلحة الاحصاء** ــ الاحصاء السنوى العام من سنة ١٩٠٠ــ١٩٤٨

٢٠ ــ **مصلحة الاحصاء** ــ الاحصاء السنوى للجيب ، سنوات ١٩٤١ و١٩٤٢و١٩٤٨ .

٢١ ــ **نجيب ابراهيم** ــ تقدم الرى والصرف فى القطر المصرى من ص ٣ــ١١ من أبحاث المؤتمر الزراعى الاول سنة ١٩٣٦ جزء الزراعة العامة .

٢٢ ــ **وزارة الاشغال** ــ التقارير السنوية لوزارة الاشغال من سنة ١٩٣٠ ــ ١٩٤٩ .

٢٣ ــ **وزارة التجارة والصناعة** ــ الاسمدة الكيماوية ، صحيفة التجارة والصناعة ــ ابريل سنة ١٩٣٢ من ص ٦٤٩ر٦٥٥

٢٤ ــ **يوسف ميلاد** ــ فى مشروعات الرى والصرف ــ من ص ٣٤٧ــ٣٥٥ من أبحاث المؤتمر الزراعى الاول سنة ١٩٣٦ جزء الزراعة العامة .

---

25 — Audebau C.H. : *Les eaux souterraines de l'Egypte, extrait des Annales des ponts et Chaussées, 1931, T,4,*

26 — Daressy G. : *Les branches du Nil sous la 18ème. Dynastie — Bulletin de la Soc. Royale de Géographie, T. 17, 2ème serie, p.p. 81—115.*

27 — Davis Gracie : *The nature of soil deterioration in Egypt — Ministry of Agriculture technical scientific service, Bulletin No. 148, 1934.*

28 — Elephteri Xilimas : *Le Nil, son limon et la terre Egyptienne — Le Caire, 1936.*

29 — Fourtau R. : *Contributions à l'étude des depôts nilotiques — Mémoires présentés à l'Institut Egyptien, T. 8, 1915 p.p. 58 — 94.*

30 — Hume W.F. : *The nitrate shales of Egypt — Bulletin de l'Institut d'Egypte. T, 8., 1915, pp. 145 — 169.*

31 — Hussein Kamel Selim : *Twenty years of Agricultural development in Egypt, 1919 — 1939. Cairo, 1940.*

32 — Hussein Sirry. : *La defence cour les hautes crues du Nil. T. 20, session, 1937 — 1938. pp. 183 — 189, Bulletin de l'Institut d'Egypte.*

33 — Hussein Sirry : *Irrigation devlopment — Egypt to-day, third edition, 1938, pp. 87—89.*

34 — Ismail Sirry : *Aperçu historique sur les travaux d'irrigation et de navigation en Egypt — Le Caire, 1926.*

35 — John Atkinson : *Hand book of Egyption Irrigation, part I, 1934.*

36 — Jpllien Barois : *Les irrigations en Egypte, Paris, 1911.*

37 — Linant de Bellefonds: *Memoires sur les principaux travaux d'utilité publique en Egypte — Paris 1873.*

38 — Lozach J. : *Le Delta du Nil, étude de géographie humain e — Le Caire, 1935.*

39 — Machenzie Taylor : *The Effect of sharaqui period upon the yield of coton in Egypt. Ministry of Agriculture leaflet, No. 57, 1926.*

40 — Ministry of Agriculture : *The nature of soil deterioration in Egypt — Technical Bulletin, No. 3386.*

41 — Mosseri V. : *Le drainage en Egypte — Bulletin de l'Institut, 1909, pp. 104 — 115.*

42 — Mosseri V. : *Du Rôle des crevasses du sol dans les dessalement et l'assainissement permanent des terre d'Egypte.*

43 — Moseri V. : *La fertilité de l'Egypte. Congrès de Géographie, 1925, T. IV, pp. 135 — 168.*

44 — Omar Tousson: *La géographie de l'Egypte à l'époque arabe. T. 1, La Basse Egypte, Trois parties, le Caire 1927.*

45 —Omar Tousson : *Les Anciennes Branches du Nil, Tome 1, époque ancienne, Tome 2, époque arabe, Le Caire, 1922.*

46 — Pellet H. : *Composition du sol Egyptien — Bulletin de l'Institut d'Egypte, T. 1. Roche R. 1907 pp. 93 — 99.*

47 — Roche M. : *Impotance de l'étude phisique des sols — Bulletin de l'Insitut d'Egypte serie 5 T. 2, 1908 pp. 47 — 54.*

48 —Roche M. : *Essai d'étude des propriétés phisiques des terres de la Haute Egypte. Bulletin de l'Institut d'Egypte) T. 2, 1908, pp. 55 — 67.*

49 — Willcocks, Craig, : *Egyptian Irrigation, 2 vols., London. 1913.*

50 — Willcocks Craig : *The Nile Projects, Cairo 1919.*

الدين والدولة فى عهد النبى

للدكتور محمد عبد المعز نصر

— ١ —

لقد كتب الكثيرون من الكتاب والمفكرين فى مشارق الارض ومغاربها عن الاسلام . ولكن مجال الكتابة عنه لايزال واسعا أمام المفكرين فى الحاضر والمستقبل . ذلك لان كل جيل يفسره فى ضوء تجربته الخاصة . وهانحن فى عصرنا الحاضر الذى امتاز بثورة اجتماعية فرقت المجتمع الدولى الى معسكرين شرقى وغربى ، بل فرقت المجتمعات المحلية ذاتها الى طبقات يدين بعضها بمذهب الشرق والآخر بمذهب الغرب ، نرى الاسلام يعاد تفسيره تارة لمصلحة الغرب واخرى لمصلحة الشرق ، كما نرى بعض ابناء المسلمين يتحمسون له حماسة تجعلهم يعدونه نظاما قائما بذاته لاهو بالشرقى ولا هو بالغربى وانما هو قوة متفردة يطمحون الى بعثها من جديد لينقذوا بها انفسهم وبلادهم مما يحيط بها من عوامل الاضطراب العالمى والمحلى .

وليس من غرضنا فى هذا المقال ان نعالج التفسيرات السياسية الحديثة للاسلام وانما نشير الى بعض اتجاهاتها كى نبين الاهمية الجوهرية لمثل هذا الموضوع فى مثل البقعة التى نعيش فيها من العالم . فالباحث الهندى « الشيخ مشير حسين قدوائى » فى كتابه : "Pan-Islamism and Bolshevism" فهو يرى فى الاسلام شيوعية أسبق واسمى من شيوعية البلاشفة فى روسيا ، فهو دعوة الى « توحيدالله ، واخوة الانسان ، ورفعة البشرية الاخلاقية والروحية وانقاذها الاقتصادى ، والتقدم العقلى والمادى والحرية السياسية لكافة الامم وكافة الشعوب ، والغاء الملكية الخاصة والاستغلال والظلم والاستعباد فى كل مكان وفى جميع العصور » (١) ومن الطريف ان نرى شيخا آخر من شيوخ الاسلام المصريين حين يسأله مندوب من ممثلى المعسكر الغربى عن وجهة نظر الاسلام من الشيوعية يعطينا تفسيرا مناقضا لتفسير الشيخ الهندى . فصاحب الفضيلة الشيخ عبد المجيد سليم حين كان شيخا للجامع الازهر قال « ان الاسلام واق من الشيوعية بما حوى من مبادىء خطيرة فى تشريعاته ، لاتجعل

(١) جريدة المصرى عددى ٢٧ مايو سنة ١٩٥١ و١٥ يوليه سنة ١٩٥١

للشيوعية وغيرها من الدعوات المتطرفة طريقا الى قلوب الناس ، فهو يأمر بالتضامن والتكافل الاجتماعى الى ابعد مدى يتصوره الانسان . ولكنه فى الوقت نفسه لا يتعرض للملكيات ولا يحد منها . بل يفرض على هذه الملكيات للدولة من الحقوق المالية ما يراه كفيلا بقيام بيت المال او وزارة المالية لرعاية مصالح الدولة وحقوق الشعب » (١) ولقد ترجم عبد الرحمن عزام الامين العام للجامعة العربية هذا الراى الذى يمثله قول الشيخ عبد المجيد سليم الى لغة السياسة الدولية التطبيقية حين صرح فى اللحظة التى كان يسعى اثناءها وزير خارجية مصر ، الدكتور محمد صلاح الدين ، للحصول على تأييد روسيا لمطالب مصر القومية ، ببيانه فى باريس عن الاسلام والشيوعية اذ قال : « ان الاسلام كان دائما حاجزا منيعا دون تطرق السلافيين نحو الجنوب . » ثم قال « وسنبقى مخلصين لديننا واعداء ثابتين للشيوعية » (٢) .

وان كان راى شيخ الجامع الازهر السابق وراى الامين العام السابق للجامعة العربية هما رايى رجلين يشغلان منصبين رسميين ، فهنالك من الآراء مايعبر فى مصر ذاتها عن وجهة نظر متطرفة فى فهم الاسلام والدولة . وهذا التطرف يميل تارة الى اليسار وتارة اخرى الى اليمين . ويبدو هذا الاتجاه واضحا اذا ما اطلعنا على كتابى « من هنا . نبدأ » (٣) و « من هنا نعلم » (٤) ونحن لانريد ان نتتبع تحليل الادب السياسى الاسلامى المعاصر فى هذا المقام ، اذ غاية مانبتغى من هذه المقدمة لبحثنا فى الدين والدولة اثناء عهد النبى هى توجيه النظر الى مثل هذا البحث فى بلاد ظهر فيها «الاخوان المسلمون » واحست احساسا مباشرا بقيام دولتى « الباكستان » و « اسرائيل » (٥) على اساس لايعرف الفصل بين الدين والدولة .

— ب —

فبعض الحركات الاسلامية المعاصرة اخذت تنظر الى الوراء لتعرف كيف تسير الى الامام . وذلك بعد ان تبين للعالم كله ان النظر الى الامام فحسب لم

---

(٢) جريدة الاهرام عدد ٢٧ نوفمبر سنة ١٩٥١

(٣) خالد محمد خالد — من هنا . . . نبدأ

القاهرة ١٩٥٠ (الطبعة الرابعة)

(٤) محمد الغزالى — من هنا نعلم — القاهرة ١٩٥٠

(٥) Joseph Dunner —*The Republic of Israel, Its history and promise.* *New York, Whittlesey House.*

بعد ذلك الحلم الوضاء الذى تمثل فيه مفكرو الثورة الفرنسية نعم الهادى للبشر الى بلوغ الفردوس على الارض . فالعالم لايسير فى تقدم مطرد نحو الكمال كما شاع بين المفكرين فى يوم من الايام ، بل يتعرض الآن لخطر العودة الى عصور التوحش والهمجية . ومن ثم يعكف بعض المسلمين الآن خاصة فى الباكستان وفى مصر على التنقيب فى تجربتهم التاريخيـة علهم يجدون فيها بذور الصلاح والوضوح لحياة مضطربة مبهمة . وفلسفتهم فى ذلك قائمة على ان الفرد منا اقدر على الافادة من تجربته الخاصة منه على الافادة من تجربة جاره . وكذلك الشعوب . فالشعب الاسلامى يستطيع أن يدرك من ضروب القوة فى المجتمع الاسلامى الاول ما قد لايستطيع ادراكه فى حياة المجتمعات الاخرى قديمها وحديثها .

ونحن نقتصر هنا على ان نعرض لثلاثة مبادىء سياسيـة تتجلى فى نشأة الدولة العربية اثناء عهد الرسول . وتطابق الى حد بعيد على التتالى ثلاث فترات نرى تقسيم عهد الرسول اليها :ــ

(١) العشر سنين الاولى من البعثة وهى فترة تكوين الجماعة الاسلاميـة فى مكة ،

(٢) والثلاث سنين التى تعقبها وهى فترة تأسيس دولة المدينة ،

(٣) ثم العشر سنين التى تتم بها بعثة الرسول وحياته وهى فترة تكوين الدولة العربية القومية .

وهذه المبادىء الثلاث هى :

(١) مبدا الوحدة الاجتماعية (٢) ومبدا المسئولية السياسية والاجتماعية (٣) ومبدا القوة .

(١)

امامبدا الوحدة الاجتماعية ، فيبدو قويا اخاذا مع ظهور الدعوة الاسلامية . ويسير فعله فى بطء بادىء الامر ولكن يسير سيرا وثيقا اكيدا . اذ اخذ المؤمنون بالدين الجديد فى مكة يقتربون بعضهم من بعض ويكونون جماعة مترابطة بأواصر الاسلام ترابطا تكاد تختفى حلقاته وتندمج ذراته فيصبح وحدة تامة ، ان تميز افرادها فتميز اعضاء الجسم الواحد . وما ان تكونت الجماعة الاسلامية الاولى من افراد يسهل احصاؤهم عدا على الاصابع حتى وضعت نواة المجتمع الاسلامى ونواة الدولة الاسلامية فى آن واحد . فرأينا ان المجتمع

الجديد لا يعتمد فى بنيانه على الاعداد المتراصة من البشر بل على العقول المتشابهة فى التفكير والارواح المتحدة فى الشعور ، وانه لا يستمد حياته من النشاط الذى اعتاد مزاولته العرب قبل الاسلام ، بل يستمدها من ينبوع الدين الجديد الذى ينسج عقول اتباعه وارواحهم فى نسيج متماسك متجاوب . لقد قفز المجتمع الاسلامى قفزة مباشرة الى الوجود لانه اكتسب وحدة سريعة عن طريق الوحدة العقلية التى امتاز بها المسلمون والتى كانت الاساس المكين للمجتمع الاسلامى . ومن ثم تؤيد نشأة الجماعة الاسلامية وظروف تكوينها راى المفكرين السياسيين الذين يعالجون شئون المجتمع معالجة سيكلوجية فيعرفون المجتمع بانه ترابط عقلى بين الافراد قبل ان يكون جوارا محليا او تعاقدا اجتماعيا فحسب . (١)

ولقد كان هذا الترابط العقلى بين اعضاء الجماعة الاسلامية الاولى ، العامل الاول الذى جعلهم قوة منشقة على المجتمع المكى يخشى خطرها على نظام مكة المستتب سياسيا واجتماعيا واقتصاديا . فالدين الاسلامى لم يدع الناس جميعا الى عبادة اله واحد والى تحطيم آلهة العرب من الاوثان مقتصرا بذلك على شئون الروح فحسب ، بل مست دعوته شئون الحياة ونظامها كذلك (٢) . ولهذا راى المشركون من اهل مكة ان ثورة الاسلام الروحية لابد من أن تترجم الى ثورة اجتماعية . فهو دين يخالف معتقداتهم التى ورثوها عن آبائهم ويتحدى فى الوقت نفسه نظمهم الاجتماعية التى تستند الى هذه المعتقدات . ولذا لم يسعهم الا ان يحاربوه . ولو فعلوا غير ذلك لعجبنا منهم . اذ ليس آلم للنفس من تقبل فكرة جديدة كما يقول والتر باجت (Walter Bagehot) (٣) ، والانسان جبل على مقاومة كل ما يهدد صالحه واضطهاد ما يخالفه . ولقد تأيدت مخاوف قريش على معتقداتها ومجتمعها . فالمجتمع الاسلامى الاول قد تكون من الابناء والآباء والاخوة والامهات والزوجات ، وتكون من الفقراء والاغنياء ، والضعفاء والاقوياء ، وتوحد بوحدة الايمان بالله ووحدة الاعتقاد بمبادىء الاسلام السامية .

واول ما تقابل هذا المجتمع الموحد نقابله فى مشاهد المحنة التى

---

(١) 1. — Aristotle : *Politics (Book III)*.

(٢) 2. — Walter Bagehot : *Physics and Politics*.
T. W. Arnold — *The Preaching of Islam (Chapter II)*. *London, Luzac and Company, 1935*.

(٣) Walter Bagehot : *Physics and Politics P. 106*.
(in Works Vol. VIII edited by Mrs. Barrington).

كانت ولا تزال مواقف الاختبار لمبلغ تماسك المجتمعات وسلامة تكوينها . فاضطهاد قريش لاتباع الدين الجديد ممن لاحول لهم فى دفع العدوان المتزايد يوما بعد يوم اضطر النبى الى ان يشير عليهم باختيار حل سلبى — الا وهو الهجرة الى الحبشة التماسا لحمى النجاشى (٤) . وهذا اول حدث انفصالى من نوعه فى مكة . فما كان من المكيين الا ان ارسلوا فى اثرهم سفيرين — عبدالله بن ابى ربيعة وعمرو بن العاص بن وايل — يحملان الهدايا الى النجاشى وبطارقته ليسلم المسلمين اليهما ويردهم عن جواره وبلاده الى موطنهم الاصلى حيث يلقون جزاءهم على ما فعلوا . وهنالك امام محكمة النجاشى تسمع فى وضوح راى كل من الفريقين فى الآخر . وابعد من ذلك فاننا نكشف الاسس التى قام عليها المجتمع الاسلامى ، ونتبين صورة مقارنة بين النظام الاجتماعى القديم والحديث . فسفيرا قريش يقولان عن اللاجئين المسلمين :

» أيها الملك انه قد ضوى الى بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا فى دينك وجاءوا بدين ابتدعوه لانعرفه نحن ولا انت وقد بعثنا اليك فيهم اشراف قومهم من آبائهم واعمامهم وعشايرهم لتردهم اليهم فهم اعلى بهم عينا واعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه . «

اما عن اللاجئين المسلمين فقد ناب عنهم فى التحدث الى النجاشى « جعفر بن ابى طالب » فقال له :

« أيها الملك كنا قوما اهل جاهلية نعبد الاصنام ونأكل الميتة ونأتى الفواحش ونقطع الارحام ونسىء الجوار ويأكل القوى منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله الينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وامانته وعفافه فدعانا الى الله لنوحده ونعبده ونخلع ماكنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والاوثان وامرنا بصدق الحديث واداء الامانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور واكل مال اليتيم وقذف المحصنات وامرنا بالصلاة والزكاة والصيام ... فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ماجاء به من الله فعبدنا الله وحده لانشرك به شيئا وحرمنا ما حرم علينا واحللنا ما احل لنا فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا الى عبادة الاوثان من عبادة الله وان نستحل ماكنا نستحل من الخبائث فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا الى بلادك واخترناك على من سواك ورغبنا فى جوارك ورجونا ان لانظلم عندك ايها الملك . »

(٤) السيرة النبوية لابن هشام (حـ ١ ذكر المهاجرة الاولى الى ارض الحبشة)

ومن هذا الحوار الذى يروى على لسان المهاجرين يظهر جليا ان المسلمين منذ البدء كانوا لايشعرون بتماسك جماعتهم فحسب ، بل يشعرون ايضا ان هذا التماسك قائم على مبادىء روحية واجتماعية ارقى من المبادىء التى يستند اليها المجتمع المكى . ويكفى أن نبرز من القول المنسوب الى المهاجرين اشارتهم الى ان فى المجتمع المكى كان « يأكل القوى الضعيف » حتى ندرك مدى اعتزاز المسلم بمجتمعه الذى اصبح ينتسب اليه ، ومدى استمساكه ببقائه مهما جلب عليه ذلك من صنوف الارهاب والتعذيب ، بل كان الاضطهاد فى ذاته سببا سلبيا اضيف الى الاسباب الايجابية التى جعلته يفنى فناء تاما فى النظام الاسلامى الروحى والاجتماعى .

— ٢ —

وان كان مبدا الوحدة الاجتماعية بين المسلمين هو المبدأ السياسى الاول الذى نلاحظ فعله فى تكون الجماعة الاسلامية أثناء العشر سنين الاولى من البعثة ، فذلك لانه يمهد الى فعل المبدا الثانى وهو مبدا المسئولية السياسية والاجتماعية . فلقد ظهر مبدا المسئولية السياسية والاجتماعية ظهورا ميز الدولة الاسلامية فى — ١ — فترة التحضير لقيامها عن طريق المفاوضة والتعاقد مع اهل يثرب — ٢ — وفترة التنظيم بعد تأسيسها فعلا فى المدينة .

١ — اما فترة المفاوضة بين النبى وبين من لقيهم فى مواسم الحج من الأوس والخزرج من اهل يثرب ، فقد انتهت كما نعلم ببيعتى العقبة الاولى والثانية . اذ اجتمعت كل الظروف المواتية التى تجعل من يثرب دولة المدينة الاسلامية الاولى . فأهلها من قبائل الأوس والخزرج كانوا فى صراع دائم مستمر كان آخر أيامه يوم بعاث الذى قتل فيه غالب رؤسائهم ولم يبق الا عبد الله بن ابى بن سلول من الخزرج وابو عامر الراهب من الاوس . ولذلك كانت عائشة تقول « كان يوم بعاث يوما قدمه الله لرسول الله صلى الله عليه وسلم . » (١) ولقد خلق هذا الصراع جوا لايطاق من الخوف المستمر من الموت يذكرنا بجو الحياة البدائية المتوحشة الذى يصفه « توماس هبز » (Thomas Hobbes) (٢) ويفترض دفعه الافراد الى تولية حاكم من بينهم يتنازلون له مختارين عن سلطانهم وحريتهم فى سبيل ضمان الامن والحياة لهم . وانا لنلاحظ فى الظروف التاريخية لنشأة دولة المدينة تشابها بينها وبين ظروف نشأة الدولة الافتراضية

---

(١) محمد الخضرى — نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين ص ١٠٠ طبعة رابعة ، ١٣٢٧ هـ

(٢) Thomas Hobbes — *Levisthan.*

عند « هبز » ، والتى تقوم فى رايه على العقد الاجتماعى . فما أن دعا سيدنا محمد من قابلهم من اهل يثرب الى اعتناق الدين الجديد والى منعه من اعتداء قريش حتى وجدوا فى هذه الدعوة فرصة نادرة لان يكونوا الانصار للنبى الذى بشر اليهود فى يثرب بمقدمه ، وليحصلوا على زعيم دينى وسياسى يعيد الى بلدهم الهدوء والاطمئنان بعد ان عجزوا عن الاتفاق على الخضوع لزعيم من بينهم . وان كان هنالك من يرى انهم كانوا على وشك تعيين عبد الله بن ابى بن سلول الا ان استاذنا عبد الحميد العبادى يذهب الى انه لم « تكن هناك رغبة صادقة فى تمليكه » (١)

ويهمنا فى هذا المقام أن نلفت النظر خاصة الى بيعة العقبة الثانية ، فهى الميثاق الفعلى لقيام دولة المدينة . اذ فوق كونها معاهدة على الايمان بالله ورسوله، فهى معاهدة سياسية عسكرية ، تضمنت فى نصوصها مبدأ المسئولية المشتركة بين صاحب الرسالة الاسلامية وبين انصاره من الخزرج والأوس . ولقد حرص الطرفان على تأكيد هذه المسئولية بين الحاكم والمحكوم . فشروط الدعوة والايمان فى هذه المعاهدة لم تقتصر على مجال الفكر والقول ، بل تعدته الى مجال العمل والتنفيذ . فالنبى صلى الله عليه وسلم لم يطلب الى المسلم من يثرب ان يؤمن بقلبه وان يعلن ايمانه فحسب ، بل طلب اليه أن يمنعه بسيفه من اعتداء المعتدين منعه لذويه من النساء والبنين . كما ان مسلمى يثرب احتاطوا للامر بدورهم بان طلبوا الى الرسول الا يهجرهم عند بلوغه النصر وان يدافع عنهم ضد اعدائهم من اليهود وغير اليهود دفاعهم عنه ضد أعدائه . فقبل كل منهما ماطلب اليه الآخر . ويروى لنا « ابن اسحاق » تفاصيل هذه المعاهدة على لسان كعب وهو من وفد الانصار فيقول :

« قمنا تلك الليلة مع قومنا فى رحالنا حتى اذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله صلعم نتسلل تسلل القطا مستخفين حتى اجتمعنا فى الشعب عند العقبة ونحن ثلاثة وسبعون رجلا ومعنا امرأتان من نسائنا نسيبه بنت كعب أم عماره احدى نساء بنى مازن بن النجار واسماء بنت عمرو ابن عدى بن نابى احدى نساء بنى سلمه وهى أم منيع قال فاجتمعنا فى الشعب ننتظر رسول الله حتى جاءنا ومعه عمه العباس بن عبد المطلب وهو يومئذ على دين قومه الا انه احب ان يحضر امر ابن اخيه ويتوثق له . فلما جلس كان اول من تكلم العباس بن عبد المطلب فقال يامعشر الخزرج . . . ان محمدامنا حيث

---

(١) عبد الحميد العبادى ــ صور من التاريخ الاسلامى ــ العصر العربى ص ٤٤ الاسكندرية ١٩٤٨

قد علمتم وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل راينا فيه . . . وهو فى عز من قومه ومنعة فى بلده وانه قد أبى الا الانحياز اليكم واللحوق بكم فان كنتم ترون انكم وافون له فيما دعوتموه اليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك وان كنتم ترون انكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به اليكم فمن الآن فدعوه فانه فى عز ومنعة من قومه وبلده قال فقلنا له قد سمعنا ما قلت فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما احببت قال فتكلم رسول الله صلعم فتلا القرآن ودعا الى الله ورغب فى الاسلام ثم قال ابايعكم على ان تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وابناءكم قال فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال . . نعم والذى بعثك بالحق نبيا لنمنعك مما نمنع منه ازرنا فبايعنا يارسول الله فنحن والله ابناء الحروب وأهل الحلقة ورثناها كابرا عن كابر قال فاعترض القول والبراء يكلم رسول الله صلعم ابو الهيثم بن التيهان فقال يارسول الله ان بيننا وبين الرجال حبالا وانا قاطعوها يعنى اليهود فهل عسيت ان نحن فعلنا ذلك ثم اظهرك الله ان ترجع الى قومك وتدعنا . قال فتبسم رسول الله صلعم ثم قال بل الدم الدم والهدم الهدم انتم منى وانا منكم احارب من حاربتم واسالم من سالمتم (قال ابن هشام ويقال الهدم الهدم يعنى الحرمة بقول حرمتى حرمتكم ودمى دمكم) . » (١)

٢ — ولكن هذه المسئولية السياسية التى تعاقد عليها النبى والانصار من اهل يثرب لا تمتد جذورها الى مصدر العقد الاجتماعى فحسب ، بل وجدت فى الواقع ارضا خصبة فى تعاليم الدين الاسلامى ذاته وفى منهج تنفيذها على يدى سيدنا محمد . اذ لم يهاجر سيدنا محمد واتباعه الى يثرب حتى اعلن بكتابه الدستورى المشهور الذى نشره بين المهاجرين والانصار واليهود قيام الامة الاسلامية وتفردها بين كافة الامم . فهو يقول :

« هذا كتاب من محمد النبى بين المؤمنين والمسلمين من قريش (واهل) يثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم ، أنهم امة واحدة من دون الناس » (٢)

وفى اللحظة التى اعلن فيها قيام الامة الاسلامية ، اعلن ايضا اشتمالها فى دولة المدينة الاسلامية التى تنظم شئونها الداخلية والخارجية وتصون وجودها.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (أمر العقبة الثانية حـ ٢ ص ٨٤)

(٢) محمد حميد الله الحيدر آبادى — مجموعة الوثائق السياسية فى العهد النبوى والخلافة الرشيدة ص ١ القاهرة — لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٩

ولقد فصل هذا الكتاب الدستورى مبادىء الحكم فى الدولة الجديدة . واهم ما يلفت انظارنا نحن الذين نعيش فى عهود الاشتراكية وشيوع الخدمة الاجتماعية ، ان دولة المدينة لم تكن دولة بوليسية تحفظ لمن عنده ما عنده من حياة ومال فحسب ، بل قررت فى وضوح تام مبادىء المسئولية السياسية والاجتماعية .

ولقد اتخذ الضمان الاجتماعى شكلين يسيران جنبا الى جنب ويكمل بعضهما بعضا . فهنالك ضمان قبلى داخل كل قبيلة او طائفة فالمهاجرون من قريش ، وقبائل الاوس والخزرج ، مسئول كل منها عن افرادها فى سرائها وضرائها « فهم على ربعتهم يتعاقلون بينهم وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين » والنظام الاسلامى فى هذا يقرر تقليدا عربيا سابقا ، وذلك لان كل قبيلة كانت بحكم عصبيتها مسئولة عن سلوك افرادها فى الخير والشر ، فى النصر والقهر ، فى الفدية والثأر .

اما الجديد فى مبدا المسئولية السياسية والاجتماعية ، الذى اضافه الاسلام الى نظم العرب ، فهو التسامى عن اتخاذ مبدا العصبية القبلية مقررا وحده لعلاقات العرب ، واستغراقه فى مبدأ اوسع واعم وهو مبدأ الاخوة فى الدين . فأعضاء الامة الاسلامية الجديدة لم يعودوا قبائل متفرقة كما كانوا من قبل ، بل اصبحوا مواطنين فى الدولة الاسلامية ، لايتقرر حق مواطنتهم بالميلاد او الشرف أو الدم بل يتقرر بالاشتراك فى الايمان والجهاد فى سبيله . ومن ثم كانت الدولة الاسلامية مسئولة عن مواطنيها كافة . فيقرر النبى :

« ان المؤمنين لايتركون مفرحا بينهم أن يعطوه بالمعروف فى فداء او عقل »

« وأن المؤمنين المتقين (أيديهم) على (كل) من بغى منهم او ابتغى دسيعة ظلم أو اثما أو عدوانا أو فسادا بين المؤمنين وان أيديهم عليه جميعا ولو كان ولد أحدهم . »

« وان سلم المؤمنين واحدة لايسالم مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله الا على سواء وعدل بينهم . »

« وان المؤمنين يبىء بعضهم عن بعض بما نال دماءهم فى سبيل الله . »

ويقرر النبى فى كتابه الدستورى ، غير ذلك من القرارات التى تنبعث جميعا عن فكرة واحدة ، فكرة الاخوة والمساواة الفعلية بين المسلمين . والنبى لاينشر هذه القرارات على الناس ويتركها لاختيارهم يتبعونها أو يهجرونها كما يشاءون ، بل يعلن ان الامر فى تنفيذها قد آل اليه وحده ، فهو صاحب السيادة الاوحد الذى يقضى باسم الله فيما يشتجر من خلاف بين المؤمنين .

ولذا نرى أن المسئولية السياسية والاجتماعية بين المواطنين فى دولة المدينة قد ضمنتها سيادة الدولة وسلطانها ، القائم على أحكام الدين والذى يشمل برعايته كل من يستظل به حتى من غير المسلمين طالما يرعون نواميسه .

(٣)

اما المبدأ الثالث وهو مبدأ القوة فيظهر فى المرحلة الثالثة وهى مرحلة جديرة بالاهتمام لان اسلوب الجماعة الاسلامية قد اتخذ طابع القوة المادية الى جانب القوة الروحية . ففى العهد المكى من الدعوة لم يكن فى وسع سيدنا محمد الا ان يلجأ لوسائل سلمية أمام اضطهاد قريش ، فيقبل الهجرة لاتباعه الى الحبشة ، ويقبل الحصار الاقتصادى والاجتماعى مع بنى هاشم وبنى المطلب الذى فرضته قريش فى صحيفتها المعروفة . اما وقد اسس دولة المدينة واصبح المجتمع الاسلامى الجديد قوة تستطيع ان تقف على قدميها فى وجه العدو ، فلا حاجة اذن الى مقابلة الاذى بالحلم ومقابلة عدم التسامح بالرضا . فالعنف والقوة ترد بالقوة . وتقرر هذا الاتجاه الجديد بوحى من عند الله فى كتابه المقدس . اذا امر الله نبيه بالقتال دفاعا لا اعتداء .

وان قتال المشركين والدفاع عن دولة المسلمين الجديدة بالسيف قد عرف بين المسلمين بالغزو وعرفت المواقع المشهورة بين المسلمين والمشركين بالغزوات . وكلنا يعرف غزوات بدر واحد والاحزاب (الخندق) والحديبية وفتح مكة وحنين والطائف وغيرها . فالغزو اذن اصبح سلاحا من أسلحة بناء الدولة العربية الاسلامية والمحافظة عليها . ولقد كان أسلوبا حاسما فى بناء الدولة الاسلامية . ويلاحظ المطلع على تاريخ هذه الغزوات أنها كانت سجالا عنيفا بين الطرفين ملئت صفحته بالدموع والدماء ، وملئت بآلام انسانية ابعد من هذه الآلام وذلك لان العقيدة الجديدة كثيرا مافرقت بين الاب وابنه والاخ واخيه والام وابنها . فالمهاجرون الى يثرب لم يكونوا سوى قطع من قلوب قريش ودمائها . ورغم كل هذه المحن التى ابتلى بها الفريقان لم يكونا ليستقرا على شىء سوى ابتغاء النصر الاخير . اذ ليس بينهما من وسط للطريق يلتقيان فيه . فليس بين التوحيد والشرك وسط ، وليس بين دولة الاسلام ودولة قريش من التقاء سوى الفناء أو التسليم . وكانت النتيجة ان سلمت دولة قريش وان دخلت فى دولة الاسلام العامة تحت لواء الدولة العربية الجديدة . وما كان تسليمها الا نتيجة الهزيمة فى الميدان ، ولقد تبعتها القبائل العربية المشهورة مثل ثقيف وهوازن بعد أن غلبت على امرها امام قوة سيدنا محمد التى ما كانت لتقهر قهرا جزئيا الا لتنتصر انتصارا عاما . فسيف الاسلام كان الفيصل النهائى فى قيام الدولة العربية القومية .

مامعنى هذا فى نشأة الدولة العربية ؟ ان صلة الغزو بقيام الدولة العربية يذكرنا فى هذه المرحلة من مراحل تكوينها بما ذهب اليه دعاة مذهب القوة فى نشأة الدولة خاصة «جمبلوفتس» (Gumplowicz) وتلميذه «أوبنهيمر» (Oppenheimer) من « أن الدولة أثناء المراحل الاولى من تكوينها هى نظام اجتماعى فرضته جماعة منتصرة من الناس على جماعة منهزمة مدفوعة بالغرض الوحيد وهو تنظيم سلطان الجماعة المنتصرة على الجماعة المنهزمة . » ولكن يهمنا أن نسأل فى هذا المقام عن ماهية هذه القوة التى استخدمها المسلمون فى تأسيس دولتهم . اهى قوة مادية وحسب ؟ اهى قوة السيف وحده ؟ أم كان السيف أداة فى يد قوة أعظم منه ، هى القوة المعنوية للجماعة الاسلامية الناشئة؟ ان مثل هذا السؤال يبين لنا أن القوة المادية ما هى الا تعبير لقوة معنوية متفجرة . فالسيف الذى استعمله المسلمون لم يكن من طراز غير الطراز الذى استعمله المشركون . وسيف المسلمين لم يكن كشفا جديدا مثل القنبلة الذرية فى أيامنا يستخدمها قوم ليبيدوا بها قوما آخرين فى طرفة عين ، بل كان الاداة التقليدية للحروب العربية . وانما الكشف الجديد فيما دار من غزوات بين المسلمين والمشركين هو الدين الاسلامى فى بدئه وما اثار من ايمان قوى بين المؤمنين ومن اضطهاد لايقل قوة عن ذلك الايمان . ولقد كانت الغلبة آخر الامر للايمان على الانكار والكفر . ولقد كان السيف فى يد المؤمن أفعل منه فى يد الكافر . لماذا ؟

ان ذلك يرجع الى أن الدين الاسلامى كان ثورة روحية واجتماعية ، ولقد هزت هذه الثورة نفوس المسلمين هزا عنيفا ، وفى هذه الهزة النفسية خلصوا من كثير من النظم والتقاليد التى كانت تملأ نفوس غيرهم من العرب بالضباب ، وتثقل أرواحهم بأعباء ثقال . فانطلقت نفوس المسلمين من عقالها واصبحت حرة تفيض بالحيوية فى عالم المثل الدينية والاجتماعية الجديدة . واذ تخلص المسلمون من عادات العرب وخرافاتها ومن التقاليد الثقيلة الموروثة تخلصوا فى الوقت نفسه من الخوف من الموت . وكان هذا مصدر قوتهم وتفوقهم على أعدائهم . فالمسلمون كأفراد كانوا يرون ان العيش فى ظل الاسلام عزة فى الدنيا ونعيم فى الآخرة . ولقد جاء الاسلام بنظام يضمن للمسلم اتصال الدنيا بالآخرة ، ويضمن له الحياة المقيمة ، فاستشهاد المسلم فى الجهاد ليس فناء بل بقاء سرمديا . ويبدو ذلك حين نلاحظ ما كان الفريقان المتحاربان يستعملانه من شعار فى الغزوات وما كانا يتخذانه من دوافع لحفز الهمم على القتال ، فالمسلمون حرصوا على ان يلجئوا الى الله فى التماسهم النصر ، اما المشركون فقد التجئوا الى دوافع محسوسة من دوافع الحماسة العربية التقليدية . فيقول ابن اسحق عن مناشدة الرسول ربه النصر فى يوم بدر :

« ثم عدل رسول الله صلى الله عليه وسلم الصفوف ، ورجع الى العريش فدخله ، ومعه أبو بكر الصديق ، ليس معه فيه غيره ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يناشد ربه ما وعده من النصر ، ويقول فيما يقول : اللهم ان تهلك هذه العصابة اليوم لاتعبد وابو بكر يقول يانبى الله : بعض مناشدتك ربك ، فان الله منجز لك ما وعدك . وقد خفق رسول الله صلى الله عليه وسلم خفقة وهو فى العريش ، ثم انتبه فقال : ابشر يا ابا بكر ، أتاك نصر الله . هذا جبريل آخذ بعنان فرس يقوده ، على ثناياه النقع » (١)

وقال ابن اسحق ايضا :

« ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الناس فحرضهم وقال : والذى نفس محمد بيده ، لايقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا ، مقبلا غير مدبر ، الا ادخله الله الجنة . فقال عمير بن الحمام ، اخو بنى سلمه ، وفى يده تمرات يأكلهن : بخ بخ ، افما بينى وبين ان ادخل الجنة الا ان يقتلنى هؤلاء ، ثم قذف التمرات من يده وأخذ سيفه ، فقاتل القوم حتى قتل » (٢)

ويمكننا ان نلمس الفرق بين هذا الدافع الدينى الجديد فى ميدان الحرب وبين غيره من الدوافع الحماسية التى نراها بين الفريق الآخر حين نسمع فى «احد» هندا بنت عتبة وهى تحرض اهل مكة على القتال ، اذ يقول ابن اسحق :

« فلما التقى الناس ، ودنا بعضهم من بعض ، قامت هند بنت عتبة فى النسوة اللاتى معها ، واخذن الدفوف يضربن بها خلف الرجال ويحرضنهم ، فقالت هند فيما تقول :

ويها بنى عبد الدار ويها حماة الادبار
ضربا بكل بتار

وتقول :

ان تقبلوا نعانق ونفرش النمارق
او تدبروا نفارق فراق غير وامق (٢)

ونرى الفرق ايضا حين نشهد فى غزوة « حنين » أن مالك بن عوف النضرى قد ساق مع الناس « اموالهم وابناءهم ونساءهم » ليجعل « خلف كل رجل

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (حـ ٢ ص ٢٧٩)
(٢) السيرة (حـ ٢ ص ٢٧٩)
(٣) السيرة (حـ ٣ ص ٧٢)

منهم أهله وماله ليقاتل عنهم » (١) .

وهكذا نرى ان الاسلام قد اضاف الى الفتوة العربية فى ذلك الوقت عاملا روحيا الهبها وجعلها تؤتى اروع ماتستطيع النفس البشرية فى عالم الشجاعة والتضحية بالنفس . وبذا يصدق ما ذهب اليه « كارليل » (Carlyle) . من أن الجيوش التى تخشى الله هى خير الجيوش ، وما لاحظه « والترباجت » « من أن الناس كانوا يضحكون من كروموبل حين كان يقول لجيوشه ، ثقوا بالله واحفظوا البارود جافا : على حين ان الثقة بالله كانت تعادل البارود فى قوتها ان لم تفقه . وذلك لان التركيز العظيم للشعور المتزن يجعل الناس يجراون على اقتحام اى شىء وفعل أى شىء » (٢) .

ولكن لم يقف أثر الدين الاسلامى فى الجماعة الاسلامية وفى مواطنى الدولة الجديدة عند تزويدهم بالقوة المستمدة من عاملى الخوف من الله وعدم الخوف من الموت ، بل فى الواقع امتد الى ابعد من ذلك . فقد خلق لنا مجتمعا موحدا متماسكا جاءت وحدته وتماسكه نتيجة لاجتماع المسلمين على معتقدات واحدة ومبادىء واحدة وسلوك واحد مما ربط كما ذكرنا بين اذهانهم ونسجها جميعا نسجا موحدا متماسكا جعلهم يفكرون ويسلكون ويعملون فى حياة السلم والحرب كما يفكر الرجل الواحد ويسلك ويعمل . وفوق ذلك فان هذا التوحيد والتماسك بين أفراد المجتمع الاسلامى قد قام — كما ذكرنا ايضا — على مبادىء اخلاقية واجتماعية راقية نبيلة . ومن ثم بلغ أوج القوة المادية والمعنوية بالنسبة لمجتمعات العرب المحيطة التى اعوزها هذا التوحد وهذا التماسك كما أعوزتها المبادىء العالية التى ان استند اليها مجتمع وعمل بها استطاع أن يتغلب على المجتمعات المفككة الضعيفة . وفى هذا نرى تطبيق نظرية « والترباجت » التى ساقها فى كتابه « الطبيعة والسياسة » اذ ذهب الى انه فى التنازع على البقاء بين الناس تغلب الجماعة الفرد ، وتغلب الجماعة المتسقة الجماعة المفككة ، وفى تنازع الجماعات المتسقة تغلب الجماعة الآخذة بمبادىء ارقى وانبل . وفى هذا الصراع بين الجماعات خاصة فى العصور الاولى من تاريخ البشر نشأت الامم وقامت الدول بما فرضه الغالب على المغلوب من اتباع لنظمه وخضوع لسلطانه .

---

(١) السيرة (ح ٤ ص ٨١)

(٢) Walter Bagehot — *Physics and Politics* P. 50

ولكن من الجدير ان نؤكد بعد الحديث عن المبادىء الثلاثة السياسية التى لاحظنا فعلها فى نشوء الدولة العربية القومية انه ماكان فى وسع هذه المبادىء ان تعمل فى الفراغ . وانما اكتسبت حيويتها ونفوذها لا من الناحيــة النظرية العامة بل من ناحية العامل الشخصى الذى جعلها تعيش بين العرب فى حياتهم الخاصة والعامة . ولقد تمثــل هذا العامل الشخصى فى محمد عليه الصــلاة والسلام . ففى تفكيره وفى سلوكه ، وفى قراراته وفى عمله ، كان المثل الحى لما انطوت عليه رسالته السماوية من تنظيم اجتماعى .

فمنذ البدء نشاهد رجلا مصمما على انشاء مجتمعجديد ، وبصيرا بمعالمه ومنهاج بنيانه ، ومدركا للحقيقة العظيمة ان المجتمع الجديد لن يقوم الا على حساب المجتمع القديم . ويبدو هذا الصراع بين نظام يسعى الى الميلاد ونظام يبتغى واد الوليد المتطلع الى الحياة ، من قلق السادة فى قريش على وحــدة مجتمعهم وتوكيدهم الشــكوى بأن محمدا لايحط من قدر آلهتهم وعقولهم فحسب بل يفرق جماعتهم . ولقــد ابانوا له ذلك فى حديث عام معه رجاء عدوله عن دعوته ، متخذين الاقناع وسيلتهم الى ذلك بدل التهديد والوعيد. والحديث الآتى كما يورده ابن هشام يشتمل على هذا الاتهام :

« فقالوا له يامحمد انا قد بعثنا اليك لنكلمك وانا واللهمانعلم رجلا من العرب ادخل على قومه ما ادخلت على قومك لقد شتمت الآباء وعبت الدين وشتمت الآلهــة وسفهت الاحلام وفرقت الجماعة فما بقى أمر قبيح الا قد جئته فيما بيننا وبينك أو كما قالوا فان كنت انما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من اموالنا حتى تكون اكثرنامالا وان كنت انما تطلب به الشرف فينــا فنحن نسودك علينا وان كان هذا الذى يأتيك رئيا تراه قد غلب عليك وكانوا يسمون التــابع من الجن رئيا فربما كان ذلك بذلنا اموالنا فى طلب الطب لك حتى تبرئك منه او نعذر فيك فقال لهم رســول الله صلعم مابى ماتقولون ماجئت بما جئتكم به اطلب اموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ولكن الله بعثنى اليكم رسولا وانزل على كتابا وامرنى ان اكون لكم بشيرا ونذيرا فبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم فان تقبلوا منى ماجئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة وان تردوه على أصبر لامر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم او كما قال صلعم » (١)

(١) الســيرة لابن هشام (ح ١ مادار بين رسول الله صلعم وبين رؤساء قريش)

وفى الواقع أن البون كان شاسعا بين وجهتى نظر الطرفين وما كان لاقناع أو ارهاب أن يفضى بهما الى التقاء اختيارى . وما كان ليهم محمدا أن تتفرق جماعة مكة اذا هى أصرت على مواصلة نطاقها القديم والتمسك بأسسه الوثنية لان محمدا كان يدرك أنه بالدين الاسلامى سيستطيع توحيد هـذا التفرق وخلق جماعة جديدة متماسكة على أسس جديدة ، أقدر على مغالبة الحياة من الاولى ، واقدر على أن تهيىء لمكة سلطانا واسعا يوطد مركزها بين قبائل العرب وغير العرب ويحميها من اخطار الغزو التى كانت تتهددها قبل الاسلام من القبائل المنافسة ومن الحملات الخارجية مثل حملة الفيل المشهورة . فهو من البدء كان شاعرا بأن الدين الذى أوحى اليه لن يكون دين دولة او دينا فى دولة وانما سيكون فى ذاته دولة . ولهـذا حين عاد أشراف مكة الى محاولة اقناعه بترك دعوته ، وجاءوا الى ابى طالب يستعينون به على ذلك عبر محمد عن هذا المطمح العظيم ، وهو فى هذا التعبير يناقض مارآه بعض المحدثين من المفكرين (١) بأن محمدا كان صاحب رسالة ولم يكن صاحب دولة . فابن هشام يقول :

« فبعث اليـه أبو طالب فجاءه فقال يا ابن اخى هؤلاء أشراف قومك قد اجتمعوا ليعطوك وليأخذوا منك قال فقال رسول الله صلعم نعم كلمة واحـدة تعطونيها تملكون بها العرب وتدين لـكم بها العجم قال فقال ابو جهل نعم وابيك وعشر كلمات قال تقولون لا اله الا الله وتخلعون ما تعبدون من دونه قال فصفقوا بأيديهم ثم قالوا أتريد يامحمـد ان تجعل الآلهة الها واحدا ان امركم لعجب قال ثم قال بعضهم لبعض انه والله ما هذا الرجل يعطيكم شيئا مما تريدون فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم حتى يحكم الله بينكم وبينه » (٢) .

ولكن القوم ما كانوا ليعبئوا بما يعدهم محمد من ملك العرب والعجم ، فهم احرص على صيانة سلطانهم الراهن المستتب من ان يجروا وراء تأسيس دولة خيالية . وهم قوم واقعيون يعرفون ماكانوا يجنون من حكمهم لمكة ، والهيمنة على جميع أنواع النشاط المتصلة بعبادة الاوثان ، وولاية مناصب الدولة ووظائفها مثل السدانة والسقاية والرفادة والعقاب والندوة والقيادة والمشورة والاشفاق والاعنة والسفارة والايسار والحكومة والاموال المحجرة والعمارة (٣)

---

(١) على عبد الرازق ـ الاسلام واصول الحكم (الكتاب الثانى ـ الباب الثالث) القاهرة سنة ١٩٢٥ (الطبعة الثانية

(٢) السيرة لابن هشام (حـ ٢ ص ٥٤ ـ ٥٩)

(٣) جورجى زيدان ـ تاريخ التمدن الاسلامى (حـ ١ ص ٢٢ ـ ٢٤) القاهرة ، مطبعة الهلال ، ١٩٥٢

فماكانوا ليتركوا غنما محققا يستمتعون به الى غنم موعود لايتحقق الابهجرانهم ماضيهم وحاضرهم وصالحهم المحسوس . وعلى قدر ما للواقعية من أثر محمود فى توجيه النظم وحياة الافراد والمجتمعات ، الا أنها كثيرا ماتعمى أصحابها عن ادراك ما فى آراء من يسمون ازدراء بالخياليين من خصوبة وما تنطوى عليه من امكانيات الخلق والابداع . فما كان منهم الا ان اتبعوا الاقناع بالتهديد والوعيد، وهم فى ذلك مخلصون لمنطق عقيدتهم وصالحهم الخاص . الا ان المبشر بالدين الجديد والدولة الجديدة لم يكن اقل منهم اخلاصا لعقيدته . فهو اول المؤمنين برسالته وهو اول المؤمنين بتنفيذها ، فلا جدوى من ايمان لايصحبه تنفيذ ، او كما قد كان يقول سقراط ، من معرفة لاترافقها ارادة وفعل ، فالمعرفة الصادقة فى ذاتها ارادة العمل . وتبين شخصية الرسول وما قدر لها من اثر فى تنفيذ الرسالة الاسلامية من رده على عمه ابى طالب حين عظم عليه « فراق قومه وعداوتهم ولم يطب نفسا باسلام رسول الله صلعم ولا خذلانه » اذ قال قوله المشهور « ياعم والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على ان اترك هذا الامر حتى يظهره الله او اهلك فيه ما تركته » (١)

لقد كان محمد اذن اول المؤمنين بالله ، وكان محمد اول المؤمنين ببسط سلطان الله على الارض . ولكن كيف يبسط ذلك السلطان وكيف ينفذ رسالته ؟ ان ذلك العمل الهائل لن يتم الا اذا كان محمد نفسه المثل الحى لرسالته والقدوة المثلى لقومه . ولم يكن ذلك امرا عسيرا على محمد اذ نشأ نشأة اهلته لحمل هذه الامانة العظمى التى ائتمنه عليها ربه . فشخصيته التى تمت جوانبها واكتملت ذاتياتها عند نزول الوحى تجاوبت تجاوبا فعالا والمهمة الجديدة . ولذا لم تكن لدى محمد حاجة الى ان يغير اسلوب سلوكه بعد الرسالة ، فأعماله فى نشر الدين وبناء الدولة ليست سوى امتداد لمنهجه فى حياته الخاصة قبل ذلك . فعبقرية محمد تتجلى فى جمعه المنسجم بين صفات السيد وصفات العامل . اذ جاء من اسرة لها السيادة فورث عنها النبل والشرف ولكنه جاء من فرع لم تجتمع له السيادة الاقتصادية الى جانب السيادة فى الحكم ، فكان عليه منذ الطفولة ان يعمل ليكسب قوته وان يكتشف أثناء جهاده فى سبيل العيش ان السيادة الحقيقية لاتقوم الا على العمل ، وان العمل وحده هو اساس السيادة فى الدولة الجديدة . فراعى الغنم فى الطفولة والعامل فى تجارة خديجة بين مكة والشام فى مقتبل العمر وجد امرا طبيعيا ان يواصل أسلوبه بعد البعثة فيكون بناء فى مسجد المدينة وان يكون جنديا فى غزوات الاسلام . فابن هشام يصف لنا وصول النبى الى المدينة واخذه فى بناء مسجده ومساكنه فيقول :

---

(١) السيرة لابن هشام (حـ ١)

« قال : فأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يبنى مسجداً ، ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم على ابى ايوب حتى بنى مسجده ومساكنه ، فعمل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ليرغب المسلمين فى العمل فيه ، فعمل فيه المهاجرون والانصار . ودابوا فيه ، فقال قائل من المسلمين :

لئن قعدنا والنبى يعمل لذاك منا العمل المضلل (١)

وان هذا النبى الذى قاد المسلمين الى الاشتراك فى بناء المسجد بوحى من عمله ، قادهم كذلك فى ساحات القتال ، وكانت قيادته لهم فى اوقات الهزيمة لا تقل روعة عن قيادته لهم فى اوقات النصر . اذ كان ادرى قومه بتقلب الايام واعمقهم ادراكا لما تتطلبه المحن من احتمال لايقل فى قيمته عما يبديه المرء من شجاعة فى اقتحام الاخطار . ولذا كان للمسلمين بعد « احد » خير العاملين على تقوية روحهم المعنوية وصيانتها من الوهن والضعف بسبب الهزيمة التى لحقتهم فى ميدان القتال وما احدثت من بلاء وجراح واستشهاد . كما كان عند فرار المسلمين فى غزوة « حنين » حين التقوا بهوازن المنقذ الذى حول الهزيمة الى نصر بثباته فى المحنة وقدرته على القيادة فى احرج الازمات وادعاها الى الفزع والهلع . ونحن نرى فى الوصف الاتى الذى يسوقه ابن اسحق عن موقف النبى وهو يشاهد فرار المسلمين ويدعوهم الى معاودة النزال صورة ناطقة لفن القيادة فى الجو العاصف حين يمتحن القائد اقسى امتحان :

« قال ابن اسحق : وحدثنى الزهرى ، عن كثير بن العباس عن ابيه العباس بن عبد المطلب ، قال :
انى لمع رسول الله صلى الله عليه وسلم آخذ بحكمة بغلته البيضاء قد شجرتها بها ، قال : وكنت امرا جسيما شديد الصوت ، قال : ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول حين راى ماراى من الناس أين الناس ايها الناس ؟ فلم أر الناس يلوون على شىء ، فقال ياعباس، اصرخ ، يامعشر الانصار : يامعشر اصحاب السمرة ، قال : فأجابوا : لبيك لبيك . قال : فيذهب الرجل ليثنى بعيره ، فلا يقدر على ذلك، فيأخذ درعه ، فيقذفها فى عنقه ، ويأخذ سيفه وترسه ، ويقتحم عن بعيره ويخلى سبيله ، فيؤم الصوت حتى ينتهى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم . حتى اذا اجتمع اليه منهم مئة ، استقبلوا الناس ، فاقتتلوا وكانت الدعوى اول ما كانت : ياللأنصار . ثم خلصت اخيرا: ياللخزرج . وكانوا صبرا عند الحرب ، فاشرف رسول الله صلى الله

---

(١) السيرة لابن هشام (حـ ٢ ص ١٤١)

عليه وسلم فى ركائبه . فنظر الى مجتلد القوم وهم يجتلدون ، فقال : الآن حمى الوطيس » (١)

وهكذا كانت نشأة محمد فى بيت من بيوت السيادة علمه حكم غيره ، وخضوعه لتجربة فى كسب العيش علمته كيف يصغى الى غيره عاملين متكاملين لتكوين الزعيم المثالى . فلقد كان اجتماع هذين العاملين داعيا الى مرونة التفكير والسلوك والقدرة على معالجة الناس والامور معالجة بلغت تمال التوفيق حتى لم يرتب احد فى أنها موهوبة . ولعل هذه الناحية هى ابرز ما تتميز به تصرفاته فى تدبير شئون الجماعات والافراد فى ظل الدولة الجديدة التى اقامها والتى كانت مصلحة هذه الدولة هى التى تقرر هذه المصروفات دون التزام سنن جامد او منهج نظرى محدد . وربما كان فى ذلك ما يفسر لنا موقفه من المؤاخاة بين المسلمين والمساواة بين المهاجرين والانصار اول تأسيس الدولة فى المدينة ، وموقفه من الانصار والمؤلفة قلوبهم عندما اشرفت الدولة العربية الاسلامية على التمام . فصالح الاسلام هو الذى قرر الخطة الاولى كما قرر الخطة الاخيرة . ويبدو هذا جليا من قول الرسول للانصار فى تلك الحالة الثانية حينما وجد الانصار فى انفسهم شيئا من ايثاره المؤلفة قلوبهم عليهم :

« يامعشر الانصار : ما قالة بلغتنى عنكم ، وجدة وجدتموها على فى انفسكم الم آتكم ضلالا فهداكم الله ، وعالة فأغناكم الله ، واعداء فالف الله بين قلوبكم ! قالوا : بلى ، الله ورسوله امن وافضل . ثم قال : الا تجيبوننى يا معشر الانصار قالوا : بماذا نجيبك يارسول الله ؟ لله ولرسوله المن والفضل . قال صلى الله عليه وسلم : اما والله لوشئتم لقلتم ، فلصدقتم ولصدقتم : اتيتنا مكذبا فصدقناك ، ومخذولا فنصرناك ، وطريدا فآويناك ، وعائلا فآسيناك . اوجدتم يا معشر الانصار فى انفسكم فى لعاعة من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا ، ووكلتم الى اسلامكم ، الا ترضون يا معشر الانصار ، ان يذهب الناس بالشاة والبعير ، وترجعوا برسول الله الى رحالكم ؟ فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرا من الانصار ، ولو سلك الناس شعبا وسلكت الانصار شعبا ، لسلكت شعب الانصار . اللهم ارحم الانصار ، وابناء ابناء الانصار » (١)

وان كان صالح الاسلام هو الذى يقرر تصرفات الرسول حسب اختلاف الظروف وفهمه العميق لاخلاق العرب ، فانه لم يكن متعسفا فى قراراته او

---

(١) الساة لابن هشام (حـ ٤ ص ٨٧)

(١) السيرة لابن هشام (حـ ٤ ص ١٤٢ ــ ١٤٣).

متفردا بها . فهو فى هـذا الخطاب الرائع الذى وجهه الى الانصار يحرص على تبرير تصرفه فى المفاضلة بينهم وبين قريش وقبائل العرب الاخرى معتمـدا فى ذلك على ما امتاز به أهل المدينة من ايثار وما عرف به أهل مكة من اثرة . وبحرصـه على هذا التبرير يدلنـا على انه حاكم يبتغى بناء حكمه على رضى المحكومين لا فرضه فرضا قاهرا تعسفيا . وان كان فى هذا الموقف قد برز فعله بعد انتهائه ، الا انه فى غير ذلك من المواقف كان لاياتى امرا يمس الصالح العام الا اذا تزود بمشورة المسلمين غير مفرق بين رأى كبير فيهم أو صغير . ومتى استمع الى جوانب الراى المختلفة واهتـدى الى قرار معين التزم ذلك القرار بعزم باهر ، وعد تنفيذه جزءا لا يتجزأ من سيادته على قومه فى دولة الاسلام الجديدة. فما كان رده على من دفعه الى الخروج لمقابلة قريش فى غزوة «أحد» حين ظنوا انهم بمشـورتهم قد استكرهوه على ذلك الا ان قال قوله الباتر ، « ماينبغى لنبى اذا ليس لامته ان يضعها حتى يقاتل » (١) .

---

(١) السيرة لابن هشام (حـ ٣ ص ٦٨) .
(السيرة النبوية لابن هشام حققها وضبطها وشرحها ووضع فهارسها مصطفى السقـا وابراهيم الابيـارى وعبد الحفيظ شلبى القاهرة ١٩٣٦ ٤ ج)

بحث فى علم الاجتماع الصناعى :

العمل والمجتمع

للدكتور حسن الساعاتى

لامراء فى اننا قد وصلنا الى اخطر مرحلة فى تاريخ البشر ، فالتقدم العلمى يسير بخطى واسعة جدا والرقى الفنى فى الصناعة يطفر طفرات عظيمة . وقد اصبح الآن فى الامكان انتاج ما يلزم للقضاء على الجوع والعوز والخوف ، كما اصبح فى استطاعة الانسان الآن أن يبنى نظاما اجتماعيا تتاح فيه الفرص لكل فرد لكى يعيش ويستغل مواهبه ويحقق طموحه ويكون فى مأمن من غائلة الجوع والمرض ، ومن مرارة الكفاح المضنى لمجرد الحياة والحصول على ضروراتها .

ولكن هذه الاغراض لم تحقق بعد على الرغم من تمكن الانسان من العلم والمقدرة الفنية . ولازال البشر متقاعسين عن الوصول الى الاهداف السامية التى يصبون اليها . فمنذ الازمة الاقتصادية العالمية التى استحكمت حلقاتها عام ۱۹۲۷ حتى أوائل الحرب العالمية الثانية شاهد العالم مآسى كثيرة اذ وقف دولاب العمل فى مصانع كثيرة وتعطلت جموع غفيرة من العمال عن العمل كما اتلفت مواد غذائية بكميات كبيرة فى الولايات المتحدة وكندا بينما كان الملايين من البشر فى انحاء كثيرة من العالم جياعا محتاجين قوتهم الضرورى . وانها لسخرية بالغة أن تكشف الحرب العالمية الثانية بلاء البطالة والفاقة عن الناس ، فقد استغلت تلك الحرب كل القوى الانتاجية ، وترتب على ذلك وجود العمل لكل من يطلبه .

ولقد اصبح واضحا انه بينما توصل العلماء الطبيعيون الى اختراع آلات ضخمة لزيادة الانتاج فى كل نواحى الحياة أخفق زملاؤهم الاجتماعيون فى تنظيم المجتمع حتى يمكن استغلال هذه الآلات لخلق عالم متقدم آمن يفضل عالمنا من وجوه مختلفة . فقد صحب نشوء المجتمع الصناعى تدهور قدرتنا على العيش والعمل جنبا الى جنب فى صفاء ووئام . وهاهى ذى صناعات كثيرة هددتها واضعفتها الخلافات المتكررة التى تحدث بين العمال من جهة وأصحاب الاعمال وهيئاتهم الادارية من جهة أخرى .

ووسط هذه الخلافات وذلك التنافر ظهرت بوادر طيبة وادلة قوية على امكان تحقيق الوئام والتعاون فى الميدان الصناعى بوجه خاص ، وفى المجتمع بصفة عامة . ولتحقيق ذلك لابد من فهم الحياة الصناعية ووجوهها المتعددة ودراسة عالم المصانع التى يمضى فيها ملايين العمال جل حياتهم ، وبحث

وسائل الاتصال بين المصانع والهيئات الاجتماعية التى تحيط بها وتتأثر بما يحدث فيها من وجوه النشاط المختلفة . فلكل من الحى والمصنع وجماعة العمل تركيب اجتماعى خاص يتكون من العلاقات المتبادلة بين الافراد المختلفين . وبينما توجد بطبيعة الحال فروق فردية فان جزءا كبيرا من سلوك الفرد ـ فيما يتعلق بأعماله وأقواله وتفكيره ـ تعبير عن مركزه أو وضعه فى التركيب الاجتماعى أكثر منه تعبيرا عن اتجاهات شخصيته الخاصة (١) . وليس الالمام بالشئون الصناعية لازما للمعنيين بالبحث والدراسة فى الميدان الصناعى وحدهم ، بل انه أصبح مكملا لثقافة الفرد فى هذا المجتمع الحديث المعقد .

ولكى نرسم صورة واضحة للعوامل البشرية فى الصناعة أو بمعنى ادق لموقف العمال وأصحاب الاعمال بعضهم من بعض ، يجب أن نمهد لذلك بلمحة تاريخية للتقدم الصناعى فى العصور الحديثة . والتاريخ الصناعى الحديث سجل للجهود المختلفة التى بذلت منذ نيف ومائة وسبعين سنة ولا تزال تبذل للاقتصاد فى الوسائل المختلفة المستخدمة لتحسين الانتاج وزيادته ، وكذلك لاستعمال المواد الخام استعمالا كليا لا اسراف فيه ولا اهمال . فقد كان العامل قبل الانقلاب الصناعى يشتغل تحت اشراف « المعلم » فى ورشته الصغيرة اما بمفرده أو مع نفر من زملائه . وكانت قوة الانتاج اليدوى محدودة كما كان فى استطاعة العامل أن يتفاهم مع صاحب العمل الذى كان يوفيه أجره باليومية عادة أو بالقطعة فى بعض الاحيان . ولما كان كل من صاحب العمل والعامل يعملان جنبا الى جنب ويشتركان معا فى ظروف عمل واحدة فان التعاون بينهما كان أمرا ميسورا . وفى سبيل زيادة الانتاج زيادة كبيرة مع الاقتصاد فى الجهود والزمن ضحى اصحاب المصانع المنزلية الصغيرة وعمالهم وتقدموا للعمل فى المصانع الكبيرة مع زملائهم المهاجرين من المناطق الزراعية ، فأصبحت المصانع بعد فترة قصيرة من الزمان تضم عددا عديدا من العمال (٢) .

ونجم عن وضع العمال ورؤوس الاموال تحت ادارة واحدة ان بلغت الاداة الصناعية الآلية درجة عظيمة من الاتقان اذ كان أصحاب الاعمال يعتقدون اعتقادا راسخا فى ان السبيل الوحيد لزيادة الانتاج واتقانه مع الاقتصاد فى الزمن والجهود هو تحسين الآلات وفقا لاحدث النظريات العلمية واستخدام المخترعات الجديدة بينما أهملت الاداة الصناعية البشرية (العامل) اهمالا

(١) Miller, D.C., « The Social Factors of the Work Situation, » American Sociological Review, 11: 300 — 314, June 1946.

(٢) G. M. Modlin & F. T. de Vyver, « Development of Economic Society. » 1946, Parts I, II, III.

كبيرا مدة قرن من الزمان أو أكثر . وعلى الرغم من ذلك الاهمال الذى لقيه العامل فى تلك الحقبة الطويلة فقد جنى الى حد لاينكر ثمرة ذلك التقدم الظاهر فى اتقان الآلات الصناعية اذ سهل عليه العمل وخفت وطأته ، بل انه أصبح فى جل الحالات آليا لا يتطلب الا مهارة قليلة . ولكن ترتب على ذلك أن فقد العامل كثيرا من فرديته وأصبح تابعا للآلة يأتى فى المحل الثانى بالنسبة لها . ومما دعم تلك الفكرة عند أصحاب الاعمال سهولة الحصول على الايدى العاملة واستبدال غيرها بها فى مدة وجيزة فى كثير من الاحيان .

ومن أهم آثار التقدم الصناعى ونمو الاعمال الصناعية واتساعها انقطاع الرابطة الشخصية التى كانت قبل ذلك تصل بين صاحب العمل وعماله فى النظام الصناعى القديم الساذج . ومما زاد تلك الصلة قوة وثباتا فى الماضى اشتراك كل من الآجر والمأجور فى العمل جنبا الى جنب وسط ظروف عمالية واحدة . أما التنظيم الصناعى الجديد الذى اقتضته ظروف التقدم الصناعى فقد اوجد هوة عميقة واسعة فصلت العمال عن أصحاب الاعمال الذين ساد بينهم اعتقاد جد غريب ، وهو انه من الممكن التغاضى عن اثر العمل وظروفه السيئة على العمال ، اذ كان هم أصحاب المصانع قاصرا على الحصول على الايدى العاملة وليس على الابقاء عليها وشجعهم على ذلك تزايد عرض العمال فى سوق العمل . فساءت حال العمال وظهر ذلك فى انتاجهم القليل غير المتقن . وبطبيعة الحال لم يرض أصحاب الاعمال ولا العمال ولا المستهلكون انفسهم (ومن بينهم أسر العمال) بهذه النتيجة السيئة التى عادت عليهم جميعا باضرار متفاوتة (١) .

ولا مراء فى ان أصحاب الاعمال والعمال والمستهلكين يتفقون جميعا فى ان الغرض الاساسى للصناعة هو انتاج أكبر كمية من السلع المتقنة أعظم اتقان بأقل نفقة وادنى مجهود واقصر وقت . ولكن كل فئة منهم تقيس ذلك الغرض بمقياس يناسبها . فالمستهلكون يريدون شراء السلع الجيدة بأقل سعر ممكن واصحاب الاعمال يطمعون فى تحقيق اكبر ربح ممكن والعمال يطلبون اعلى اجور ممكنة نظير الاشتغال ساعات قليلة كل يوم مع التمتع بنعمة الطمأنينة لا على انفسهم فحسب بل على أسرهم أيضا فى الحال والاستقبال . ولا شك فى أن تحسين الاحوال الصناعية يعود عليهم جميعا بفوائد جليلة لانه يؤدى الى تحقيق اهداف كل فئة منهم .

وليس من السهل تقدير قيمة تحسين الاحوال الصناعية وبخاصة مايتعلق منها بشئون العمال تقديرا ملموسا ، اى بالقروش والجنيهات ، لان فائدتها فى كثير من الاحيان تقاس بطريق غير مباشرة بعدة عوامل مختلفة كثبات القوة

(١) انظر (Modlin & de Vyver) ، المصدر نفسه ، القسم الثالث .

العاملة وارتفاع مستواها الفنى وقلة الغياب والمرض ونقص الاصابات الصناعية . كل ذلك عوامل ذات آثار فعالة فى الميدان الصناعى خاصة وفى المجتمع بوجه عام ، لان استقرار الافراد وأسرهم يشيع التماسك الاجتماعى .
ولئن اقتضى تحسين الاحوال العمالية رفع الاسعار بنسبة ضئيلة فان المستهلكين لا يضيرهم أن ينفقوا نزرا يسيرا على مشترياتهم مادام ذلك يعود بالخير على العمال الذين يعتبرون عنصرا أساسيا فى تكوين المجتمع الحديث ، لا كأفراد فيه فحسب ، بل لانهم ينتجون ايضا السلع التى تنفع الناس وتقلل من متاعبهم . ولا مراء فى أن التأمين الاجتماعى ضد البطالة والمرض والعجز والاصابات ، وتحسين أحوال العمل داخل المصنع وخارجه ، ورعاية العمال صحيا من الناحيتين الجسمية والنفسية ، ومنحهم وقتا للراحة بأجر يرفهون فيه عن أنفسهم الملل الناجم عن طبيعة العمليات الصناعية الآلية ، كل ذلك قد زاد اجورهم الحقيقية ونشط قدرتهم على التمتع بالحياة كما رقى كفاءتهم الصناعية على كثرة الانتاج واتقانه ، وهذه النتيجة من غير أدنى شك ترضى المستهلكين وتزيد ربح أصحاب الاعمال .

وليس من العدل أن نقول أن أصحاب الاعمال لم يبذلوا اى مجهود قط فى تحسين احوال العمال وظروف العمل منذ بدات الصناعة فى نطاق واسع لان ذلك قد حدث فعلا ولكن رويدا وبخطى بطيئة فى فترة طويلة من الزمان ، وكان ذلك بطريقتين : الاولى بالزام أصحاب المصانع عن طريق التشريع بتحسين حال العمال واحوال العمل كتوفير الوسائل الصحية فى المصانع والتعويض عن الاصابات وتحديد ساعات العمل وتقييد تشغيل الاحداث والنساء . والطريقة الثانية طوعية اذ قام بعض أصحاب الاعمال بتحسين الاحوال الصناعية من تلقاء انفسهم . وقد عرف هذا النوع من الاصلاح التلقائى بأسماء مختلفة مثل « التحسين الصناعى » او « أعمال الترفيه » أو « خدمة العمال » ، وكلها اسماء تدل على ان اصحاب الاعمال قد قاموا بهذه الاصلاحات الاجتماعية فى الماضى مدفوعين بنزعة للخير لا جرياً وراء المنفعة المادية فحسب .

ولا نكون بعيدين عن الصواب اذا قلنا ان علماء الاجتماع بوجه عام لم يظهروا اهتماما كبيرا بالصناعة كميدان للملاحظة والتجريب والتطبيق واستنباط مبادىء اجتماعية عامة تفيد العلم من ناحية والميدان الصناعى من ناحية اخرى . ولكن جل اهتمامهم كان موجها بصفة خاصة الى المشكلات الاجتماعية الناجمة عن الاشتغال بالصناعة ، وانتشار الصناعة المعروف بالتصنيع . فكارل ماركس يحاول فى كتابه « راس المال » ان يصف مفاسد النظام الصناعى فى انجلترا والوسائل التى يستغل بها اصحاب الاعمال الاقوياء برؤوس اموالهم ، على قلتهم ، العمال الضعفاء على كثرتهم . ثم يستخلص نظرياته المادية الخاصة بفائض القيمة التى يثرى الراسماليون عن طريق

استغلالها (١) . وعلى الرغم من تحيزه الظاهر للعمال وحملته الشعواء ضد أصحاب الاعمال فان بحثه ذو قيمة منهجية وتاريخية فى علم الاجتماع الصناعى . وليس أدل على فهمه لوضع العمل بالنسبة لاوجه النشاط الاخرى فى المجتمع من قوله « بتحليل عملية العمل الى عواملها الاولية البسيطة نراها عبارة عن نشاط ذى هدف مقصود هو انتاج القيم الاستعمالية أى ملاءمة المواد الطبيعية للحاجات الانسانية أو هى الشرط العام اللازم لاتمام التبادل فى المادة بين الانسان والطبيعة ، أو انها الحالة التى تفرضها الطبيعة دائما على الحياة الانسانية ، وبذا تكون مستقلة عن أشكال الحياة الاجتماعية أو بالاحرى مشتركة بالنسبة الى كافة الاشكال الاجتماعية » (١) .

ويعتبر « روبرت اون » (Robert Owen) الفيلسوف الاشتراكى الرائد الاول فى هذا الميدان ومؤسس علم الاجتماع الصناعى من الناحية التطبيقية . فهو أول من كون صورة متكاملة للمصنع بوصفه مجتمعا صغيرا ، وكان يهتم بتحسين الروابط الاجتماعية وتنميتها بين العمال والادارة على أساس اجتماعى بحت . وقد أتيحت له الفرصة عام ١٨٠٠ ليدير مصنعا كبيرا للمنسوجات فى « نيولنرك » باسكتلندا وكان يعمل فيه الفان من العمال منهم خمسمائة طفل . وقد كانوا كما وصفهم « مجموعة من أكثر الناس جهلا وفقرا جاءوا من جميع انحاء اسكتلندا وكانوا يحوون كل الصفات المعروفة عن الجهل والفقر » (٢) . وقد كتب روبرت أون عن هذه المجموعة بعينها بعد اثنتى عشرة سنة ما يأتى : « لقد أصبح أولئك الناس انفسهم أمناء مجدين هادئين ومنظمين بشكل ظاهر وندر ان يوجد بينهم كسلان أو سكير أو لص من بدء السنة الى نهايتها » (٣) وقد كانت طريقته فى اصلاحهم أن يسيطر عليهم سيطرة الوالد على أبنائه فكان يستقصى أحوالهم فلا يدع صغيرة ولا كبيرة الا لاحظها ابتغاء تقويم المعوج وتعليم الجاهل وهداية الضال . وقرن ذلك الاصلاح الروحى باصلاح آخر مادى فقام بتحسين مساكن العمال وتوسيعها كما استن سنة جديدة وهى تنظيف المسكن مرة كل أسبوع ورشه بالجير مرة كل سنة على حساب الساكن . ثم اهتم بماء الشرب فوسع شبكة المياه التى تمد العمال بالماء النقى كما امر بكنس شوارع « نيولنرك » واقام فيها الحراس . ومن أجل أعمال هذا الفيلسوف الاشتراكى تأسيس متجر كبير تابع للشركة التى كان يمثلها

---

(١) انظر الجزء الاول ــ الباب السابع ترجمة الدكتور راشد البراوى ١٩٤٧ .

(٢) المصدر نفسه ــ جزء أول ص ١٤٠ .

(٣) K. Frankel & Others, « The Human Factor in Labour. » 1920, pp. 22 ff.

(٤) المصدر نفسه ــ الفصل الاول .

ليشترى منه العمال سلعا أجود من السلع التى تباع فى المتاجر الاخرى وبثمن يقل عن الاثمان السائدة بنسبة خمس وعشرين فى المائة . ثم استفاد من ربح ذلك المتجر فى الانفاق على مدرسة للاطفال افتتحها سنة ١٨١٦ وسماها « مؤسسة لاصلاح الشخصية » . وكان يستعمل بناء المدرسة كقاعة لتسلية العمال فى المساء . ولم تقف جهوده عند هذا الحد فقد وهب العمال قطعة ارض صغيرة ليفلحها من أراد منهم وبنى للمرضى والعجزة مستشفى كامل الاعداد ، وشجع العمال على الادخار فبلغت اموالهم المودعة فى صندوق التوفير ثلاثة آلاف جنيه فى سنة ١٨١٨ ، ومنع تشغيل الاحداث الذين لم يبلغوا العاشرة من عمرهم كما أنقص ساعات العمل من اربع عشرة ساعة فى اليوم ، كما كان سائدا فى أيامه ، الى أثنتى عشرة ، منها ساعة وربع لتناول الغداء .

وقد عادت مشروعات ربرت أون على أصحاب المصنع الذى كان يديره بربح أربى على عشرة آلاف جنيه فى مدة ثلاثين عاما وذلك بعد دفع سبعة آلاف جنيه أجورا للعمال أثناء تعطلهم عام ١٨٠٧ وبعد خصم المبالغ التى صرفت اعانات خيرية للمعوزين منهم . وقد شجعه ذلك النجاح على كتابة مقاله الثالث الذى نشر عام ١٨١٦ بعنوان « وجهة نظر جديدة للمجتمع » وفيه وجه القول الى أصحاب الاعمال وكل من يستأجر عمالا يستحثهم لينسجوا على منواله لان ذلك على حد قوله فى مصلحتهم وفى مصلحة المجتمع(١) ومن الواضح أن ربرت أون كان صاحب أول « مدينة فاضلة » تحققت بالفعل فى « نيولنرك » حيث كان ذلك المصنع الكبير الذى اشرف على ادارته بنفسه ، فلمس بشكل واقعى اثر الهيئات الاجتماعية المختلفة فى الفرد الذى يتعامل معها منذ ان يبدأ حياته الاجتماعية . ولذلك وجه عنايته الى الاسرة والحى والمدرسة والهيئة التى تشغل وقت فراغ العامل بنفس الدرجة التى اختص بها محل العمل أى المصنع . تلك هى النظرة الاجتماعية السليمة نحو فهم العمال فهما اجتماعيا تكامليا ، فالمصنع يأخذ من حياة العامل نصيبا مثله فى ذلك مثل الهيئات الاجتماعية الاخرى التى لكل منها نصيب فى حياته . اما أن يعتقد صاحب العمل أن العامل يعيش لمصنعه فقط فأمر ثبت خطؤه . فان الاهتمام بالعامل يجب أن يتعدى المصنع الى الهيئات الاجتماعية الاخرى التى يتعامل معها الفرد . ونقصد بالاهتمام هنا من الناحية الاجتماعية تغيير شخصية الفرد لكى يلائم المجتمع الصناعى الحديث الذى تغيرت فيه النظم الاجتماعية الى حد كبير عما كانت عليه عندما كان المجتمع اقل تعقدا ومدنية . ولا مراء فى أن وبرت أون حاول تيغير شخصية الفرد بتغيير نظام معيشته والظروف الاجتماعية التى تكتنفه . وهذا ما قصد اليه الاستاذ « لستر ف .

---

(١) المصدر نفسه ــ الفصل الاول . Frankel & Others.

حين قال « ليس هناك داع الى انتظار (Lester Frank Ward) وورد » تطور بطيء تتغير فيه شخصية الفرد كما يرى (سبنسر) بل يمكن ان نصل الى هذا الغرض بتغيير النظم البشرية » (١) .

ولما كان التقدم الصناعى يمثل تغييرا لانظير له فى الجانب المادى للثقافة الاجتماعية فان ما ظهر فيه من اختراعات كثيرة غريبة جعل هم العلماء واتباههم يوجه كله نحو الآلات ومصادر القوى المختلفة والتصنيع فى نطاق واسع . فى تلك الفترة الصناعية لم يتناس العلماء الجانب البشرى فى الصناعة (اى العمال) فحسب بل انهم فى كثير من الاحيان تصوروا العمال كآلات وطالبوهم بحياة آلية داخل المصانع باسم « الاتقان الصناعى » . ونجم عن ذلك وضع غريب كل الغرابة : فالآلات تتغير تدريجيا لكى تحاكى الانسان فى افعاله ، والانسان يتغير تدريجيا او يطلب منه ذلك لكى يحاكى الآلة فى اتقانها وجمودها . والاتقان الصناعى حركة تزعمها الدكتور « آرثر شادول » (Arthur Shadwell) الذى حاول ان يحقق الاتقان فى ميدان الصناعة على ايدى العمال . وكان ينشر آراءه فى جريدة « لندن تيمز » سنة ١٩٠٢ ثم تلاه فى هذا الميدان « فردرك ونزلو تيلر » (Frederick Winslow Taylor) الذى اهتم بوصف الحركة فى امريكا وتعريف الادارة العلمية للصناعة وتحديد اغراضها (٢) . وهو يرى أن الاتقان الصناعى لايعنى تنظيم العمليات الصناعية وتحديد حركات العمال وسكناتهم اثناء العمل فحسب بل يشمل ايضا الاختيار السليم للعمال الصالحين للعمل وتدريبهم بطرق علمية وكذلك ايجاد التعاون الوثيق بين الادارة والعمال .

ولم تكد تظهر هذه الآراء الجديدة حتى انتشرت بسرعة غريبة وبخاصة فى الولايات المتحدة الامريكية التى تروج فيها كل فكرة جديدة . وقد اكدت حركة الاتقان الجديدة ضرورة الهواء النقى والنور الكافى فى المصانع وفترات الراحة للعمال حتى لايحل بهم التعب بسرعة فيؤثر فى انتاجهم ، وكذلك بينت ضرورة الاقتصاد فى الحركة والتنقل بين آلة وأخرى حتى لايضيع العامل وقتا بدون فائدة ، واوضحت اهمية العلاوات التى تعطى للعمال كحافز على ان يبذلوا كل ما يستطيعون من جهد ، واخيرا نصحت بتكييف اجسام العمال للعمل نفسه وذلك بتدريبهم على اسس علمية . ومهما يكن من امر تلك الحركة القائمة على البحث العلمى فى كل نواحى الصناعة فانها لم تنجح فى شيء واحد على جانب عظيم من الاهمية وهو استثارة العوامل التى تدفع العمال لاتقان الانتاج وزيادته وهى تنحصر فى ميل العمال الى الصناعة واتزانهم

---

(١) انظر : « Applied Sociology, » 1906. p. 336.

(٢) انظر : « The Principles of Scientific Management. » 1911

واقتناعهم بقيمة الجهود التى تبذل فى هذا المضمار . والسبب فى عدم نجاحها انها أهملت العمال انفسهم كبشر ولم تشركهم فى الامر لتقف على وجهةنظرهم . وكيف يتسنى للادارة العمالية النجاح اذا لم تقم على دعائم ديمقراطية واذا لم يكن للعمال صوت مسموع فى وضع خططها ؟ .

ومن الظواهر الاجتماعية الملازمة للعمل تلك المتعلقة بتقسيمه . فالعمل ينقسم حسب طبيعته الى عمل جسمى وعمل عقلى ، وينقسم حسب وسائل ادائه الى يدوى وآلى ، وينقسم حسب اغراضه الى انتاجى يحقق المنفعة بتناول المادة وتأدية خدمات تحقق المنفعة بدون تناول المادة ، وكذلك ينقسم من حيث المهارة والخبرة الى عمل فنى اى يتطلب قدرة خاصة وتدريبا طويلا وخبرة ، وعمل غير فنى اى لايتطلب كل ذلك (١) . ويرى « كارل ماركس » أن الفارق بين العمل الفنى والعمل غير الفنى « يرجع جانب منه الى الاوهام أو الى اختلافات لم تعد حقيقية وانما تعيش فى التقاليد والعرف . هذا من جهة ومن جهة اخرى يرجع هذا الفارق بين نوعى العمل الى عجز طوائفمعينة من الطبقة العاملة عن انتزاع قيمة ما يملكون من قوة العمل . وتلعب الصدف دورا عظيما فى ذلك بحيث أن نوعى العمل يحل كل منهما محل الآخر أحيانا . ومثال ذلك أنه اذا انحطت صحة الطبقة العاملة بحيث تضعف قوتهم الجسمية فان الاشكال الدنيا من العمل والتى تتطلب بذلا كثيرا للعضلات تعد كأنها عمل فنى وذلك عند موازنتها بالانواع الاخرى للعمل التى تعتبر أعظم دقة واكثر رقة والتى تهبط فى هذا المثال الى مستوى العمل غير الفنى » (٢) وهذا الراى على جانب كبير من الصحة . ومن أهم انواع تقسيم العمل ذلك النوع المتعلق بالجنسين الرجال والنساء . وتقسيم العمل بينهما موجود عند البدائيين كما هو موجود عند المتحضرين . ولكن هذه التفرقة بين الجنسين فى ميدان العمل مسألة اجتماعية ترتبط ارتباطا وثيقا بالثقافة اى بالتراث الاجتماعى الذى ينشأ فيه الفرد ، وما يتوارثه الخلف عن السلف من عادات وتقاليد وعرف وآداب شعبية (٣) . وقد ثبت فى الحرب العالمية الاخيرة ان المرأة فى استطاعتها ان تؤدى من الاعمال ما كان الرجال يعتقدون أنه من اختصاصهم وحدهم . وقبل ان نترك موضوع تقسيم العمل يجب الا ننسى أن التخصص الفردى يجعل العامل بالتدريج أكثر اعتمادا على المجتمع ومع ذلك يضعف تماسكه فى التركيب الاجتماعى كله لان العامل فى هذه الحالة

---

(١) انظر « الاقتصاد السياسى » للاستاذ على عبد الواحد وافى . طبعة رابعة ، ١٩٤٦ ص ص ١٠٣و١٠٤ .

(٢) المصدر نفسه ــ الجزء الاول ، ص ١٥٣ .

(٣) انظر Ralph Linton, «The Study of Man.» 1936 pp. 113 — 131.

يصبح اقل وعيا لمركزه فى البناء الاجتماعى . تلك كانت المشكلة التى كشفها
ووضحها الاستاذ اميل دوركايم (E. Durkheim) فى كتابه عن تقسيم العمل
فى المجتمع (١) . وما تقسيم العمل فى الواقع الا التعاون فى صورته المعقدة .
ويصف ذلك ابن خلدون بشكل واضح حينما يقول بصدد ضرورة الاجتماع
الانسانى » . . . . الا أن قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته
من ذلك الغذاء غير موفية له بمادة حياته منه ، ولو فرضنا منه اقل ما يمكن
فرضه وهو قوت يوم من الحنطة مثلا . فلا يحصل الا بعلاج كثير من الطحن
والعجن والطبخ وكل واحد من هذه الاعمال الثلاثة يحتاج الى مواعين وآلات
لاتتم الا بصناعات متعددة من حداد ونجار وفاخورى . وهب انه يأكله حبا
من غير علاج فهو ايضا يحتاج فى تحصيله ايضا حبا الى أعمال اخرى اكثر من
هذه ، من الزراعة والحصاد والدراس الذى يخرج الحب من غلاف السنبل ،
ويحتاج كل واحد من هذه آلات متعددة ومصانع كثيرة اكثر من الاولى بكثير
ويستحيل ان تفى بذلك كله او بعضه قدرة الواحد ، فلا بد من اجتماع القدر
الكثيرة من ابناء جنسه ليحصل القوت له ولهم فيحصل بالتعاون قدر الكفاية
من الحاجة لاكثر منهم بأضعاف » (٢) .

ويرتبط بظاهرة تقسيم العمل امران اساسيان احدهما نظام الطبقات (٣)
والثانى تقدير العمل بمعنى احترامه او احتقاره . فتقسيم العمل من حيث
التخصص فى حرف معينة يؤدى الى انقسام المجتمع راسيا الى طوائف مهنية
تتحد كل منها وتعمل على اصلاح شئونها وهذا يقتضى التعاون بين الافراد
ويؤدى ذلك الى تحسين المجتمع عامة باشاعة التماسك الاجتماعى فيه . ولكن
تقسيم العمل من جهة اخرى يؤدى الى تفاوت فى الدخل ، ويؤدى بعد فترة

غير قصيرة الى انقسام المجتمع افقيا الى طبقات بعضها فوق بعض ولكل
منها مصالح قد تبدو متعارضة مع مصالح الاخرى ، ويؤدى ذلك الى تفكك
المجتمع نتيجة البغض المتبادل بين طبقة واخرى . أما من ناحية تقدير العمل
وعلاقته بظاهرة تقسيمه فالشائع ان الاعمال التى تؤدى الى اتساخ العامل
تصبح محتقرة بالمقارنة بالاعمال الاخرى النظيفة . ولذلك كانت الاعمال
الكتابية اكثر احتراما من الاعمال الصناعية . وليس ادل على ذلك من رغبة

---

(١) انظر « On the Division of Labour in Society, » trans. by G. Simpson 1933, pp. 200 — 229, 353 — 373

(٢) المقدمة ص ٤١و٤٢ .

(٤) انظر « الطبقات الاجتماعية » للاستاذ محمد ثابت الفندى ، الفصلين
الثالث والرابع ، ١٩٤٩ .

العمال الملحة فى تعليم اطفالهم ليشغلوا وظائف كتابيـة بدل ان يخلفوهم فى مهنهم التى قد تكون اعلى اجورا منها .

وقد يهمل العمل او يحتقر جملة وبوجه عام فى عصر من العصور ويحترم ويقدر فى عصر آخر تبعا للانظمة الاجتماعية السائدة . فالكاثوليكية مثلا ترى ان العمل وسيلة للمعيشة الشريفة ونشاط لازم لتحرير الجسم من الشهوات والرغبات الجسدية الملحة اى ان خلاص الروح فى العمل . كما انهـا ترى فى العمل عقـابا لابناء آدم الذى اغواه الشيطان فاخرجه مـن الراحة الابدية . ويشجع الدين الاسلامى والمذهب البروتستانتى على العمل لانه اساس التعاون والتعامل اللذين يكشفان عن فسـاد الفرد او صلاحه . وبينما نجـد العمل محتقرا فى النظام الارستقراطى والنظـام الاستبدادى المطلق نراه محترما فى النظام الديمقراطى الذى تسود فيـه الحرية والمساواة السياسية الى حـد كبير (١) . وممـا ادى الى احترام العمل فى العصر الحديث ظهور كثير مـن المخترعات فى الميدان الصناعى جعلت العمل اكثر سهولة واقل متاعب عن ذى قبل كما ان نظافة المصانع وتسهيل تنظيف عمالها فيها قبل مغادرتها قد ادى الى احترام العمل والعمال . ومن المبادىء المقررة ان ارتفاع مستوى معيشـة العمال يرفعهم فى نظر غيرهم اذ يصعب التمييز بينهم وبين الطوائف الاخرى ، ونلمس ذلك بشكل واضح فى الولايات المتحدة المتقـدمة فى امريكا . ويجب الا ننسى ان العمل كان يكافأ مكافأة كبيرة فى الدول الفاشية لانهـا تقوم على أكتاف العمال وانتاجهم . ويعتبر العمل فى هذه الدول شرفا كبيرا الى درجة ان العمال كانوا يفخرون على العلماء النـاعمى الايدى ، والمجتمع بدوره يضع العمال فى أعلى مرتبة وذلك مبالغـة فى احترام العمل . وهذه فكرة جـديدة نشأت فى الديمقراطيات الشعبية التى وصل فيها العامل الى مرتبة الحـكم والقيادة مثل ادولف هتلر وايرنست بيفن .

ولقد خلقت لنـا الصناعة بشكلها الحديث القائم على تكتل العمـال بين جدران المصانع نوعا غريبا من التجمع البشرى يمكن ان نطلق عليـه اصطلاح « مجتمع المصنع » وهو مجتمع فريد فى تركيبه وصفاته . حقـا ان التعليم والدين منذ القدم نظامان اجتماعيان مرتبطان بظاهرة تجمع الافراد بين جدران المدارس والمعابد المختلفة . ولكن التجمع التعليمى او التجمع الدينى يختلف تمام الاختلاف عن التجمع العمالى من وجوه كثيرة . فطلاب العلم ينظرون الى

---

(١) تناول الموضوع بتوسع الاستاذ (ز . الرخ) (Z. Ullrich) فى كتابه « Osvobozeni Prâce » : A Sociological Analysis of the Ideas on Labour, Prague, 1947.

مدارسه ومعاهده على انها مراكز تجمع يقضون فيها فترة من حياتهم تؤهلهم للعمل فى المجتمع كما انهم لايتبادلون المنفعة مع اساتذتهم فى هذه المراكز التعليمية بل يأخذون ولا يعطون . وكذلك حال المتعبدين فى دور العبادة سواء كانت اديرة أو كنائس أو مساجد لايجتمعون فيها الا بصفة مؤقتة (١) وطلبا للمغفرة والرحمة والسعادة دنيا واخرى . وليس فى هذه الجموع الاجتماعية صراع من اى نوع كذلك الذى نجده فى الجمع الصناعى بشكل واضح . والعامل اذا اندمج فى حياة المصانع فانه لاينفصل عنها الا لبلوغه سن التقاعد او لوفاته كما انه فى هذا المجتمع الصناعى يتبادل المنفعة بشكل ظاهر مع صاحب العمل الذى ينقده اجره نظير عمله .

واذا درسنا أى مصنع كبير دراسة عميقة دقيقة نجده تركيبا اجتماعيا مصغرا وجزءا صغيرا من المجتمع الاكبر . وكلما زاد التقدم الفنى والصناعى ظهرت دلائل كثيرة الصراع وعدم الانسجام فى المجتمع الصناعى كما انها تظهر غالبا فى أشكال جديدة مقلقة . ففى اى مصنع يوجد نسيج معقد من العلاقات الاجتماعية يربط الافراد بعضهم ببعض . فلكل منهم مكانه ووظيفته فى هذا النسيج الاجتماعى ويرتبط به تماما ويكون معه وحدة متكاملة الى درجة ان اى تغيير يحدث فى اى جزء من أجزاء هذا النسيج يؤثر عليه وعلى عمله من نواح كثيرة .

وهناك نوعان من العلاقات التى تربط مابين العمال فى المصنع الواحد : علاقات شكلية واخرى غير شكلية . اما العلاقات الشكلية فخاصة بوظيفة الفرد وما يرتبط بها من حقوق وواجبات والعلاقات غير الشكلية تظهر نتيجة ظروف خاصة كالاشتراك فى تناول الغذاء أو التسلية أو المقهى او الحى او وسائل المواصلات أو العمليات الصناعية نفسها . وينشأ عن هذه العلاقات بطبيعة الحال صداقات وعداوات لاسباب مختلفة ، ولذلك فأثرها قوى على الافراد الى درجة انها تشكل سلوكهم وتحددها تمام التحديد . فولاء العامل لمختلف الجماعات التى يندمج فيها اعظم من ولائه للجماعات الصناعية الشكلية التى تكونها الادارة المصنعية حسب تنظيم معين . وفى بعض الاحيان يكون هناك تعارض بين رغبات الجماعة غير الشكلية ورغبات الادارة التى تحس بدورها ان التنظيم غير الشكلى غريب عنها لم تشترك فى وضع خططه كما انه فى نظرها يعيق العمل ويقف حجر عثرة فى سبيل تنفيذ خطط الادارة . ولذلك

---

(١) ماعدا الاديرة التى يعيش فيها الراهب متنسكا طول حياته التى تعتبر فى نظره فترة انتقال الى الدار الباقية .

تعمل جاهدة للقضاء على التنظيم غير الشكلى ، ولكن دون جدوى لانه من طبيعة الجمع والحياة الاجتماعية فيه (١) .

كذلك هناك صفة اخرى من مميزات العمل فى المصانع وهى وجود انواع معقدة من المستويات القائمة على انظمة معينة . فلو درسنا الوظائف المختلفة فى مصنع من المصانع نجد انها تتبع نظاما طبقيا يكون فيه المدير رئيس الوكيل والوكيل رئيس الملاحظ والملاحظ بدوره رئيسا لملاحظى العمال وهؤلاء بدورهم رؤساء للعمال . ومعنى ذلك ان كل فرد منهم (الا من فى اسفل السلم) يظهر على غيره كما يظهر عليه غيره . وهو فى الحال الاولى ذو نفوذ ويظهر له من هم دونه احتراما وطاعة . وهذا النوع من التقسيم الوظيفى المتدرج صورة مصغرة للتنظيم العسكرى ولكنها ملطفة مخففة . وليست الفروق بين العمال قائمة على هذا التقسيم فحسب بل انها تقوم ايضا على نوع العمل الذى يؤديه العامل ، فمثلا هناك فارق واضح بين الموظفين ذوى «الياقات البيضاء» (الكتبة والرؤساء) والعمال على اختلاف انواعهم . ولا مراء فى ان الموظف الذى يكتب بالقلم على الورق ويجلس الى مكتبه يصرف الامور فى المصنع يعتبر فى مركز اعلى من اولئك الذين يشتغلون بايديهم امام الآلة او منضدة العمل . وكثيرا ما يقال ان العمال غير مثقفين ولا مهذبين وانهم خشنون صاخبون ، ونجد ان الموظفين يتجنبونهم ويعترضون على الاشتراك معهم فى اوجه النشاط الاجتماعى سواء داخل المصنع او خارجه ، وبالتالى نجد ان العمال بدورهم ينتقدون الموظفين لصلفهم وتزمتهم ، ويكفى انهم يمثلون صاحب العمل ويحافظون على مصالحه . وكل محاولة تهدف الى انقاص مركز اى فرد او اية جماعة تقابل بسخط شديد كما ان كل محاولة لاحداث اى تغيير فى العمليات الصناعية تقابل بامتعاض كبير . ومن الحقائق التى اظهرها البحث العلمى فى المصانع ان كل جماعة فيها تحاول ان تبذل اقصى جهدها لارضاء الادارة التى تتطلب دائما مزيدا من الجهود للوصول الى نتيجة مفيدة للمصنع كما ان كل جماعة فى نفس الوقت تحمى نفسها بل تنافس الجماعات الاخرى . ولذلك نجد نزاعا كبيرا ما بين العمال والادارة ، والاسطوات والملاحظين ، والعمال والاسطوات (٢) .

والصراع الصناعى يظهر باجلى صورة فى موقف العمال متكتلين من اصحاب الاعمال الذين استغلوهم فى الماضى ولايزال بعضهم يفعل ذلك الى الان . والسبب الرئيسى فى هذا الصراع ينحصر فى ان كلا من الطرفين لايفهم وجهة نظر الآخر

---

(١) انظر Moore, W. E., «Industrial Relations and the Social Order.» 1951, pp. 173 ff.

(٢) اقرا وصفا دقيقا لذلك فى Hader & Lindeman : «Dynamic Social Research.» 1933.

تمام الفهم . ولما كان لاصحاب العمل دائما اليد العليا لاعتمادهم على رءوس اموالهم وملكيتهم للمصانع وما فيها من آلات وادوات فان العمال وجدوا من مصلحتهم ان يتحدوا ويتعاونوا فى شكل نقابات عمالية . وقد مكنهم ذلك من الوقوف من أصحاب الاعمال موقف الند للند الى حد كبير ، اذ اكسبهم الاتحاد قوة وجعل صوتهم مسموعا وارغم أصحاب الاعمال على اجابة كثير من مطالب العمال التى تنحصر فى زيادة الاجر وانقاص ساعات العمل وتحسين أحواله داخل المصانع وخارجها ، وفيما يطمئنهم على مصالحهم فى الحال والاستقبال. وقدنجم عن الاهتمام بشئون العمال واجابة مطالبهم تحقيق مطالب أصحاب الاعمال أنفسهم التى تنحصر فى زيادة الانتاج واتقانه مع قلة الاستهلاك الذى يحدث فى العمليات الصناعية ومعنى ذلك وجود تعاون وثيق بين العمال واصحاب الاعمال مادامت مصالح الفئتين مشتركة .

ذلك نظام العمل فى ميدان تسود فيه الملكية الفردية والمنافسة الحرة والحرية السياسية الى درجة كبيرة جدا مع تدخل حكومى لصالح طرفى الانتاج، أصحاب الاعمال والعمال ، لكيلا تبغى فئة على اخرى . والتدخل الحكومى فى هذه الحالة يأخذ شكل التشريعات المختلفة التى تسن بالطرق الديمقراطية المعروفة . تلك التشريعات التى قضت على تكهنات «ماركس» التى منى فيها العمال فى مستقبل الصناعة بالبؤس والاضطهاد والعبودية والحطة والاستغلال فى ظل النظام الراسمالى . ذلك لانه اعتقد ان تشغيل الاحداث والنساء لابد منه بسبب تناقص ربح راس المال . ولئن كان وصفه لمفاسد الصناعة قد صح فى انجلترا فى القرن التاسع عشر فان تكهناته بعيدة عن الصحة تمام البعد فى تلك الدولة ودول اخرى مماثلة فى العصر الحاضر الذى ارتفع فيه مستوى معيشة العامل بشكل ظاهر (١) .

اما فى ظل الحكم الفاشى فان الحكومة قد قضت على كثير من الانظمة التلقائية السائدة فى ميدان العمل كالنقابات والتعاون واتحادات أصحاب الاعمال وسنت تشريعات تخلص العمال من استغلال أصحاب الاعمال وتحمى اصحاب الاعمال من تعنت العمال . وحجتها فى هذا الاجراء ان العمال واصحاب الاعمال افراد مجتمع واحد يربطهم بروابط قومية لايصح ايجاد اية فرصة لفصمها بترك انواع الصراع المختلفة تنمو فى الميدان الصناعى وتنتشر الى ان تؤدى الى تفكك المجتمع الذى يعمل جاهدا لكى يسود المجتمعات الاخرى بتماسكه الشديد وبكثرة منتجاته وبخاصة لاغراض حربية . ولكن الديمقراطيين يعارضون هذا الاجراء اشد معارضة ويرون انه يقضى على الحرية الفردية ويحرم العامل على

---

(١) انظر P. S. Florence, « Labour ». 1950, pp. 206 ff

وجه الخصوص نعمة التعبير عن رأيه فى مدنية معقدة اعظم تعقيد تزداد فيها الفرص فى كل يوم لالوان من التغـير الاجتماعى .

ونختتم هذا المقال بالاشارة الى ما اداه الدكتور « التن مييو (Elton Mayo) الاستاذ بجامعة هارفرد بالولايات المتحدة فى ميـدان البحث الاجتماعى العلمى فى العالم الصناعى من جهود كللت بالنجاح فى النهاية واصبحت نقطة البداية فى فرع علم الاجتماع الصناعى . بدا «مييو» ابحاثه فى المصانع الكهربائية الغربيـة فى « هوثورن » (Hawthorne) من ضواحى شيكاجو . وكانت طريقته تعتمد على ملاحظة عمليات الانتاج المختلفة بدقة ، والعمال فى أوقات عملهم وفراغهم كما كان يلاحظ أيضا سلوك جماعات صغيرة من العمال ويستمع الى احاديثهم . وكذلك استعمل الاستبار الشخصى لكى يعرف من كل عامل على حدة افكاره وآماله واحساساته فى المصنع الذى يشتغل فيه . وقد وضع « مييو » الى جانب ذلك خطة لـكشف آثار يوم العمل القصير الذى تتخلله فترات راحـة يتناول أثناءها العمال المرطبات أو الشاى ، فوجد ان الانتاج قد زاد والتعـاون صار أقوى وآكد نتيجة تحرر العمال بعض الشيء من النظام العادى الصـارم الرتيب وتخلصهم الى حد كبير من السلطة الجافة الخشنة . وقد اهتم «مييو» أيضا بالكشف عن تقاليد العمل فى المصانع وما يسود فيها بين العمال من عرف وآداب عمالية ورموز جمعية وهلم جرا (١) . وقد اجريت ابحاث كثيرة من هذا النوع فى انجلترا امدت المعنيين بهذا الفرع من الدراسـة بمعلومات اجتماعية قيمة عن مجتمع المصنع كانت مجهـولة تماما من قبل (٢) . ولاننسى قبل انهاء هذا المقال ان نذكر اسم عالم امريكى تفرغ لدراسة علم الاجتماع الصناعى هو الاستاذ « ولبرت مور » (Wilbert Moore) الذى اخرج فى هذا العلم سفرا قيما اشـار فى أوله الى اغراضـه التى هدف اليها من وضعه وهى تنحصر فى فهم السمات الغريبة للمجتمعات الصناعية واهمية الصناعة للدولة والهيئة الاجتماعية والجماعات المختلفة والفرد الذى يكسب عيشه بعرق جبينه . كما انه محاولة الى تحليل منظم للتركيب الصناعى (industrial System) كنظام اجتماعى وطريقة الحيـاة فى المجتمع الصناعى . ذلك فى نظره ميـدان علم الاجتمـاع الصناعى بصفة مؤقتة لانه ميدان يرجى له النمو والازدهار (٣) .

ذلك ميـدان الصناعة الذى يحتاج من الاجتماعيين عناية خاصة ، لانه

---

(١) انظر Elton Mayo: «The Social Problems of an Industrial Civilization.» 1945

(٢) انظر Marie Jahoda: «Some Socio-Psychological Problems of Factory Life.» Brit. Journal of Psychology, Jan 1941.

وكذلك « Mass Observtion : People in Production. » 1942

(٣) انظر المصدرنفسه ، ص ص ٣ وما بعدها .

ميدان جديد لم يدرس دراسة اجتماعيـــة كافية ، على الرغم من التغـيرات الواسعة النطاق التى حدثت فيه فى فترة قصيرة من الزمان .

المراجع المشار اليها

عربيـــة

١ ــ ابن خلدون : « المقدمة » .

٢ ــ على عبد الواحد وافى : « الاقتصاد السياسى » . طبعة رابعة ، ١٩٤٦

٣ ــ محمد ثابت الفندى : « الطبقات الاجتماعية » ١٩٤٩

٤ ــ كارل ماركس : « راس المال » ترجمة الدكتور راشد البراوى ، ١٩٤٧

اجنبية

1 — Durkheim. E. : *« On the Division of Labour in Society. » Trans. by G Simpson 1933.*

2 — Florence, P.S. ; : *« Labour . » 1950.*

3 — Frankel K. & Others : *« The Human Factor in Labour. » 1920.*

4 — Hader & Lindemar. : *« Dynamic Social Research. » 1933.*

5 — Jahoda, Marie : *« Some Socio-Psychological Problems of Factory Life. « Brit. Journal of Psychology. Jan. 1941.*

6 — Linton, Ralph : *« The Study of Man ». 1936.*

7 — Mayo, Elton : *«The Social Problems of an Industrial Civilization.» 1945.*

8 — Miller, D.C. : *« The Social Factors of the Work Situation, » American Sociological Review, June, 1946.*

9 — Modlin, G.M. & De Vyver : *«Development of Economic Society.» 1946.*

10 — Moore W.E. : *« Industrial Relations and the Social Order. » 1951.*

11 — Taylor, F. W. : *«The Principles of Scientific Management ». 1911.*

12 — Ullrich, Z : *« Osvobozeni Pràce, «A Sociological Analysis of the Ideas on Labour. Prague, 1947.*

13 — Ward, L.F. : *« Applied Sociology. » 1906.*

النقد والكتب

Catalogue of Dated Fabrics (Umayyad, Abbassid, Fatimid) by Ernest Kuhnel; Technical Analysis by Louisa Bellinger, Washington, National Publishing Company, 1952.

للدكتور محمد عبد العزيز مرزوق

النقد والكتب

أصدر متحف المنسوجات The Textile Museum في مدينة وشنجتن ثبتا علميا بما فيه من المنسوجات الاسلامية المؤرخة التى ترجع الى العصور الوسطى يقع فى ١٣٧ صفحة من الحجم الكبير وبه ٥٢ لوحة على ورق مصقول بها ما يزيد على مائة وستين صورة .

ومؤلف الكتاب هو الاستاذ الدكتور ارنست كونل استاذ الآثار الاسلاميــة فى جامعة برلين ورئيس القسم الاسلامى فى متاحف الدولة ببرلين ، وهو أحد العلماء الافذاذ فى الآثار الاسلاميــة ، ومن أوائل من اشتغلوا بهذه المادة عمليا وعلميا ، فقد قام بحفائر أثرية كثيرة من أهمها حفائره فى مدينة « سر من رأى أو سامراء » فى العراق ، كما أن له مؤلفات وأبحاث قيمة يكاد يخطئها العد ويكفى لتصورها أن من أقدم ما كتبه مؤلفه عن الفن الاسلامى فى بلاد المغرب والاندلس الذى أخرجه فى سنة ١٩٢٤ ، ومنذ ذلك التاريخ حتى الوقت الحاضر وهو متوفر على البحث دائب الانتاج فى هذه الناحية التى تدين له بالكثير من الآراء الجديدة والنظريات التى يؤمن بها أكثر المشتغلين بالآثار الاسلامية فى الوقت الحاضر ، وقد تتلمذ عليه أغلب الذين يشتغلون بهذا الموضوع فى الشرق والغرب سواء كانوا فى الجامعات أو فى المتاحف .

النقد والكتب

Catalogue of Dated Fabrics (Umayyad, Abbassid, Fatimid) by Ernest Kuhnel; Technical Analysis by Louisa Bellinger, Washington, National Publishing Company, 1952.

للدكتور محمد عبد العزيز مرزوق

أصدر متحف المنسوجات The Textile Museum في مدينة وشنجتن ثبتا علميا بما فيه من المنسوجات الاسلامية المؤرخة التى ترجع الى العصور الوسطى يقع فى ١٣٧ صفحة من الحجم الكبير وبه ٥٢ لوحة على ورق مصقول بها ما يزيد على مائة وستين صورة •

ومؤلف الكتاب هو الاستاذ الدكتور ارنست كونل استاذ الآثار الاسلامية فى جامعة برلين ورئيس القسم الاسلامى فى متاحف الدولة ببرلين • وهو أحد العلماء الافذاذ فى الآثار الاسلامية • ومن أوائل من اشتغلوا بهذه المادة عمليا وعلميا ، فقد قام بحفائر أثرية كثيرة من أهمها حفائره فى مدينة « سرمن رأى أو سامراء » فى العراق ، كما أن له مؤلفات وأبحاث قيمة يكاد يخطئها العد ويكفى لتصورها أن من أقدم ما كتبه مؤلفه عن الفن الاسلامى فى بلاد المغرب والاندلس الذى أخرجه فى سنة ١٩٢٤ ، ومنذ ذلك التاريخ حتى الوقت الحاضر وهو متوفر على البحث دائب الانتاج فى هذه الناحية التى تدين له بالكثير من الآراء السديدة والنظريات التى يؤمن بها أكثر المشتغلين بالآثار الاسلامية فى الوقت الحاضر • وقد تتلمذ عليه أغلب الذين يشتغلون بهذا الموضوع فى الشرق والغرب سواء كانوا فى الجامعات أو فى المتاحف •

والكتاب الذى نحاول أن نعرِّف القراء به هو آخر ما أخرجه هذا العالم العظيم يتناول دراسة طائفة من المنســوجات الاثرية الاسلامية المحفوظة فى المتحف سالف الذكر ، وهو وان كان فى مظهره وكما يدل عليه عنوانه ثبت للمنسوجات الاسلامية المؤرخة فى ذلك المتحف الا أنه فى حقيقته دراســة جامعة مانعة ــ كما يقول رجال المنطق ــ لهذه الناحية من نواحى الحضارة المادية عند المسلمين .

والواقع أن مصر قد أقرت عين الباحث فى الآثار بما أمدته به من تراث الاولين الذى يكاد ينتظم كل العصور التى مرت بالعالم قبل التاريخ وبعده، ذلك التراث العظيم الذى احتفظت به قائما على سطحها أو مطمئنا فى بطنها بفضل ذلك الجو الجاف الذى حبتها به الطبيعة ، ثم بفضل أرضها تلك الام الرءوم التى حافظت بطبيعة تكوينها على ما اؤتمنت عليه فى جوفها وكأنمــا كانت فى ذلك حريصة على أن ترينا عظمة السلف الكريم فأدت الامانة على أحسن وجه . وقد كان من أهم بقايا الماضى تلك المجمــوعات النفيسة من المنسوجات الاثرية التى أظهرتها الحفائر الأثرية منذ عصر الحملة الفرنسية والتى هى فى حقيقتها سجل لتــاريخ مصر منــذ العصور السحيقــة حتى الفتح التركى .

وقد كشفت حفائر دار الآثار العربية ــ أو متحف الفن الاسلامى كما أصبحت تسمى أخــيرا ــ عن كميات وفيرة من المنسوجات الاسلامية التى استخرجت من البقاع التى اتخــذها المسلمون فى العصور الوسطى مكانا لدفن موتاهم حول مدينة الفسطاط . وتكوّن هذه المنســوجات سلسلة متصــلة الحلقات تنتظم كل عصور التاريخ الاســلامى فى مصر ، وتمكن الباحث من أن يقف على التطور التدريجى فى تلك الناحية التى ذاعت فيها شهرة مصر قبل الاسلام وبعده . وقد تسرب من مصر ــ بوسائل شتى ــ جانب كبير من هذه المنسوجات واتخذ طريقه الى متاحف أوربا وأمريكا حيث استقر هناك ، ولئن كان يؤسفنا حقا أن يخرج تراثنا الاثرى من بلادنا الا أنه

يعزينا عن ذلك أن هذا التراث هو فى الحقيقة سفير دائم لنا فى الخارج يطلع الغير على صفحات مشرقة من مجدنا التالد هذا الى أنه ينال فى مواطن غربته من التقدير والاجلال نصيبا ملحوظا . والكتاب الذى بين أيدينا دليل على هذا التقدير والتمجيد .

والاقسام الرئيسية فى هذا الكتاب سبعة : الاول مقدمة ألمَّ فيها المؤلف بنشأة نظام الطراز ونضوجه ثم تكلم على تطور الزخرفة على المنسوجات عبر العصور الاسلامية المختلفة .

والثانى هو ثبت وصف فيه المؤلف القطع المؤرخة وصفا نهج فيه منهجا جديدا ، ذلك أنه لم يثقل على القارىء بالتفاصيل التى قد تضيع بينها المزايا الحقيقية للقطعة فاكتفى باثبات الصورة الفوتوغرافية للقطعة ثم لخَّص فى كلمات قليلة المعالم البارزة للزخرفة ان وجدت ، ثم أثبت النص العربى الموجود على القطعة معقبا عليه بتحليل محكم لما جاء فيه ومناقشة مدلوله ويختم كلامه بالاشارة الى القطع المعاصرة الموجودة فى المتاحف أو المجموعات الاخرى .

والقطع التى تناولها ترجع الى عهد الخليفة مروان الثانى آخر خلفاء بنى أمية ، ثم الى عصر المتوكل والمستعين والمعتز والمعتمد والمعتضد والمكتفى والمقتدر والقاهر والراضى والمتقى والمستكفى والمطيع والقادر من خلفاء بنى عباس . ثم المعز والعزيز والحاكم والظاهر والمستنصر والآمر والحافظ من خلفاء الدولة الفاطمية فى مصر .

ومن أهم ما جاء فى هذا القسم من الكتاب وصف قطعة من الكتان مطرز عليها نص يشير الى أنها عملت بالاسكندرية فى عصر الامام المعتمد بالله الخليفة العباسى سنة اثنتين وسبعين ومايتين بعد الهجرة وبها شريط من زخرفة هندسية جميلة قد دبجت بالحرير الازرق والاصفر ، واذا عرفنا أن هذه القطعة هى الوحيدة فى العالم التى تعطينا فكرة واضحة عن زخرفة أقمشة الاسكندرية فى العصر الاسلامى وعرفنا أيضا أن المتحف الاسلامى

بالقاهرة الذى يعد أغنى المتاحف فى المنسوجات الاسلامية ليس به قطعة من نسج الاسكندرية تجمع بين الزخرفة والكتابة التاريخية استطعنا أن ندرك مدى ما يمكن أن يفيده الباحث فى تاريخ حضارة الاسكندرية من هـذا الكتـاب •

والقسم الثالث يتنـاول بالدراسة قطعا من المنسوجات على الرغم من أنها لاتحمل نصا تاريخيا الا أن لها قيمتها فى دراسة النواحى الفنية من شتى زواياها فنذكر على سبيل المثـال لا الحصر العصائب اليمنية Ikat والطنافس المصرية والاقمشة الهندية المتخـذة من القطن والمزينة بزخارف مطبوعة •

والقسم الرابع خاص بالناحية الصناعية Technical Analysis وقد كتبته السيدة بلنجر ودلت بكتابتها على سعة اطلاعها فى هذه الناحيـة كما برهنت على أن الكشف عن طريقة الصناعة يعاون الى حد كبير المشتغلين بالتاريخ الفنى فى دراستهم وقد يجلى لهم بعض ما غمض من جوانبها •

والقسم الخامس جداول قد رتبت فيها القطع الموصوفة ترتيبا تاريخيا وبينت فيها مادة القطعة (الكتان أو القطن أو الصوف أو الحرير) ونوع الغرز stitches المستعمـلة واسم الطراز الذى نسجت فيه القطعـة ونوعه (خاص أم عام) واسم الخليفـة واسم الوزير واسم صاحب الطراز والتاريخ الهجرى للنسيج وما يقابله بالتاريخ الميلادى •

والقسم السادس بحث فيه المؤلف فى دور الطراز وفى المشرفين عليهـا بحثا وافيا أضاف به الكثير الى ما كان معروفا من قبل فى هذا الصدد •

والقسم السابع والاخير هو ثبت واف بأهم المراجع فى هذا الموضوع سواء ماكتب منها باللغات الاوربية أو باللغة العربية ويأتى بعده كشاف يسهل على القارىء سبيـل البحث • هـذا وفى الكتاب خريطتان احداهما لمصر

والاخرى لبلاد العرب والعراق وايران قدبنيت فيهما مراكز صناعة النسيج فى العصر الاسلامى .

وبعد فأرجو أن أكون بهذه الكلمة الموجزة قد وفقت الى توجيه النظر الى هذا الكتاب القيم ، ولعل فى صدوره مايحفز أولى الامر فى متحف الفن الاسلامى بالقاهرة الى العمل على نشر ما فى ذلك المتحف من كنوز مجهولة للكثيرين ، فان فى هذا النشر أكبر خدمة للباحثين لاسيما المشتغلين بالتاريخ الاسلامى عامة وبالتاريخ المصرى الاسلامى خاصة الذى لا يزال يفتقر الى الكثير من العناية والدراسة .

المكانة الادبية لڤيرچيل
شاعر اللاتينية
كما نراها نحن وكما يراها النقاد

للدكتور حسن عون

لم يحظ بالشهرة أحد من شعراء العالم قديما بمثل ماحظى هوميروس ، شاعر اليونانية ، وڤيرچيل شاعر اللاتينية . هذه حقيقة ينبغى أن نقدم بها البحث ، ونقررها أولا قبل أن نبحث عن مصدرها ونتعرض لمناقشتها . بل آننا لا نبالغ حين نقول ان شهرة ڤيرچيل بالنسبة لشاعر اليونانية كانت أبعد مدى وأعمق أثرا : أبعد مدى لأنها لم تجعل منه شاعرا ممتازا فقط ولا شاعرا انسانيا فقط بل جعلته نبيا من أنبياء الشعر يتحدث عن المستقبل فلا تكذبه الاحداث كما سيتبين ذلك بعد قليل ، وأعمق أثرا لان كل من جاء بعده من شعراء اللاتينية حتى العصور الوسطى ، بل وكثيرا من شعراء العصر الحديث يعتبرون تلامذة له وعالة عليه .

كانت شهرة ڤيرچيل مبكرة ، اذ أنه بدأ يسترعى الانظار وهو لا يزال تلميذا فى مدرسة Grémone ، ثم انه حين أحس ، وهو الفقير النشأة والرقيق الحال ، بأن المنطقة كلها التى نشأ فيها تضيق بشهرته وبما كان يمنى به نفسه من مكانة أدبية رفيعة ، لم يتردد فى الذهاب الى روما ، عاصمة العلم والسياسة والادب .

وهناك فى هذه المدينة الصاخبة وفى ذلك الوسط الزاخر بأعلام الادب والشعر لم تتعثر شهرة ڤيرچيل بالرغم من ضعة أصله ومن صغر سنه ، بل درس على أكبر الاساتذة واتصل برجال الحكم وبرز فى ميادين الادب ولم يمض عليه سوى بضع سنوات حتى وقف فى مسرح العاصمة ينشد الناس من شعره فصفقت له روما بأسرها ونادى به الشعب زعيم الشعراء وهو لم يتجاوز نيفا وعشرين سنة «[1]»

---

(١) هذا ماذكره المؤرخ اللاتينى ـ P. Cornelius Tacitus فى مقدمة كتابه ـ Dialogus de oratoribus . وكذلك ـ Suétone- Donat فى الفصل ١٣ من كتابه عن ڤرچيل . وكذلك Servius فى الفصل ٦ من تعليقه على Bucoliques

ومنـذ تلك اللحظة يتسابق رجال السياسة فى التقرب اليـه وفى بذل ما يستطيعون من وعود وأموال لكى يعتنق مبادئهم ويستخدم داعيـة من دعاتهم • وأخيرا نجح أنصار الامبراطور أوغسطس فى أن يجتـذبوه اليهم ويكلوا اليـه رسالة روما السياسية والاجتماعية يقف نفسه عليها ويسخر ملكاته الشعرية فى الدعوة اليها •

أصبح ڤيرچيل بعد أن احتضنته السياسة شاعر الشعب الرومانى بأسره يقول فتردد صدى قوله مدن ايطاليا كلها ، ويدعو الى الاصلاح المنشـود فيتغلغل صدى تلك الدعوة فى أعماق الريف ، الا أنه قد أصبح أيضا منذ ذلك الحين لا يعمل الا بوحى من السياسة وبالهام من رجال الحكم ، فنراه ينظم ديوانه Bucoliques بوحى من Pollion وديوانه Georgiques بوحى من Maecenas وأخيرا ملحمة « Eneide » بوحى من الامبراطور أوغسطس «[1]» •

وفوق ذلك فقد بلغ من أثر السياسة عليه أن استباح لنفسه التنكر لبعض أصدقائه الذين آزروه فى أوقات محنته «[2]» • ولنترك هذه المسألة جانبـا وندعها لمن يريد أن يدرس أثر السياسة فى الأدب وما ينبغى أن يكون عليه موقف الاديب بالنسبة لرجال الحكم •

لم نعثر فى تاريخ الادب اللاتينى ولا فيما تركه الكتاب اللاتينيون على نص يفهم منه أن واحدا من الشعراء المعاصرين لڤيرچيل كان ينافسه الشهرة

---

(١) يروى أن Pollion اقترح على ڤيرچيل ان ينظم ديوانا فى الشعر خاصا بحيـاة الرعاة على نمط ديوان شاعر يونانى من جزيرة صقليـة يسمى Théocrite وان Maecenas اقترح عليـه نظم ديوان خاص بأعمـال الفلاحة ، وان اوغسطس اقترح عليـه نظم ملحمة فى تاريخ الشعب الرومانى فلبى الشاعر كل ما طلب .

(٢) اشارة الى Cor. Gallus الذى كان من اصدقاء ڤيرچيـل حينما تولى هذا ولاية مصر ونزع الى الاستقلال بها غضب عليـه أوغسطس فانتحر وكان ڤيرچيل قد كتب ثناء عن هذا الصديق فى ديوان Géorgiques ولكن بعد هذه الحوادث حذف من الديوان هذا الجزء واستبدله بموضوع آخر

أو يساميه فى المكانة الادبية ، ومعنى هذا أن الكل كان يعترف له بالاولوية فى الشعر ويسلم له أمر الزعامة فيه. ولذا فقد استمر طول حياته محاطا بهالة من الاحترام وموضعا للتقدير من جميع الطبقات : أما رجال السياسة فكانوا يرون فيه الداعية المسموع الكلمة ، وأما رجال الادب فكانوا يرون فيه الشاعر الانسانى الفنان ، وأما طبقات الشعب فكانوا يرون فيه الشاعر القروى المؤمن . ولقد ظهر أثر ذلك كله بعد الموت مباشرة ، ولعل أول مظهر من ذلك هو ما أبداه الامبراطور أوغسطس من الحرص الشديد على نشر ديوان Eneide دون أن تضاف اليه كلمة ولا أن يغير فيه موضع بيت من الشعر مهما كان فيه من اضطراب ومهما بدا عليه من نقص فى بعض الابيات، وذلك بالرغم من وصية الشاعر نفسه بأن يحرق هذا الديوان بعد موته«[١]» .

ولم يكد ڤيرچيل يتوارى عن الانظار حتى أصبحت دواوينه الثلاثة ميدانا للبحث بين العلماء والادباء ، وموضوعا للدرس بين الاساتذة والطلاب فالادباء اتخذوها مثلا أعلى لفن الشعر ينهجون نهجها فى الافكار والمعانى ، ويقلدونها فى كثير من الالفاظ والتراكيب «[٢]» ، والنحاة اتخذوها مثلا أعلى فى نقاء اللغة وجمال الاسلوب يبنون كثيرا من قواعدهم عليها ويستمدون أمثلتهم منها ، وأما الطلاب فقد اتخذوها مثلا أعلى كذلك فى سهولة المعانى مع فخامة الالفاظ ، وفى عذوبة الموسيقى مع صحة الاوزان الشعرية يحفظون منها ما يقوم لسانهم ، ثم يعيدون من محفوظهم فى مختلف المناسبات ما يقوى حجتهم ، ويزين أحاديثهم . بل أن هذا النزوع الى تقدير الآثار الشعرية لڤيرچيل قد ظهرت بوادره وهو لايزال حيا ، اذ قررت دراسة ما ظهر منها ضمن ماكان يدرس فى المدارس للطلاب «[٣]» .

---

(١) انظر ما كتبه Suetone-Donat فى الفصل ٣٩ من كتابه عن ڤيرچيل ، وكذلك ماكتبه Servius عن حياة ڤيرچيل ، ثم ما كتبه فى هذا الموضوع Fredric Plessis فى كتابه La poésie latine ص٢١٩ ــ ٢٢٠.

(٢) كثير هم الشعراء المقلدون لڤيرچيل ، وهم يختلفون فى درجات التقليد ولعل اخصهم فى هذا هو الشاعر Silius Italicus الذى عاش فى أيام حكم الاباطرة وقد لعب دورا سياسيا هاما تحت حكم Néron Vespasien

(٣) أنظر Histoire illustrée de la lit.- latine للاستاذ Jules Humbert ص ٢٠٢

وهكذا أصبحت آثار ڤيرچيل قرآنا بالنسبة للغة اللاتينية ، اذ أنها بواسطة ما كان يحفظ منها منعت هذه اللغة من الانحلال ، وحفظت لها سلامتها وبقاءها بالرغم مما أصاب الشعب الرومانى من تدهور واضمحلال ومما تعرضت له اللغة نفسها من ضعف نتيجة للصراع اللغوى مع الشعوب الاخرى .

ولقد بقيت هذه الآثار محتفظة بما فيها من حيوية وبما لها من مكانة أدبية أثناء العصور الوسطى ، بل لقد زاد من هذا ذلك المظهر الروحى الذى بدأ الناس يحيطون به ڤيرچيل ، فكانوا اذا أرادوا الاقدام على أمر أو اكتشاف ما يخبئه الغد لجئوا الى دواوين ڤيرچيل ففتحوا منها صفحة عن طريق الصدفة ثم قرؤوا أول بيت من الشعر ، وما يدل عليه ذلك البيت كان بالنسبة لما يستوضحونه بشيرا أو نذيرا . وهذا المعنى هو ما يشير اليه ذلك الاصطلاح : sortes virgilianae الحظوظ أو الاقدار الڤيرچيلية » .

ولقد دعم المسيحيون فى العصور الوسطى هذا المعنى حينما جعلوا من ڤيرچيل شاعرا متنبئا ، اذ أنه بشر بالمسيح قبل مولده ، ذلك أن الشاعر فى القصيدة الرابعة من ديوانه Bucoliques الذى نظمه فيما بين سنة ٤٢ و ٣٧ قبل الميلاد ، يتحدث عن مولد طفل يحكم الدنيا ويعيد الى العالم السلام ويكون عهده ايذانا بعودة العدل الى الارض ، والعصر الذهبى الى الانسانية كلها . ولم يعرف على وجه التحقيق حتى الآن ماذا كان يقصده الشاعر من ذلك الطفل ، وقد اختلفت وجهة نظر العلماء والباحثين فى ذلك المقصود ولكن يعنينا أن نسجل هنا وجهة نظر المسيحيين لنرى الى أى حد كان ڤيرچيل يتمتع بالشهرة أثناء العصور الوسطى ، والمسيحيون كثرة لا قلة ، ولم يكن ذلك فى الغرب وحده ولكن فى الشرق أيضا .

ثم اذا أشرفنا على العصور الحديثة رأينا الشاعر ينعم بمثل ما كان ينعم به من شهرة ومكانة أدبية فى العصور القديمة والوسطى ، ورأينا آثاره

الادبية كذلك تحتفظ بما كان لها قديما من حيوية وعظمة وتقدير ، فها هو ذا دانت Dante «[1]» صاحب ــ المسرحية الالهية ــ La Divine Comédie يقتفى أثر ڤيرچيل فى ميدان الشعر ويتخذه أستاذا فى تخير الالفاظ ، وسعة الخيال ، واتقان الصور الفنية ، ثم أنه فى مسرحيته هذه يتخذه هاديا ومرشدا فى زيارته للدار الآخرة كما تصورها ، وهو فى تصويره لها يستمد ، من غير شك ، كثيرا من أفكاره وأوصافه من تلك الصورة الرائعة التى رسمها للجحيم ڤيرچيل فى جزء من أجزاء ملحمته Eneide .

وكلما تغلغلنا فى العصور الحديثة مقتربين من القرن العشرين وجدنا مكانة الشاعر اللاتينى تسمو ، ومجده الادبى يزيد مع الزمن ، فيتجه الغرب الى العناية به ودرس شعره ، ويتسابق الناس على حفظ آثاره والاقتباس منها ، ولا توجد جامعة من جامعات الغرب دون أن يكون ڤيرچيل هو أساس الدراسات القديمة فيها ، ولا يكاد يوجد مثقف من مثقفى الغرب دون أن يكون قد عرف شيئا عن ڤيرچيل وعن آثاره الشعرية .

وهكذا أصبح ڤيرچيل هدفا لانواع عديدة من الدراسات ، ومنهلا للمثقفين من العلماء والادباء فالمؤرخون ومن يعنيهم أمر الدين عند القدماء يجدون فى آثاره دائرة معارف ، والأدباء الكلاسيكيون يتلمسون فيها المثل الاعلى لجمال الذوق ، وحسن السبك ، وعذوبة المعنى ، ونبل الافكار ، والرومانطيقيون يدهشهم ما يجدونه فيها من تلك العاطفة الحزينة ، ومن ذلك الخيال الحالم ، ومن هذا الحب العنيف للطبيعة وما تتجمل به من سهول وغابات وأنهار وجبال .

---

(1) يعتبر Dante شاعر ايطاليا العظيم فى اثناء القرن الرابع عشر ، ولد سنة ١٢٦٥ ومات سنة ١٣٢١ م . واثره الادبى الخالد هى تلك المسرحية الالهية Divine Comédie وهى تنقسم الى ثلاثة فصول : الاول يتناول وصف الجحيم والثانى يتناول وصف الاعراف او دار التطهير من الخطايا والثالث يتناول وصف الفردوس .

وان الاحتفال الذى أقيم فى سنة ١٩٣٠ ميلادية لمناسبة مرور ألفى عام على مولد ڤيرچيل ليعتبر دليلا بينا على أن شهرة الشاعر اللاتينى لم تنقطع ، وأن عناية الناس به وبآثاره لم تضعف ولقد صوره الادباء فى هذا الحفل كالعنوان البارز للادب اللاتينى ، والممثل الاول للفكرة اللاتينيـــة ، والمعبر الصادق عن روح الشعب اللاتينى ، ولذا فقد كان هذا الحفل عيدا للاتينية كلها ممثلة فى شاعرها الكبير «[١]» .

وهناك ظاهرة أخرى بعيدة الدلالة على ما كان يحفظه الشعب الرومانى لڤيرچيل من مكانة أدبية سامية وما يكنه لى من قداسة واحترام ، ذلك هو موقف الرومانيين منه بعد الموت ونظرتهم الى مقبرته ، فقد كادوا يتخذونه الها تقرب له القرابين ، ويجعلون من قبره معبدا تهرع اليه الناس بالدعوات . مكانة لم تتوفر لشاعر من قبله ، ومنزلة لا تقل عن منازل القديسين . وهاهى ذى أمارات ذلك التقدير :

مات ڤيرچيل فى Brindes ونقل رفاته الى نابل ، ثم دفن فى ضواحى هذه المدينة على الطريق الى Pouzzoles سنة ١٩ قبل الميلاد ، وفى القرن الاول بعد الميلاد نقرأ وصفا لهذه المقبرة فى شعر Statius حيث يقول انها ليست مقبرة ولكنها معبد «[٢]» .

وهناك شاعر لاتينى آخر ، هو silius italicus كان كثيرا مايفخر بأن المقبرة التى تضم رفات ڤيرچيـــل تقع فى ممتلكاته ويذهب فى تقديسه لهذا الرفات الى درجة أن يقدم لهذه المقبرة فى كل سنة قربانا «[٣]» .

هذه صورة عاجلة لمكانة ڤيرچيل الادبية أثناء حياته وبعد موته ، وعرض سريع لما حظيت به آثاره من العناية والدرس فى العصور القديمة، والوسطى

---

(١) انظر Histore illustrée de la litt. latine لمؤلفه Jules Humbert ص ٢٠٢

(٢) البيت ٥٤ من المقطوعة الرابعــة فى الـكتاب الرابع من ديوانه « شعر المناسبات » : Silves, IV, 4, 54

(٣) J. Humbert - Hist. illustrée de la lit. latine. page 179 et page 297.

والحـديثة وقـد تحاشينا فيهما ، ما أمكن ، الاطالة بضرب الأمثلة وذكر النصوص واكتفينا بسرد الحقائق مجردة عن الاطناب •

وبعد فما هو سر تلك العظمة ؟ وبأى الوسائل استطاع ڤيرچيل أن يكون لنفسه هذه المكانة الادبية الخالدة ؟ وما هو مصدر ذلك التقدير الذى ناله من طبقات الشعب الرومانى على اختلافها : تقـدير من الطبقـة الحاكمة ، تقدير من الطبقة المثقفة ، تقدير من الطبقات البسيطة ما بين زراع ، وصناع وملاك صغار ؟ هذه هى الاسئلة التى يعنينا أن نجيب عنها الآن ، وقد كنا فى أثناء اطلاعنـا على الآثار اللاتينية لا نملك الا الدهشة لما نجده فى ميادين الثقافة اللاتينيـة من اجماع على تقدير ڤيرچيل والاشادة باسمه ، والتغنى بآثاره • وفى الاجابة عن هذه الاسئلة سنحاول جهدنا أن نعبر عن احساسنا الخاص، وتقديرنا الشخصى اللذين ــ نبيح لانفسنا أن نقول ــ اكتسبناهما نتيجة اطلاع عشر سنوات متوالية لا فى دائرة الادب اللاتينى وحده ، ولكن فى دائرة المعارف اللاتينية كلهـا من لغة وميثولوچيا ، وفلسفة ، وتاريخ ، وقانون •

لم يكن ڤيرچيل ملهما ، ولا نبيا كما ذهب بعض المسيحيين فى العصور الوسطى ، وأمر الطفل الذى تحدث عنه لا يعدو أن يكون جولة من جولات الخيال عند الشعراء ، وما ينبغى للبحث العلمى أو النقد الادبى أن يتقيـد بمثل هـذا ، ولا أن تكون مكانة الشاعر الاديبـة مستمدة من مثل ذلك الخيال ، ولكنها النزعة الدينية عنـد رجال الدين الذين يريدون أن يروا أثرها فى كل شىء وأن يتبنوا من أجلها كل عظيم •

لم يكن ڤيرچيل أيضا مفطورا على قول الشعر حتى يغدو ما لكا لزمامه متصرفا فى أمره ، ولكن كان هو نفسـه ملكا للشعر يسخر له احساسـه ، وعواطفه، وخياله ، وكل مالديه من معارف ، وطريقته فى نظم الشعر تصوره صانعا لا مفطورا •

نظم ڤيرچيل أكبر وآخر ديوان له فى الشعر ، وهو ملحمته Eneide .
فى خلال عشر سنوات تقريبا ، من سنة ٢٩ الى ١٩ قبل الميلاد ، وقبل أن يبدأ فى النظم وضع هيكل الملحمـة وكتبها نثرا ، ثم أخذ ينظم هذه الافكار ، وبعد عشر سنوات فى سبيل النظم والمراجعة والتهذيب والاصلاح لم يستطع أن يفرغ من الملحمة بالطريقة التى يطمئن اليها ويرضى عنها ، ولهذا فقد رغب فى احراقها قبل موته ولما تعذر عليه الحصول عليها أوصى بأن تحرق بعد موته ولولا حرص الامبراطور أوغسطس على هذه الملحمة ، وعنايته بها أو رفضه لتنفيذ وصية ڤيرچيل لحرم الادب اللاتينى من أجل أثر فيه . ولكن حينما جمعت نصوصها ونشرت كما هى دون زيادة ولا اصلاح وجد فيها ٥٧ بيتا من الشعر لم يكن قد انتهى من اكمالها وصوغها .

وكذلك الامر فى ديوانيـه الآخرين ، اذ أنه نظم Bucoliques فى المدة المحصورة بين سنة ٤٢ ، سنة ٣٧ قبل الميلاد ، مع أن الديوان جميعه لايزيد عن ٨٣٠ بيتا من الشعر .

أما ديوانه الثانى Georgiques فقد نظمه فى المدة بين سنة ٣٧ ، ٣٠ قبل الميلاد وهو لايحتوى على أكثر من ٢١٨٧ بيتا من الشعر .

المسألة اذن واضحة لا تحتاج الى تسصيل أكثر ولا الى تعليل آخر لكى نثبت أن ڤيرچيل لم يكن مفطورا على قول الشعر يقوله دون تكلف وينظمه دون عناء ، وانما تعلم أسسه ، ومارسه ثم سخر نفسه فى صنعته حتى برع فيها الى درجة لايسمـو اليها سواه ، وهذا فى الواقع سر عظمته الادبيـة كما سنشرح ذلك بعد قليل .

لم يكن ڤيرچيل أيضا من ذوى العبقريات الخالقة فينعكس على نفسه يعيش بحسه أو يتجول فى عالم من احساس المجتمع الذى يحيط به فتترامى اليه موضوعات الشعر وينتج بوحى من نفسه ، ولكنه كان واحدا من أولئك الشعراء الذين لايعملون الا بوحى من غيرهم ، وشاهد ذلك أنه نظم ديوانه Bucoliques بارشاد Pollion فهو الذى وجهه الى هـذا النوع

من الشعر ، وطلب اليه أن ينظم للشعب الرومانى ديوانا من الشعر على نمط ديوان الشاعر اليونانى الصقلى Théocrite وكذلك ديوانه Géorgiques كان بتوجيه ووحى من Maecenas وأما ملحمته Eneide فكانت، تلبية لرغبة الامبراطور أوغسطس »[1] .

لم يكن ڤيرچيل اذن متصفا بواحـدة من هذه الصفات التى كثيرا ما هيأت لاربابها من الشعراء سبيل الخلود الادبى ، ولكنه مع ذلك قد أخذ لهذا السبيل عدة أخرى شق بها طريقه ، ووصل بواسطتها الى غايته : ذلك أنه كما نراه نحن ، كان شاعرا فنانا . واذا وصفناه بالفنان فانما نعنى بذلك أوسع معنى تتحمله كلمة الفن ، ومن هنا فقط كانت عظمته فى الشعر .

كان ڤيرچيل مرهف الحس ، جميـل الذوق ، نبيـل العاطفة ، انسانى الادراك ، واسع الخيال ، قوى البيان وهو مع ذلك قـد طبعت نفسه على الحزن، تستثيره المآسى ، لانها قسم مشاع بين الكائنات، ولا تهيجه الافراح لانها حظ بين الطبقات ، وقد تمكنت منه كل هـذه الصفات حتى استطاع أن يسخرها طوعا فى خدمة فنه .

---

(١) يضاف الى هذا ان كثيرا من افكاره ، ومعانيه ومناظره الطبيعية التى وضعها فى هـذه الدواوين ، ماخوذ من الشعراء اليونانيين الذين قراهم واراد تقليدهم ، ومصادره فى ذلك معروفة مشهورة .

انظر Fredric Plessis- la poésie latine p. 217 و J. Humbert : Hist. illustrée de la Lit. Latine, p. 178—196.

اميل برهييه وكتابه الآخير فى الفلسفة المعاصرة

للدكتور نجيب بلدى

الاستاذ أميل برهييه أستاذ الفلسفة السابق بجامعة باريس وعضو المجمع العلمى الفرنسى ، ومن أقطاب الفلسفة وتاريخها . كان أول أستاذ للفلسفة بالجامعة المصرية ، عند افتتاحها عام ١٩٢٥ ، ثم جاءها عام ١٩٣١ . وكان له أعظم الأثر فى توجيه أول فوج من الطلاب المصريين فى الفلسفة فى مصر ، وفى فرنسا ثم غرس فى نفوسهم حب الفلسفة ، وأوقد فيهم الحماسة لموضوعاتها ومنهجها ومشكلاتها .

توفى هذا الرجل فى سن الخامسة والسبعين فى أوائل عام ١٩٥٢ . وكان حتى نهاية حياته شابا فى تفكيره ، حيا فى أحاديثه ، قويا فى دفاعه عن المثل العليا ، متحمسا للقيم الروحية ، عنيفا فى معارضته لاعدائها ، مستعدا للبحث عن الحقيقة واتخاذ شتى المناهج فى ذلك ، مضحيا بما اعتاده الفلاسفة من طرق ، دائبا على اختيار أحدثها وأبعدها عن المألوف حيثما وجد ضرورة لذلك . ولم يكن من بين الفلاسفة الفرنسيين من استطاع مثله مسايرة التيار العنيف الذى أحدثته فى العشرين سنة الأخيرة مختلف النظريات الفلسفية والعلمية الجديدة ، بل كان له السبق أحيانا على المفكرين الشبان أنفسهم فى التنبؤ عن خطر منهج جديد أو ثمرة بحث طريف .

وقد رأينا أن نقول كلمة فى مجلة كلية الآداب عن آخر كتاب«[1]» نشر له قبل وفاته ، يقص علينا فيه التغير العميق الذى اعترى الفكر الاوروبى المعاصر . والتغير ظاهر له فى موضوع الفلسفة ، فى منهجها ، وفى مختلف المواقف التى انتهت اليها .

---

[1] Emile Bréhier : *Les Thèmes Actuels de la Philosophie (Presses Universitaires de France, Paris 1951).*

وأغرب ماتظهره دراسة الفلسفة المعاصرة لهو مع تقارب أوجه النظر بين المحدثين والقدماء ، تباعد مواقف المعاصرين عن أولئك وهؤلاء : نعم قد إتخذ ديكارت « الانسان أو الأنا » نقطة بداية فى الفلسفة ، مخالفا فى ذلك برنامج الفلسفة القديمة والوسيطة التى أرجعت خصائص الانسان وطبيعته الى مبادىء الكون العامة والاساسية . الا أن ديكارت رأى فى الانسان كائنا حائزا على سلطة فكرية عظيمة وعلى قوانين ثابتة تجعل منه مركز الكون وأساس الموضوعات والعلوم معا . فكأن مبادىء الكون التى بحث عنها القدماء والوسيطون ، قد انتقلت عند المحدثين الى العقل الانسانى ، فطبعت عليه علامات الحقيقة الموضوعية طبعا نهائيا .

أما منهج المحدثين وخاصة ديكارت ، فهو بلا شك ابتكار طريف لم يعرفه القدماء ولا رجال العصور الوسطى : ولكنه مع ذلك ليس الا مظهر اكتمال العقل الواثق بنفسه ، الشاعر بتبعته ، المؤمن بثبات بنيانه وتركيبه . فاكتشافه متمش مع النظام الثابت الذى أجمع القدماء والمحدثون على أنه أساس العلم والمعرفة .

نعم ، قد انتهى الفلاسفة المحدثون وديكارت فى طليعتهم الى مواقف فلسفية تخالف نظريات الاقدمين أشد مخالفة . وأبلغ مظهر لهذا الاختلاف تلك النظريات التى أطلق عليها اسم « المثالية » ايديالزم (idéalisme) : بعضها يرجع العالم الى معانى النفس الفطرية ، والبعض الآخر يفترض الموضوعات ثمرة تركيب العقل لمادة خام لايدرى عن أصلها شيئا ، والبعض الاخير يرى فيها ثمرة تقدم العقل الانسانى وتطوره المطرد . الا أنه مهما كان من أمر هذا الاختلاف فان مواقف الفلسفة الحديثة من ديكارت حتى هيجل ، فيها دلالة واضحة ، على ايمان بالعقل الرشيد ، وبقوته وسيادته ، هذا العقل الذى رأى فيه بعض الاقدمين ، غاية العالم العليا ، والبعض الآخر مبدأ الحياة السارية فى الكون بأكمله .

أما المعاصرون، فجاءوا يتلمسون لذلك العقل المنظم المشروع سبيلا، فلم يجدوه • أما الانسان، ففى نظرهم، غير ذلك الذى تكلم عنه ديكارت •

يجمع المعاصرون على دراسة الانسان فى وجوده الواقعى، وينكرون ادعاء الذين رأوا فى العقل سلطة قائمة بذاتها، حاكمة فى الانسان والعالم • وليس الانسان كما تصور ديكارت كائنا مفكرا حصر تفكيره فى ذاته، وأغلق على نفسه نوافذ العالم اغلاقا محكما • كلا! ان الانسان فى صلة مستمرة «[1]»: فى صلة مع العالم المادى: جذور الانسان منبعثة منه، متأصلة فيه • فى صلة مع البدن، فلاقوانين خاصة بالبدن وحده، ولا بالنفس وحدها، وانما حياة مشتركة • فى صلة مع الغير: حتى أن المعتكف فى مخدعه لمدين للآخرين بحياته المادية، وموضوعات فكره وعلمه •

أنظر لفيلسوف مثل هوسرل (Husserl) تجده قد رفض ارجاع المعرفة الى فعل النفس وحدها أو الى فعل الموضوع وحده، واعتبر المعرفة حياة مشتركة، واعتبر الذات مركز علاقات فى تغير مستمر لاتخرج النفس، من احداها حتى تدخل فى أخرى •

أنظر الى جبرييل مارسيل، لم يفهم لأنا معنى مالم يثبت أمامها «أنت» ولم يقرر لأنا وجودا الا لانها قابلة لان تصبح «أنت» — أنظر الى الفلاسفة الوجوديين، وفى مقدمتهم هيديجر، تجدهم قد نبذوا الجوهر المفكر، المنفصل عن الجسم فى تفكيره، بل قد نبذوا الجوهر اطلاقا، وأحلوا محله وجودا هو أشبه الأشياء بالحقل المغنطيسى، مجال تأثر وتأثير «[2]» • درسوا الانسان كائنا « ملقى فى العالم » «[3]» كما قال بسكال، فى مغامرات مستمرة، لايخلص منها الا ليلقى نفسه وجها لوجه أمام الموت •

لو انتقلنا الآن للمنهج، لحظنا أنه لاسبيل لمعاصر أن يتخذ سنن راتبه متناسقة، كما هو الامر عند ديكارت، وان حل المشكلات لايفترض عناصر بسيطة يركبها العقل تركيبا منتظما • بل لابد من بحث كل مشكلة

(1) *Thêmes* p. 18
(2) p. 105
(3) p. 58.

على حدة ، فى ضوء المبادىء الصالحة لها ، دون سواها • وأمر هذا بين فى دراسة المعاصرين لمشكلات النفس أو المجتمع • وفى هذا الصدد يقارن الاستاذ برهييه بين منهج رجل مثل دوركهايم فى دراسة الظواهر الاجتماعية وطريقة عالم معاصر مثل ليفى ستروس : فبينما كان منهج دوركهايم استدلاليا تركيبيا ، نجد ليفى سرتوس يعتمد فى الاغلب على ملاحظات مباشرة، ويقف طويلا فى مرحلة وصف الوقائع ، دون الاستعجال الى تفسيرها، أو الى ارجاعها لمبادىء عامة — ولا نجد عند المعاصرين أيضا تلك الروح الطموحة التى نلحظها عند هيجل ، ولا الثقة الوطيدة فى المستقبل ، ولا ارادة توجيه السياسة أو الاقتصاد حسب نهج عقلى عام • ان نظرة الفيلسوف المعاصر ضيقة محدودة ، غير أنها فى بعض الاحيان نور وهاج يلقيه على الانسان وعلى النطاق الضيق القائم حوله •

وليس هناك أدل على اتخاذ طريق جديد ، من اختفاء عدة دراسات كانت شائعة عند المحدثين : فاختفى التحليل الذاتى البحت للنفس، وحل محله وصف للانسان فى اتصاله بالبدن والغير والله ، ولنقارن فى هذا الصدد بين يوميات رجل مثل أمييل (Amiel) عاش أثناء القرن التاسع عشر ، ويوميات المعاصر جبرييل مارسيل «١» • قد اختفى أيضا ما سمى منذ كنط « نظرية المعرفة » ، أى محاولة تحديد مبادىء أولية توجه العقل فى معرفة أى موضوع • ثم اختفت أخيرا جميع المحاولات العامة للتفسير ، كالنظرية الترابطية associationisme التى ترجو اقامة العالم على وقائع نفسية تافهة كالاحساس أو تداعى الخواطر «٢»

الا أن أهم مانلحظه هو اختفاء المثالية « ايديالزم » فى مختلف صورها• وكان من بين آخر ممثليها الاستاذ ليون براشفيج صديق برهييه وقد توفى عام ١٩٤٤ • كان هذا الاخير موقنا باستقلال العقل الداخلى ، وبقدرة النفس على حيازة جميع القيم وعلى ادراك الله تعالى ، دون أن تضطر فى ذلك

---

(1) Thêmes p. 19-20.
(2) p. 21

الى الخروج عن ذاتها وتهديد استقلالها الداخلي . الا أن التحليلات المعاصرة لاحوال المعرفة والعواطف دلت على أن التعدى «[1]» transcendance أو خروج النفس عن ذاتها ونطاقها ، هو فى أصل النفس ، ظاهر فى الادراك الحسى ، فى الحب والكراهية ، فى الصلاة والعبادة .

وبالجملة فحال الفلسفة اليوم غير حالها بالامس ، ولو رجع فيلسوف توفى من خمسين سنة الى الحياة والتفلسف ، وجب عليـه ابتداء كل شيء من جديد . وأغرب الامور أن الاستاذ برهييه كان عائشا وفيلسـوفا من خمسين سنة أو أكثر . وكان فى بداية تفكيره مسايرا لنزعات عصره ، مرتابا فى قيمة الفلسفات الجـديدة الناشئة . ولكن سرعان مارأيناه فى العشرين سنة الاخيرة من حياته ، يراجع مواقفه الواحد بعد الآخر ، وسرعان مارأيناه يعجب بطرق ومناهج لم تدخل تفكره فى حسبان ، ويسلم بنتائج كان أبعد الناس عن التسليم بها . ولم يكن مناقضا لنفسه فى ذلك ، بل كان دائبا على تحقيق رأى الاغريق فى الفلسفة ، وهو أنها حيـاة قبل أن تكون فكرا أو نظرا .

نجيب بلدى

(1) *Thêmes* p. 53-54; 58.

وليام پپر

(WILLIAM POPPER)

المستشرق الامريكى

للدكتور عزيز سوريال عطية

فى يوم ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٤٩ اجتمعت كلمة رهط من كبار المستشرقين والعلماء الامريكيين على اصدار مجلد[١] ضخم يقع فى قرابة خمسمائة صحيفة لاهدائه الى أستاذهم وزميلهم وليام پپر فى مناسبة بلوغه العام الخامس والسبعين من حياته الخصبة المليئة بجلائل الاعمال والخدمات العلمية فى ميدان الدراسات الشرقية بوجه عام ، واللغات السامية والعربية بوجه خاص ، فى أمريكا . وهم بهذا انما يقدمون تحية الجيل الجديد الى الجيل القديم ، ويضربون مثلا رائعا من مثل الاخلاص والولاء والتقدير وذكر الجميل لشيخ من شيوخهم ، لا عن طريق الخطابة واللفظ الاجوف ومصيره الى الزوال ، وانما عن طريق البحث والتنقيب والكشف عن غوامض العلوم والفنون ، التى طرق هو بابها من قبلهم فانفتح أمامه على مصراعيه ، فولجه وولجه من بعده تلاميذه الذين شاءت الاقدار والاخلاق أن يكتب لاسمائهم الخلود الى جوار أستاذهم بتخليد اسمه فى هذا السفر الجديد .

وقد قام بالاشراف على نشر هذا المجلد خلفه فى كرسى اللغات السامية وآدابها بجامعة كاليفورنيا بيركلى (Berkeley) المستشرق المعروف الاستاذ

---

(١) ظهر هذا المجلد بعد ذلك بحوالى سنتين تحت العنون الاتى :

Semitic and Oriental Studies Presented to William Popper. University of California Publications in Semitic Philology, Vol. XI. University of California Press. (Berkeley and Los Angeles 1951).

الدكتور والتر فيشيل (Fischel) ، واشترك فى تحريره أربعة وثلاثون باحثا ، يطيح الذهن عند استعراض بحوثهم ، التى كادت تشمل المشرق والمغرب من اليابان والصين على شاطىء المحيط الهادى الى كاليفورنيا وسان فرنسسكو على الشاطىء الآخر من ذلك المحيط ، ولكن عبر العالمين القديم والجديد .

وان مجلدا كهذا ليصدع الانسان بتعدد مناحى موضوعاته ، وتباين طبائعها ، وتباعد ميادينها ، الى حد يدفعنى الى الاعتراف بعجزى عن الالمام بأطرافه ، ومطالعة ما تفيض به صفحاته فى جملتها مطالعة مستنيرة من أولها لآخرها . وهذا المجلد ان دل على شىء اذن فهو انما يدل على قدر المهدى اليه وعلمه وفضله وأثره فى سجل العلم والخلود .

قابلت وليام پپر بعد ظهر يوم من أيام الربيع الفائت بمنزله الخشبى على ربوة من ربى مدينة بركلى الجامعية ، تحيط به الحدائق الغناء ، ويشمله الهدوء التام ، وكان الدكتور فيشيل فى صحبتى ، فاستقبلنا بابتسامته الساحرة رغم ما كان يتولاه من ألم بدنى على أثر كسر فى عظم ساقه وهو يتنقل بين أرجاء الجامعة سعيا وراء الكتب والمراجع بسرعة لم تتحملها سنه مهما تحملها عقله الفتى . وكان پپر مسلما مرحبا باللغة العربية الفصحى ، تجاذبنا أطراف الحديث زهاء الساعة بالانجليزية والعربية على السواء ، وقال لى أن أغلب الاعمال التى يضطلع بها فى شيخوخته نبتت فكرتها عنده وهو فى صدد نشر كتاب « النجوم الزاهرة » منذ أربعين عاما خلت ، ولم يسعفه الزمن والجهد لتحقيقها مع أعبائه الجامعية ، أما وقد تقاعد عن الجامعة فهو الآن يسعى فى تحقيقها واخراجها الى حيز الوجود ، وأول دراساته فى ابن تغرى بردى « كتاب مقياس النيل » .

وكان وليام پپر فى السابعة والسبعين عندما رأيته ، وهو قصير القامة ، نحيل الجسم ، حليق الوجه ، كبير الرأس ، أشيب الشعر ، عاش للعلم والساميات ، كما يعيش لها اليوم فى خلوته . ولد فى سانت لويس (St. Louis)

من مقاطعة مسورى (Missouri) فى يوم ٢٩ أكتوبر سنة ١٨٧٤ ، ودرس اللغات السامية بجامعة كولمبيا فى نيويورك تحت اشراف الاستاذ رتشارد جوتيل (Richard Gottheil) ، وأحرز فيها درجة البكالوريوس (A.B.) سنة ١٨٩٦ ، ودرجة الماجستير (M.A.) سنة ١٨٩٧ ، والدكتوراه (PH. D.) سنة ١٨٩٩ — وبعدئذ أمضى أعواما ثلاثة فى جولات واسعة بأوربا والشرق الأوسط ، حضر أثناءها على جهابذة العصر من المستشرقين الاوربيين أمثال يوتنج (Euting) ونولدكه (Noeldake) ودرنبورج (Derenbourg) وغيرهم ، ثم قضى السنة الاخيرة (١٩٠١ — ١٩٠٢) من تلك البعثة فى زيارة بعض أقطار الشرق الاوسط وهى مصر وسوريا وفلسطين والعراق ، حتى يتيح بذلك لنفسه فرصة تطبيق العلم على العمل ، ويقوم لسانه فى الحديث باللغة العربية مع أهلها من الناطقين بالضاد فى أوطانهم الاصلية .

فلما عاد الى وطنه ، بدأ حياته الاكاديمية بجامعة كولمبيا حيث اشتغل بالمحاضرة فى اللغات السامية مع أستاذه القديم ، كما انتدب رئيسا للقسم الشرقى من مكتبة نيويورك العامة ، واستمر فى هاتين الوظيفتين حتى سنة ١٩٠٥ ، حينما انتقل الى جامعة كاليفورنيا التى قضى فيها بقية أيام خدمته ، فعين مدرسا للغات السامية بها فى تلك السنة ، وأمضى بهذه الوظيفة عشرة أعوام كاملة حتى نضج نضوج العلماء ، وترقى أستاذا مساعدا فى سنة ١٩١٥ ثم أستاذا لكرسى اللغات السامية وآدابها سنة ١٩٣٢ وقد قارب الخمسين من عمره ، وظل يشغل هذا الكرسى حتى سنة ١٩٤٥ ، فلما تقاعد عن العمل بالجامعة انتخبه زملاؤه بالاجماع فى السنة ذاتها أستاذا فخريا بينهم (Professor Emeritus) لكى يكون له فى الجامعة مالهم من الحقوق ، وعليه من الواجبات مايضمن لهم الانتفاع بطويل خبرته وصائب توجيهاته .

وقد اتجه پپر منذ بداية عهده بالساميات الى الانصراف لدراسة أصول اللغتين العبرية والعربية ، وقطع فى هذا الميدان شوطا بعيدا ، وكتب ونشر فيهما الشىء الكثير ، وله نظريات وبحوث تحليلية فى أدب اللغة العبرية

القديم ، أهمها مؤلف معروف عن سفر أشعيا النبى «١» من كتب العهد القديم ، وقد كان لآرائه صدى هائل فى توضيح غوامض الفكر العبرانى ومعميات الاساليب الادبية بأشعار نبوة أشعيا . ولكن عمله الجبار انما يقع فى دائرة الدراسات العربية حيث قام بنشر كتاب « النجوم الزاهرة ، فى ملوك مصر والقاهرة » لابى المحاسن يوسف بن تغرى بردى «٢» من كبار مؤرخى القرن الخامس عشر الميلادى (توفى سنة ١٤٧٠ م) .

ولكتاب ابن تغرى بردى هذا قصة قديمة ، فقد كان أول من استلفت الانظار اليه المستشرقان الهولنديان خوينبول (Juynboll) وماتاس (Matthes) فى أواسط القرن الماضى ، فنشرا منه القسم الاول «٣» ، ثم انقطعا عنه الى أن ظهر المستشرق الفرنسى باربيه دى مينار (Barbier de Meynard) فنشر « استخراجات » منه بالعربية صحبها بترجمة فرنسية فى موسوعة الوثائق الخاصة بالحروب الصليبية «٤» بباريس سنة ١٨٨٤ — وبعدئذ أسدل الستار على كتاب « النجوم الزاهرة » ، وظل فى زوايا النسيان الى أن أحياه پپر بمواصلة العمل الاصلى الذى بدأه المستشرقان الهولنديان فأخذ فى نشر الجزء تلو الجزء ، منذ سنة ١٩٠٩ ، حتى أتم اصدار احدعشر مجلدا منه فى سنة ١٩٣٩ . وقد أردفه بكتاب آخر انتهى من نشره فى سنة ١٩٤٢ ويشتمل

---

(١) Parallelism in Isaiah. University of California Publications in Semitic Philology, Vol. I, Nos. 3 — 5, pp. 267 — 552. (Berkeley 1918 — 1923.)

(٢) Univeristy of California Publications in Semitic Philology. (Berkeley 1909 — 1942)
بدأ كتاب النجوم بالقسم الثانى من الجزء الثانى وانتهى فى الجزء السابع سنة ١٩٣٩ وقد ذيله بمنتخبات من كتاب « حوادث الدهور فى مدى الايام والشهور » لابن تغرى بردى ايضا — انظر كذلك البحث الذى نشره المؤلف فى موضوع لابن تغرى بردى وعنوانه :
« Hilâl as-Sâbi in ibn Taghri-Birdi's an-Nujûm Az-Zâhira », in Mélanges' Hartwig Derenbourg 1844 — 1908. (Paris 1909) pp. 237 — 243.

(٣) T.G.J. Juynboll and B.F. Matthes, vols. I and II part I. (Leiden 1855, 1861).

(٤) C.A.C. Barbier de Meynard, Extraits du Noudjoum ez-Zahireh. Recueil des Historiens des Croisades. Historiens Orientaux. (Paris 1884). Vol. III, pp. 475 — 509.

على منتخبات من كتاب «حوادث الدهور فى مدى الايام والشهور» الذى يعتبر مكملا لكتاب «النجوم الزاهرة» ، وقد قصد ابن تغرى بردى أن يجعل منه ذيلا لكتاب «السلوك لمعرفة دول الملوك» للمقريزى . ونظرا لاهمية كتاب «النجوم الزاهرة» كمنبع من منابع التاريخ المصرى الوسيط ، عمدت دار الكتب فى القاهرة الى اصدار طبعة مصرية «[1]» منه لتجعله فى متناول القراء المصريين .

وللاستاذ پپر رسالة أخرى فى سنى تقاعده ، وابتعاده عن التدريس والاعباء الجامعية ، والتفرغ للعمل العلمى البحت ، وتدور هذه الرسالة حول ابن تغرى بردى ، فهو يزمع اصدار سلسلة من الدراسات والبحوث التاريخية التى استوحاها من نشر نص « النجوم الزاهرة » . وقد بدأ هذه السلسلة بمجلد أول موضوعه « مقياس النيل » «[2]» ، وهو أكمل ماكتبه كاتب عن المقياس ، صاغه مؤلفه فى أسلوب علمى يمتاز بالدقة الرياضية التى بناها على منطق الارقام ، فجاء هذا الكتاب العجيب نموذجا من نماذج البحث فى التاريخ والآثار والجغرافيا التاريخية يكاد لايدانى . وقد قسم المؤلف هذا الكتاب الى قسمين كبيرين : الاول عن تاريخ المقياس ووصفه منذ أقدم العصور ، والثانى عن الاحصاءات المتعلقة بمياه النهر فى ارتفاعها وانخفاضها ، وقد جمعها منذ الفتح العربى ٦٤١ م الى أخريات القرن الماضى فى سنة ١٨٩٠ م .

ويذكر فى صدر القسم الاول تطور المقياس وانتقاله من مكان الى مكان ، ويتضح من روايته أنه أنشئت فى عصور مختلفة سبعة مقاييس مستقلة بمنطقة القاهرة وما حواليها ، وهى الآتية :

---

(١) ظهر من هذه الطبعة بين سنة ١٩٢٩ وسنة ١٩٤٩ عشرة مجلدات وآخر ماوصلت اليه سنة ٧٥٨ هـ .

(٢) The Cairo Nilometer. Studies in Ibn Taghri Birdi's Chronicles of Egypt : I. University of California Publications in Semitic Philology, Vol. 12. (Berkeley and Los Angeles 1951.) Pages xi, 269.

(١) مقياس منف ، وكانت آثاره لاتزال ظـاهرة حتى القرن الخامس عشر ، وقد قيل ان قراءاته كانت تؤخذ زهاء قرن ونصف قرن بعد الفتح العربى لمصر سنة ٦٤١ م .

(٢) مقياس « قيسارية الاكسية » وكان واقعا بمصر القديمة على مقربة من حصن بابيلون ، وأمره غامض ، وقـد ورد ذكره فى ياقوت والمقريزى وابن تغرى بردى ، ثم عفت معالمه فى صدر العصر الاسلامى .

(٣) مقياس « قصر الشمع » أو حصن بابيلون بمصر القديمة وكانت مياه النيل واصلة اليه فى ذلك الوقت .

(٤) مقياس حلوان ، أنشأه عبد العزيز بن مروان عندما نزح بعاصمة البلاد من مصر القديمة الى بقعة تبعد عشرة أميال جنوبها ، فابتنى المقياس الجديد بالعاصمة الجديدة هنالك مابين سنتى ٦٥—٨٦ هـ / ٦٨٥—٧٠٥م.

(٥) مقياس الروضة الواقع على الطرف الجنوبى من الجزيرة ، بنـاه أصلا فى سنة ٧١٥ م أسـامة بن زيد التنوخى أمير الخراج فى عهد الوليد (٨٦ — ٩٦ هـ / ٧٠٥ — ٧١٥ م) وسليمان بن عبد الملك (٩٦ — ٩٩هـ / ٧١٥ — ٧١٧ م) ، ثم تجدد أو بنى آخر غيره فى نفس المكان فى عهد المتوكل سنة ٨٦١ م .

(٦) مقياس الروضة الغربى بناه أحمد بن طولون مابين ٨٦٨ و ٨٨٣ م على مسافة قدرها نصف ميل من المقياس الجنوبى على شـاطىء الجزيرة الغربى حيث يقال أن آثاره ظلت شاخصة للعيان حتى سنة ١٨٠٠ م ، وكان المقصود من بنائه ضبط القياس عندما تهب الرياح الجنوبية وتعلو الامواج فى المقياس الجنوبى .

(٧) مقياس الخازن عند مرسى السفن على شاطىء مصر القديمة ، بنى فى عهد الاخشيديين بين ٣٢٣—٣٥٧ هـ / ٩٣٥—٩٦٨ م ، ويقال ان اسم

بانيــه أبو بكر محمــد بن عبد الله الخازن ، وذكره ياقوت وابن دقمــاق وابن تغرى بردى وغيرهم ، وقد عفت معالمه ولم يعثر له على أثر ٠

ولاشك أن أهم هذه المقاييس وأبقاها هو مقياس الروضة الجنوبى ، وقد أفرد له المؤلف فصلا جمع فيه ماقيل فى وصفه من الاصول التاريخية ، واتبع فى علاج موضوعه طريقة لها طرافتها ، اذبدأ بالكتاب المحــدثين فى القرن التاسع عشر ورجع القهقرى الى القرن التاسع الميلادى ، فأخذ عن لوپير (Le Père) ومارسيل (Marcel) سنة ١٧٩٨ـــ١٨٠٠م فى الحملة الفرنسية، ثم الاسحاقى سنة ١٦٢٣ م فالمقريزى فى القرن الخامس عشر ، وابن دقماق حوالى سنة ١٤٠٠م ، وابن ايبك سنة ١٣٣٣م ، وابن خلكان سنة ١٢٥٦ م، والقزوينى فى القرن الثالث عشر ، وابن جبير سنــة ١١٨٣ م ، والادريسى حوالى ١١٥٤م ، والمسعودى ســنة ٩٤٣ ـــ ٩٤٤ م ، واحمد بن الحاسب سنة ٨٦١ م ، وديونيسيوس الانطاكى بطريرك اليعاقبة سنة ٨٣٢ م ٠

وبعد أن يتحدث المؤلف عن النقوش التى على المقياس ، وعن ارتفاع الفيضان الى الستة عشر ذراعا التقليدية لجباية الخراج ، وعن شق الخليج، وغير ذلك من الموضوعات ، ينتقل الى القسم الثانى وهو القسم الاكبر من الكتاب ، جله عن أحصاء أرقام ارتفاع مياه النيل من الأصول التاريخيــة فى بابين : أولهما يشتمل على الارقام التى وردت فى كتابات ابن تغرى بردى وابن الحجازى وابن اياس وابن ايبك وابن الفرات وابن الفخرى والمقريزى والقلقشندى وعبد اللطيف البغدادى والمسعودى عن الفترة التالية للفتح العربى من سنة ٦٤١ م الى سنة ١٥٢٢ م ٠ وثانيهما من سنة ١٥٢٣ م الى سنة ١٨٩٠ م أخذ أرقام جداولها عن على باشا مبارك والامير عمر طوسون وبعض الرحالة الاوربيين ٠

وعلى ضوء تلك الجداول يدرس المؤلف النهايات العظمى والصغرى للفيضان بالذراع والاصبع ، ويقارن بعضها ببعض ، من عام الى عام ، ومن عصر الى عصر ، ويطلع من هــذه البحوث الطويلة المضنيــة بست نتــائج

يجملها فى مقدمة الكتاب لتصحيح الاوضاع الشائعة عن المقياس ، والذبذبة الحاصلة فى ضبط طول الذراع والاختلاف فى تقديره من عهد الى عهد ، وعن تحديد نقطة الصفر التى يبـدأ منها القياس فى قاع بئر المقيـاس ، وسلسلة التقاويم التى يرتبط بها تاريخ الفيضـان ، والحكم على تكامل الفيضان عندما تصل مياهه الى الستة عشر ذراعا التقليدية ، والارتفـاع المضطرد فى قاع النهر بتراكم الغرين وما يترتب عليـه من ارتفـاع سطح مياهه . وكل هذه مشكلات كبرى يعجب القارىء كل العجب اذ يدرك أن كاتبها وصل الى تحقيقها من مصادر أدبية فى وقت لم تكن العلوم الرياضية والهندسة المدنية قد بلغت فيه شأوا يمكن الباحث من معالجة هذا الموضوع دون كبير عناء .

لاغرابة اذن أن يكون وليام پپر فى شيخوخته موضع تبجيل تلاميـذه وزملائه وأصدقائه الكثيرين الذين لم يترددوا لحظة فى المساهمة فى ذلك المجلد العلمى الكبير فى الدراسات الشرقية والسامية لاهدائه اليه . ويشتمل هذا المجلد على أربعة وثلاثين مقالا ليس من اليسير أن نلم بتحليلها فى هذه الصفحات العابرة ، ونكتفى بالتدليل على بعضها «١» مما نظن أنه يهم أغلبية قراء العربية فيما يلى من السطور :

Peter A. Boodberg : Three Notes on T'u- chùch Turks. Pages 1 —11.
Walter J. Fischel : Ibn Khaldùn's Activities in Mamluk Egypt (1382 —1406). Pages 103 — 123.

William M. Green : Augustine's Use of Punic. Pages 179 — 190.
Ernst H. Kantorowicz : Dante's « Two Suns ». Pages 217 — 231.
A.L. Kroeber : The Novel in Asia and Europe. Pages 233 — 241.
Waclaw Lednicki : Ex Oriente Lux (Mickiewicz and Pushkin). Pages 243 — 261.

C. Grant Loomis : The Genesis and the Influence of the Metrical Psalms of Martin Opitz. Pages 285 — 296.

Henry L. F. Lutz : Plaga Septentrionalis in Sumero - Akkadian Mythology. Pages 297 — 309.

Otto Maenchen - Helfen : Arabic Nomenclature in the Characters of Lope de Vega's Plays. Pages 339 — 343.

---

(١) ذكرنا البحوث التى لهـا علاقة بالشرق الاوسط مع اسماء مؤلفيهـا والصفحات التى ظهرت عليها فى هذا المجلد .

Leonardo Olschki : The Wise Men of the East in Oriental Traditions. Pages 375 — 395.

George Rentz : Pearling in the Persian Gulf. Pages 397 — 402.

Edward H. Schafer : Iranian Merchants in T'ang Dynasty Tales. Pages 403—422.

H.R.W. Smith : A. Meeting of East and West. Pages 423 — 427.

Ronald N. Walpole : Charlemagne's Journey to the East. — The French Translation of the Legend of Pierre de Bauvais. Pages 433 — 456 .

ومهما يكن من شيء فان هنالك ملاحظة أخيرة لابد من تسجيلها في ختام هذا المقال ، ألا وهي أن ظهور هذا الكتاب التذكاري الذي نحن بصدده جاء في نفس العام — عام ١٩٥١ — الذي طلع فيه وليم ﭙبر على الناس بكتابه « مقياس النيل » • ولهذا الاتفاق معناه ومغزاه ، فالرجل اذن لم يطو سجل جهاده العلمي بهذا التكريم أو التتويج ، ولو أن ذلك أصبح أمرا طبيعيا بعد أن توافر على نشر المجلدات تباعا زهاء مدة تربو على نصف قرن من حياته الزاخرة • بل أننا نراه اليوم في شيخوخته يواصل يومه بأمسه في الجد والاجتهاد والانتاج العلمي ، وهو يجاهر بأن كتاب المقياس الذي نشره وقد قارب نهاية الحلقة الثامنة من العمر انما هو الحلقة الاولى من سلسلة من الدراسات التي يعمل على اتمامها اذا أسعفته الايام وأمهلته الاقدار •

عزيز سوريال عطيه

تعليقـــات

على بعض الاشارات الفارسية فى الأشعار العربية

للدكتور طه ندا

فى الاشعار العربية كثير من الاشارات التى تتعلق بتاريخ الفرس او ادبهم او نظمهم او بيان ما كان لهم من حضارة على وجه عام . وفى هذه المقالة مثال لما فى هذه الاشعار من اشارات .

يقول خالد الفياض : ـ

والملك كسرى شهنشـاه تقنصـه ... سهم بريش جنـاح الموت مقطوب

اذا كان لذته شـبديز يركبـه ... وغنج شـيرين والديبـاج والطيب

بالنـار آلى يمينـا شـد ما غلظت ... ان من بدا فنعى الشبديز مصلوب

حتى اذا اصبح الشبديز منجـدلا ... وكان ما مثله فى الخيـل مركوب

ناحت عليـه من الاوتار اربعـة ... بالفارسـية نوحا فيـه تطريب

ورنم البهلبـذ الاوتار فالتهبت ... من سحر راحته اليسرى شآبيب

فقـال مات فقـالوا انت فهت به ... فاصبح الحنث عنه وهو مجذوب

لولا البهلبـذ والاوتار تنـدبه ... لم يستطع نعى شبديز المرازيب(١)

---

(١) معجم البلدان ج ٣ ص ٢٥٢ ط ليبزج .

الشهنشاه : الاشارة الاولى فى هذا الشعر هى « الشهنشاه ». والشهنشاه الذى يعنيه الشاعر هو خسرو پرويز او كسرى ابرويز كما يسميه العرب. ولكسرى ابرويز شأن يذكر فى حوادث العرب والمسلمين . وقد روى انه لما سمع ما لبنات النعمان بن المنذر ونساء اسرته من الحسن والجمال اراد ان يصهر اليه وارسل زيد بن عدى يفاتحه فى الامر وهو يظن ان النعمان سيلبى الطلب فخورا بهذا الشرف الذى يمنحه اياه كسرى العظيم . ولكن النعمان خيب ظن كسرى واعتذر لرسوله ، ووجد زيد الفرصة سانحة فأوغر على النعمان صدر الملك الذى بيت له الشر وأرجأ التنفيذ حتى لايفطن الى ما اراده به . وبعد زمن ورد الى النعمان كتاب كسرى يدعوه اليه فجمع النعمان اهله وماله وسلاحه وسار حتى نزل عند بنى شيبان فى ذى قار . وكان سيدها هانىء بن مسعود ابن عمرو الشيبانى فأودعه ماجمعه وتوجه الى كسرى الذى طرحه تحت اقدام الفيله فداسته حتى مات (١) . واستعمل بعده على الحيرة اياس بن قبيصة الطائى وكلفه ان يجمع ماخلفه النعمان وان يرسله اليه ، فبعث اياس الى هانىء يأمره ان يقدم اليه ما لديه من ودائع النعمان ، فابى هانىء ، فارسل اليهم كسرى جيشا كثيفا لقيه العرب عند ذى قار . ودارت بين الفريقين المعركة التى انتهت بانهزام العجم والتى تعرف فى تواريخ العرب بيوم ذى قار . واشعار العرب فى ذكر هذه الواقعة والفخر بها كثيرة . وقد ذكر ان النبى صلى الله عليه وسلم لما بلغه هذا النصر قال « هذا اول يوم انتصف العرب من العجم وبى نصروا » (٢) .

وكسرى ابرويز هو الذى ينسب اليه اغلب المؤرخين انه بنى ايوان المدائن المعروف . ولما فرغ من بنائه عقد عليه طاقا (٣) . وكان فى هذا الطاق حلقة كبيرة من الذهب يتدلى منها سلسلة من الذهب الاحمر مرصعة باللؤلؤ والجواهر فاذا جلس الملك فى الايوان علق تاجه من هذه السلسلة فيجلس تحت التاج على تخت العاج (٤) . وكان عند كسرى عدد كبير من الكهان والسحرة والمنجمين يجمعهم كلما احزنه امر لينظروا فى سببه وليجدوا له مخرجا منه . ولما بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم تداعى هذا الطاق فجزع كسرى ودعا كهانه

---

(١) فى رواية اخرى انه حبسه حتى مات .

(٢) ابن الاثير ج ١ ص ١٩٥ .

(٣) الطاق ما عطف من الابنية معرب « تا » وهى الطية او الثنية .

(٤) الشاهنامه قصة بناء خسرو الطاق ج ٩ ص ٢٨٧٧ ، ص ٢٨٨٦ ط بروخيم . طهران . والترجمة العربية ص ٢٤٤ ج ٢ .

وسحاره ومنجميه ليبحثوا الامر . وكان بين كهانه رجل من العرب اسمه السائب فبات ليلة ظلماء على ربوة من الارض فراى برقا قد ومض فى الحجاز واستطار حتى بلغ المشرق فادرك أن أمرا خطيرا قد حدث هناك . ولما خلا الكهان بعضهم الى بعض وحدثهم السائب بما راى قالوا « انه لنبى بعث أو هو مبعوث يسلب هذا الملك ويكسره » (١) . واتفقوا فيما بينهم ان يكتموا الامر عن كسرى خوفا على حياتهم ، ونصحوه ان يعيد بناء الطاق ففعل ولم يكد يدخل البناء ويجلس مع اساورته حتى انتقض من جديد وكاد يهلك ، وعاود البناء مرة ثالثة فعاد البناء الى الانتقاض . وكان ذلك نذيرا بزوال ملكه . وهذا الايوان هو الذى قال عنه البحترى :ـ

وكأن الايوان من عجب الصنعة جوب فى جنب ارعن جلس

....

عكست حظه الليالى وبات المشترى فيه وهو كوكب نحس

فهو يبدى تجلدا وعليه كلكل من كلاكل الدهر مرسى

....

ليس يدرى أصنع انس لجن سكنوه ام صنع جن لانس (٢)

وكسرى هذا هو الذى جاءه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى السنة السابعة والثلاثين من ملكه (٣) يدعوه الى الاسلام فعجب من جراة محمد « كيف يقدم اسمه على اسمى فى كتابه (٤) » ومزق الكتاب فدعا عليه النبى مزق الله ملكه كما مزق كتابى . ويقول حمد الله المستوفى انه بسبب هذا الدعاء عليه اضطرب ملكه بعد ذلك وخرج عليه ابنه شيرويه وقتله (٥) .

وكان كسرى يحيا حياة غاية فى الترف ويكفى ان ننقل هنا ماورد عنه فى الشاهنامه « كان من عادته اذا ركب أن يقاد له ثلاثمائة جنيبة بعدة الذهب ويسعى بين يديه الف وستة وستون راجلا بأيديهم المزاريق ، والف واربعون بأيديهم السيوف والعصى ويخرج معه سبعمائة من البازدارية (٦) ، وثلاثمائة

---

(١) ابن الاثير ج ١ ص ١٩٥ .

(٢) ديوان البحترى ج ١ ص ١٦٩ ط الادبية ببيروت ١٩١١ .

(٣) مدة حكمه ثمان وثلاثون سنة .

(٤) فارس نامه ص ١٠٦ ط ليسترانج ونيكلسون .

(٥) تاريخ كزيدة ص ١٢١ ط براون .

(٦) حملة صقور الصيد .

من الفهادين وسبعون اسدا ونمرا معلمة مجللة بالديباج مشدودة الافواه بسلاسل الذهب ، ويستصحب الف عواد على رؤوسهم اكاليل الذهب ومائتى غلام على يد كل واحد منهم مجمر يوقد فيه العود والعنبر فى الموكب ومائتى نفس من الشبان معهم النرجس والزعفران يتقدمون الموكب حتى ترد الريح ريحها الى مشام الملك وقدام هؤلاء مائة سقاء معهم قرب الماء يرشون الطريق حتى لو هب هواء لم يحمل غبارا من الاض فيمسه به » (١) . وحديث ترفه طويل نكتفى منه بما سبق وبما يأتى من شرح الاشارات الواردة فى النص العربى .

شبديز : والاشارة الثانية فى هذا النص هى شبديز . وكان شبديز هذا فرسا تام الخلقة بديع التكوين كامل التدريب والاعداد ، فكان لما اجتمع فيه من الصفات النادرة أحب دواب كسرى الى نفسه . وحدث ان اعتل شبديز والحت عليه العلة ، وعرف ابرويز مايعانيه فرسه المحبوب من اشتداد المرض ودنو الاجل فأقسم ليقتلن من ينعاه اليه . فلما نفق شبديز خاف صاحب خيله ان يسأله ابرويز عنه فيخبره بنفوقه فيكون فى هذا هلاكه . ولجأ الى بربد مغنى الملك واخبره بموت شبديز ، واغراه بالطائل من الاموال حتى يحتال له حيلة تنقذه من موقفه وتحفظ عليه حياته . ولم يجد المغنى – وكان كذلك شاعرا – خيرا من ان ينظم الخبر ويدسه فى بعض اغانيه التى يغنيها امام الملك . وقد استطاع بربد ببراعته فى النظم والغناء أن ينهى الى الملك خبر نفوق شبديز فى اسلوب غير مباشر وعبارة غير صريحة . فلما سمع الملك الاغنية فهم ان شبديز قد مات فصاح « مات شبديز ! » فقال بربد على الفور « لم اقلها يامولاى . انت قلتها » فقال الملك « زه ما احسن ما لجأت اليه فخلصت نفسك وخلصت غيرك » وجزع على فرسه جزعا عظيما وأراد ان يخلد ذكراه فأمر قطوس بن سنمار (٢) الذى نحت له تمثالا فى الصخر (٣) بلغ من دقة الصناعة وروعة التصوير مبلغا عظيما بحيث لم يكن يفرقه عن الاصل سوى الروح ، وصور بجانبه شيرين محبوبة الملك كما صور الملك وقد ركب فرسه . وحين شاهد الملك التمثال اذهلته دقة صناعته فخشع امامه واستعبر وذكر حال الدنيا ومصير الاحياء .

---

(١) الشاهنامة ج ٩ ص ٢٨٩١ ط بروخيم بطهران والترجمة العربية ص ٢٣٦ وراجع ايضا تاريخ كزيدة ص ١٢١ .

(٢) سنمار هذا هو الذى بنى الخورنق .

(٣) فى جبل بيستون بين حلوان وقرميسين .

شيرين : والاشارة الثالثة هى « شيرين » (١) . وكانت شـيرين محبوبة كسرى ابرويز . وقد اختلف فى اصلها فالشاهنامه تعتبرها فارسية . وحمد الله المستوفى يعتبرها ارمنيـة ويذكر ان ابرويز حين ذهب الى بـلاد الارمن عشقها وكانت ابنة ملكهم (٢) . ومنهم من يقول انها كانت رومية ، وان شيرين قد حرفت عن « ايرينى » او « سيرا » (٣) .

وكان كسرى قـد امر فأعدوا له حديقـة عظيمة قضوا فى اعدادها سبع سنين وجمعوا فيهـا من كل اصناف الطير . ولـما فرغوا من اعدادها احتفل ابرويز بافتتاحها (٤) ، وشرب وسكر ، وقال لمحبوبته شيرين فى نشوة سكره سليني حاجتك . فطلبت منه ان يكون لها فى هـذا البستان العظيم نهران من حجارة يجرى فيهما الخمر واللبن ، فوعدها بذلك ، ولكنه لما افاق نسى وعده ، وخجلت شيرين ان تذكره به فلجأت الى مغنيه بربد الذى هيأ اغنية ذكر الملك فيها بما نسيه . وقد وفى الملك بوعده وبنى النهرين (٥) .

وفى ابرويز وشبديز يقول ابو عمران الكسروى :ـ

وهم نقروا شبديز فى الصخر عبرة	وراكبـه برويز كالبـدر طـالع
عليـه بهـاء الملك والوفد عكف	يخال به فجر من الافق سـاطع
تلاحظـه شـيرين واللحظ فاتن	وتعطو بكف حسنتهـا الاشـاجع
يدوم على كر الجديدين شخصـه	ويلقى قوم الجسم واللون ناصع (٦)

ويروى ان بعض الملوك مر هناك فراقه المكان واعجبه التمثال فطلب الخلوق والزعفران فخلق وجه شبديز وشيرين والملك فقال بعض الشعراء :ـ

كاد شـبديز ان يحمحم لـمـا	خلق الوجه منـه بالزعفـران

(١) الشاهنامه قصة خسرو برويز وشيرين ج ٩ ص ٢٨٦٨ ط بروخيم . طهران .

(٢) تاريخ گزيده ص ١٢٠ ط براون .

(٣) تعليقات عزام على الترجمة العربية ج ٢ ص ٢٣٦ .

(٤) فى المكان المعروف بقصر شيرين .

(٥) مختصر البلدان لابن الفقيه ص ١٥٨ ط ليدن .

(٦) معجم البلدان ج ٣ ص ٢٥٣ ط ليبزج .

وكأن الهمـام كسرى وشيرين مع الشيخ موبذ الموبذان (١)
من خلوق قد ضمخوهم جميعا   اصبحوا فى مطارف الارجوان (٢)

ويقال أن شيرين كان لها عاشق آخر اسمه فرهاد . فلما سمع الملك بأمره كلفه أن يشق طريقا فى جبل بيستون ووعده ان اتم العمل ان يزوجه شيرين . وكان على ثقة انه لن يقدر . ولكن فرهاد استطاع ان يشق الطريق ولم يظفر رغم هذا بشيرين . وكان مثله مع شيرين مثل المجنون مع ليلى . وفى ذلك يقول الشاعر :—

صارت شيرين من نصيب خسرو
وفرهـاد يقطع الاحجار عبثا (٣)

البهلبذ : اما البهلبذ فهو بربد نفسه مغنى كسرى الذى سبقت الاشارة اليه (٤) . ويقال له فى المصادر العربية باربد ، بربد ، بهلبذ ، بهلبد ، فهربد ، فهربذ . وكان بربد هذا آية زمانه فى الموسيقى والغناء . وكان يقول الشعر أيضا ولكن غلب عليه الغناء والموسيقى . ولم يعتبر عوفى اغانيه من الشعر لانها فى نظره يعوزها الوزن والقافية (٥) . ولو كان عرفى قد قدم لنا مثلا واحدا من أغانى بربد لافادنا فائدة كبيرة ، ويسر لنا سبيل الحكم عليها حكما قد يكون أقل قسوة من حكمه . وعلى العموم فان المؤرخين قد أجمعوا على تقديم بربد وبلوغه الغاية فى فنى الغناء والموسيقى . ويذكر صاحب تاريخ گزيده أن اساتذة الموسيقى كانوا يتخذون آراءه فى هذا الفن حجة ويغترفون من فيض علمه كما يذكر انه قد الف ثلاثمائة وستين اغنية يغنى واحدة منها كل ليلة فى مجلس الملك .

والبهلبذ هذا هو الذى يعنيه البحترى فى قصيدته السابقة التى مطلعها « صنت نفسى عما يدنس نفسى » حين يقول :—

---

(١) ذكر الموبذ موبذان (وهو كبير رجال الدين)لان خسرو كان قد دعاه وامره ان يزوجه شيرين .

(٢) معجم البلدان ج ٣ ص ٢٥٣ ط ليبزج .

(٣) لعل شيرين نصيب خسرو شد
سنك بيهوده مى كند فرهاد

(٤) الشاهنامه ج ٩ ص ٢٨٨٢ ط بروخيم . طهران .

(٥) لباب الالباب ج ١ ص ١٣ ط براون .

قد سقانى ولم يصرد ابو الغوث على العسكرين شربة خلس

من مدام تقولها هى نجم اضوأ الليل أو مجاجة شمس

وتراها اذا اجدت سرورا وارتياحا للشارب المتحسى

افرغت فى الزجاج من كل قلب فهى محبوبة الى كل نفس

وتوهمت أن كسرى ابرويز معاطى والبهلبذ انسى (١)

ومما يذكر ان الفرس فى العهود الاسلامية قد ساروا على نمط الساسانيين، فكان كبار الشعراء يجمعون الى فن الشعر البراعة فى فن الموسيقى والغناء كالرودكى شاعر السامانيين والفرخى شاعر الغزنيين . وكان بين الرودكى شاعر السامانيين فى العهد الاسلامى وبين بريد (بهلبذ) شاعر الساسانيين ومغنيهم فيما قبل الاسلام كثير من أوجه الشبه . فقد كان كل منهما شاعرا ومغنيا وملحنا . وكان كل منهما ينشد الشعر مصحوبا بالغناء والموسيقى ، كما كان كل واحد منهما عالى المكانة عند مليكه ينهى اليه ادق الاخبار فى ابرع قالب . وكما استعان رجال كسرى أبرويز ببربد ليخبره فى ثنايا اغانيه بموت فرسه الشبديز استعانت حاشية نصر بن احمد السامانى بالرودكى ليغرى الامير بالعودة الى بخارى . وكان الامير فى ذلك الوقت مقيما فى هراه وقد أعجبه ماؤها وهواؤها ، وطاب له جوها وثمرها فأطال الاقامة فيها ، وأجل الرحيل عنها من فصل الى فصل حتى انقضى عليه هناك اربع سنوات فسئم رجال الحاشية والجند ، وحنوا الى ذويهم وديارهم فى بخارى عاصمة الملك . وهداهم التفكير الى الاستعانة بالاستاذ الرودكى ، فعرضوا الامر عليه ، ووعدوه بخمسة آلاف دينار ان استطاع ان يصرف هوى الامير عن هراه ، وان يحرك فيه الحنين الى بخارى فيرحل اليها . ويقول النظامى العروضى ان الرودكى كان يعرف مزاج الامير ، وان النثر لا يؤثر فيه ، فاتجه الى النظم ، واعد قصيدة دخل بها على الامير وقت الصبوح ، واتخذ مكانه فى مجلسه حتى اذا سمح له بدا يغنى فى لحن العشاق :ـ

مازال يهب علينا ارج نهر جيحون

وما زال يهب علينا عرف الحبيب (٢)

---

(١) ديوان البحترى ج ١ ص ١٦٩ ط الادبية بيروت ١٩١١ .

(٢) بوى جوى موليان آيد همى

بوى يار مهربان آيد همى

الى ان قال :

ان الامير قمر وبخارى هى السماء
والقمر نحو السماء يتجه
ان الامير سرو وبخارى هى البستان
والسرو يقبل نحو البستان (۱)

ويتابع النظامى روايته فيقول : وهنا انفعل الامير ونزل عن عرشه متأثرا ، فركب حصانه ، وقد نسى أن ينتعل من العجلة ، واتجه على الفور الى بخارى ، فحملوا اليه حذاءه حتى بروته على بعد فرسخين ، وهناك لبسه . ولم يعرج على مكان حتى بلغ بخارى (۲) .

وقد اعترف معاصرو الرودكى وبربد لهما بالسبق فيما مارساه من الوان الفن . ولشدة ما بين الاثنين من شبه فى المكانة والظروف قرنهما المجلدى الجرجانى فى قوله : —

من متع هذه الدنيا المتنوعة
ماذا بقى لآل ساسان وآل سامان
بقى ثناء الرودكى ومدحه
وبقيت اغانى بربد وقصصه (۳)

---

(۱) میر ماهست وبخارا آسمان
ماه سوی آسمان آید همی
میر سرواست وبخارا بوستان
سرو سوی بوستان آید همی

(۲) جهار مقاله ص ۲۹ ط طهران .

(۳) از آن چندان نعیم این جهانی
که ماند از آل ساسان وآل سامان
ثنای رودکی ماندست ومدحت
نوای باربد ماندست ودستان

تقرير

عن أعمال الحفر والتنقيب فى موسم ١٩٥٠ — ١٩٥١

بمنطقة حفائر جامعة الاسكندرية بأهرام الجيزة

للدكتور عبد المنعم أبو بكر

بدأت أعمال الحفر بمنطقة الاهرام متأخرة فى هذا العام لانشغالى بأمور تتعلق ببدء الدراسة وتنظيم أعمال القسم بالكلية .

وكان بدء العمل فى الثانى من شهر ديسمبر سنة ١٩٥٠ فى الجبانة الغربية التى فازت الجامعة بالحصول على ترخيص من مصلحة الآثار المصرية بالحفر فى المنطقة الشمالية الغربية منها وهى تدخل ضمن المنطقة التى كانت مخصصة لبعثة جامعة هارفارد الامريكية التى عملت بمنطقة الهرم بالجيزة منذ عام ١٩٠٢ برئاسة العالم المشهور المرحوم الدكتور رايزنر .

والجامعة تحفر فى هذه المنطقة فى موسمها الثانى وتركز العمل فى هذا العام حول المصطبة الكبيرة للشريف « نى حتب خنوم » والتى عثر عليها فى الموسم الاول .

وقد عثر الى الشمال من المقبرة السالفة الذكر على مصطبتين كبيرتين :

الاولى : وقد شيدت من اللبن وتمتد من الشمال الى الجنوب ، ويحوى جانبيها الشرقى عدة أبواب وهمية كانت كلها مصنوعة من لوحات من الحجر الجيرى الابيض وثبتت فى فجوات فرغت خصيصا لها فى الجدار الشرقى للمصطبة . ولكن للاسف عثر عليها مهشمة ومنزوعة من مكانها الاصلى وبعثرت بقاياها هنا وهناك أى فى الممر وحجرة القرابين .

والثانية : مصطبة كبيرة بنيت من الحجر الجيرى الابيض المستخرج من محاجر المنطقة نفسها وبها باب وهمى واحد وهى لرجل اسمه « سبرى » .

وليس من شك فى أن أهم ما عثر عليه فى هذا الموسم هو مقبرة الامير « برسن » والمجموعة الضخمة من المصاطب المختلفة الاحجام التى تجمعت حول هذه المقبرة الكبيرة ، ومن الغريب أن هذه المجموعة الضخمة قد أحيطت بسور عظيم يمتد حولها من جوانبها الاربعة ، وهو غير مرتفع ، ثم هناك داخل هذا السور سور آخر يمتاز بأنه شيد بمداخل ومخارج على هيئة مشكاوات (Loculi) وهو يذكرنا بالسور الذى يحيط بمنطقة الملك زوسر بسقارة . وسورنا هذا يحيط بثلاث مصاطب توسطت المجموعة السالفة الذكر اثنتان منهما بنيتا من الحجر الجيرى الابيض والثالثة ـ وتقع بين المصطبتين السالفتى الذكر ـ شيدت من اللبن .

والاولى : وهى الواقعة الى الشمال هى للامير « برسن » وهى مبنية من الحجر الجيرى الابيض كما قدمنا . وحجرة القرابين بها لم تبن ملاصقة للجانب الشرقى كما كانت العادة فى هذه الجبانة بل فرغت فى داخل بناء المصطبة السميط وزينت جدرانها بنقوش جميلة ورسومات تبين صاحب المقبرة وزوجه وأولاده فى أوضاع مختلفة . وعثرنا على السرداب وهو عبارة عن حجرة كبيرة اخفيت فى بناء المصطبة الى الشمال من حجرة القرابين وتتصل بها بواسطة فتحة كبيرة كالمعتاد ، ويبدو أن السرادب كان يحوى أربعة تماثيل لم نعثر على أى واحد منها ، والدليل على أن عددها كان أربعة أن الحائط الشمالى من هذا السرداب يحوى أربعة سطور رأسية كتب فى كل منها ألقاب واسم صاحب السرداب « برسن » ، ويفصل كل سطر عن الآخر مسافة تبلغ أكثر من سبعين سنتيمترا .

والثانية : تقع الى الجنوب من هذه المصطبة وهى مشيدة من اللبن كما ذكرنا ومن الطراز الذى اصطلحنا على تسميته « ذو الممر » ، ولم نعثر فيها على أبواب وهمية تبين لنا اسم صاحبها .

والثالثة : تقع الى الجنوب من الثانيـة ، وهى مبنية من الحجر الجيرى الابيض وحجرة القرابين فيها مفرغة فى مبنى المصطبـة ، ولم نعثر فيها على نقوش ما ، ولا نعرف اسم صاحبها .

والى الشرق من هذه المصاطب الثلاث وبداخل السور ذى المشكاوات عثرنا على مجموعات من أبنية متقاطعة متشابكة ، الجزء الشمالى منها يحوى حجرات لم تتبين حتى الآن الغرض منها الا أن احداها كانت جدرانها مغطاة بطبقة من الملاط الابيض عثر فى بعض أركانها على آثار ضعيفة لرسومات ملونة كما عثر فى حجرة أخرى على كمية كبيرةمن أوانى فخارية مهشمةوهى من النوع الذى يتضمنه ما نسميه « الاثاث الجنازى » ، والذى اعتدنا أن نعثر عليه بكثرة فى حجرات الدفن من عصر الدولة القديمة وفى حالتنا هذه عثرنا على هـذه الكميـة الضخمـة التى تمثـل أطباقا وأوانى مختلفـة الشكل كلها صغيرة الحجم ومصنوعة من الفخار المحروق .

ولهذه المجموعة الكبيرة من الحجرات السالفة الذكر مدخلان رئيسيان أحدهما يقع فى أقصى الشمال من السور والثانى الى الجنوب منـه وبالقرب من المدخل الشمالى عثرنا على عمودين من الحجر الجيرى الابيض فى حجرة صغيرة كل منهما ينتهى فى أعلاه بطبق من النوع الذى يستعمـل فى حرق البخور وكلاهما يحمل اسم صاحبه « كا ــ ايرو ــ خوفو » ويحمل لقب « كبير العشرة بالجنوب » . والى الغرب من هذه الحجرة عثرنا على سرداب أخفى بمهارة فائقة ومكون من حجرة من اللبن مستطيلة الشكل تمتد من الشرق الى الغرب وتستند فى غربها على الجدار الشرقى لمصطبة « برسن » وترتفع جـدرانها الى أكثر من مترين وفى هـذا السرداب عثرنا على تمثال

لكاتب يعد من أروع التماثيل التى عثر عليها ممثلة لفن الاسرة الخامسة • ويبلغ فى ارتفاعه ٦٧ سنتيمترا ولا تزال ألوانه كلها باقيــة كما أن أجزاءه كامــلة •

الابنية الواقعة الى الجنوب من هذه الحجرات فهى عبارة عن حفر مربعة على هيئة الآبار الغير العميقة اذ لاتتعدى فى عمقها المتر الواحد ولم نعثر فى واحدة منها على أى بقايا بشرية ويبدو أنهااستخدمت كمخازن لحفظ الاوانى الفخارية ، اذ عثر فى أكثر من واحدة منها على مجموعات كبيرة من النــوع المعروف الذى كان يستعمل لحفظ المواد الغذائية •

وكانت كلها مهشمة •

والى الغرب من المصاطب الثلاثة الكبيرة التى وصفناها آنفا عثرنا على مصطبة ضخمة شيــدت من اللبن وهى من الطراز ذى الممر وحجرة القرابين فيها مهشمة ولم نعثر على نقش واحد يبين لنا اسم صاحبها الا أن قوالب اللبن التى استعملت لبناء هــذه المصطبــة قد طبع على الكثير منها اسم «برسن» ثم عثر فى الجزء الجنوبى منها وعلى ارتفاع يبلغ أكثر من ١٫٧٠ مترا على تمثال غير متقن الصناعة ومن الحجر الجيرى الابيض يمثل سيدة لا نعرف اسمها لعدم وجود أى نقش على التمثال •

والى الجنوب من هذه المصطبة والى الغرب من المصطبة المشيدة من اللبن والتى سبق ذكرها فى المجموعة الاولى كشفنا عن مجموعة المصاطب الصغيرة مبنية كلها من اللبن وحجراتها وحجرات القرابين فيها غير منقوشة ولم تحو واحدة منها بابا وهميا يمكن أن نستدل من كتاباته علىاسم صاحبه ولكنا لحسن الحظ عثرنا فى سرداب لاحداها على تمثال من الحجر الجيرى الابيض جميل الصنع لا زالت ألوانه الى حد ما باقية ويمثل شخصا جالسا فوق كرسى يرتفع مسنده الخلفى الى ما يقرب من أعلا الرأس واسم صاحبه « سخم محى » ولقبه « صانع الجعة » •

ويمكن لنا مبدئيا أن نعتقد أن هذه المنطقة كانت مخصصة لذلك الرجل الشهير «برسن» الذى بلغ نفوذه حدا كبيرا بحيث تمكن من أن يحيط نفسه

بعـدد ليس بقليل من أقاربه كما أفرد لخدمه مكانا متسعا حول مصطبتـه ومصاطب أقربائه والدليل على ذلك تمثال الكاتب وتمثال السيدة الغير متقن الصنع وتمثال صانع الجعة • وأود أن أكون هنا متحفظا فى رأيى هذا حتى أتم دراساتى على أستطيع اما تأييـد هذا الرأى أو العثور على ما يجعلنى أنقضـه •

غير ما أتيت على وصفه سراعا فقد كشفنا عن حجرتين كبيرتين مستديرتين من اللبن الكبير الحجم الذى يعتبر من خصائص الدولة القديمة • ولقـد حاولت مستعينا بكثير من الاخصائيين وعلى رأسهم المهندس الاثرى المشهور الدكتور ريكه مدير المعهد السويسرى للآثار المصرية تفسير الغرض الذى من أجله شيدت هاتان الغرفتان ، ولكننا لم نصل الى نتيجة ولقد بلغ من اهتمام الدكتور ريكه بهذا الكشف أنه تردد على منطقة الحفر أكثر من مرة ولكنه أيضا لم يصل الى نتيجة •

ولكل حجرة منهما مدخل قليل الارتفاع يمكن غلقه بوساطة كتلة خشبية تنزلق من أعلا الى أسفـل فى مجرتين نحتتا بشكل خاص فى كتفى المـدخل ويتصل بكل حجرة غرفة صغيرة مستطيلة الشكل قليلة الارتفاع ومسقوفة بألواح حجرية كما أنه عثر بداخـل الحجرة المستـديرة على حوض صغير يتصل بواسطة قنـاة تخترق الحائط وتمتـد الى الخارج وتنتهى بحوض آخر صغير من الخارج ويوحى هذا كله بأن الحجرة المستديرة كانت مكانا يحتفظ فيه بحيوان كاسر لا يستطيع خادمه أن يقدم الماء له مباشرة فيسكبه له من الخارج ويجرى فى القناة الى الحوض الداخلى ولكن يقف أمام هذا الرأى وينفيه أن مدخـل هـذه الحجرة لايبلغ فى ارتفـاعه أكثر من ٤٥ سنتيمترا كما أن الحجرة المسقوفة الصغيرة لاترتفع الى أكثر من نصف متر وعلى ذلك يحسن بنا أن ننتظر حتى يتكشف الامر أمامنا •

وقبل البدء فى أعمال الحفر بهذه المنطقة قمنا بعمل مجسات فى أقصى الشمال استعدادا لايجاد مكان يصلح لالقاء الرمال المختلفة من الحفر فاذا

بهذه المجسات تكشف لنا عن مجموعة فريدة من مصاطب صغيرة شيدت من اللبن وتمتاز بأن أبوابها الوهمية المصنوعة من الحجر الجيرى الابيض وقد ثبتت فى فجوات بنفس المبنى ويعلو كل باب فتحة مقوسة على شكل قبو .

كذلك عثرنا فى المنطقة الشرقية من مصطبة « نى خنوم حتب » على مجموعة من المصاطب المشيدة باللبن ذات الممرات وأهمها مقبرة المدعو «هنى» أو « ثنى » وهى ذات حجرات للقرابين يعلوها قبو شيد من نوع خاص من اللبن وهو من طراز المصطبة التى عثر عليها فى الموسم السابق للمدعو « تفرى » وكانت تعتبر فريدة فى نوعها الى ذلك الوقت . ويلاحظ أن الممرات قد تم تسقيفها بهذا النوع الخاص من اللبن الذى يعتبر تقليدا للحزم من سيقان البوص التى كانت تسقف بها الاكواخ فى العصور العريقة فى القدم .

تقرير

عن بعثة معهد فؤاد الاول للصحراء الى شمال سينا

(١٥ اغسطس – ٩ سبتمبر ١٩٥١)

للدكتور محمد السيد غلاب

نظم معهد فؤاد الاول للصحراء بعثة لدراسة شمال سينا ، حشد فيها نخبة من رجال العلم بالجامعات المصرية والمصالح والوزارات التى يعنيها أمر تعمير سينا ، والواقع أن الغرض من البعثة كان أكاديميا بحتا ، ومن رأينا أن الروح العلمية الاكاديمية البحتة هى خير ممهد للوصول الى أى غرض عمرانى أو نفعى فيما بعد .

كانت البعثة بقيادة سكرتير عام المعهد ، الاستاذ الدكتور محمد متولى أستاذ الجغرافيا بجامعة فؤاد الاول وكان يعاونه فى قيادة الرحلة المستر مرى مستشار مصلحة المساحة المصرية ، وكان أعضاء البعثة يشتملون على أربعة جيولوجيين ، وجغرافى طبيعى ، وثلاثة نباتيين ، وأستاذ فى علم الحيوان ، وأستاذ فى علم الاراضى (التربة) واخصائيين من وزارة الزراعة ، وأستاذ فى علم الحشرات (البعوض بصفة خاصة) وجغرافى بشرى وقد لحق بهم فيما بعد اخصائى فى الهدروليكا وهو أستاذ ومهندس من السويد ، هذا غير المساعدين فى علم الحيوان وعلم الحشرات ومصور .

وكانت نقط البحث تشمل بحثا جيولوجيا تفصيليا لبعض مناطق شمال سينا ، وهى المناطق المحيطة ببئر الحسنة ، وجبل الحلال . وبحث امكانيات المياه الباطنة ودراسة الكثبان الرملية ووسائل تثبيتها ، وبحث طبيعة الاراضى وأنواع التربة وتوزيعها على خريطة ودراسة نباتات المنطقة من ناحية التصنيف لاتمام كتاب « نبات مصر » الذى يقوم بوضعه عضوان

فى البعثة ، وهما استاذه فى النبات بجامعة القاهرة وأخصائى من وزارة الزراعة ، ودراسة النبات من ناحية علاقته بالتربة ، وطرق استصلاح الاراضى الجافة واستثمارها ، وجمع أنواع الزواحف والثدييات الصحراوية لتكملة مجموعة تحف المعهد ، وتحليل مياه الآبار والينابيع لمعرفة مقدار صلاحيتها للرى ، وعلاقة ذلك بانتشار الامراض التى تنقلها الحشرات ولا سيما الملاريا ، وأخيرا دراسة أنواع النشاط البشرى ومقدار تلاؤم الانسان مع البيئة ، والعلاقات بين البدو والحضر ، وتوزيع القبائل البدوية ودراسة عاداتها وتقاليدها ودراسة مشاكل الجغرافية الاجتماعية فى العريش وما حولها .

هذه الدراسات الطبيعية والبشرية يكمل بعضها بعضا ، ويتصل بعضها بالبعض الآخر ، بل ويتداخل بعضها فى البعض . ولعل المعهد الذى يجمع شتات الدراسات المتصلة بالصحراء ، قد قصد الى جمع هذا العدد من رجال العلم فى مختلف الفروع فى صعيد واحد ، لدراسة منطقة واحدة ، من وجهات نظر متنوعة ، لكى يستعين كل بكل ، ويطلع على وجهة نظره وعلى أسلوب بحثه ، ولكى يقف كل على مايكمل دراسته مما يقوم به فرع آخر من العلوم . ولذلك فان هذه التجربة تعتبر فى نظرنا ناجحة بالرغم من أنها الاولى من نوعها فى مصر ، وبالرغم من نشوء بعض عقبات أو تصادم رغبات بعض الاعضاء مع البعض الآخر — الامر الذى لامندوحة منه فى مثل هذه البعثات فبالرغم من كل شىء فاننا نشعر أن الاعضاء جميعا كانوا مرتاحين فى هذا المجتمع العلمى الصغير الذى جمعهم فترة من الزمن . ونأمل أن يظهر أثر ذلك فى الابحاث التى ستنشر عن نتائج أبحاثهم المختلفة .

بدأت البعثة من ميدان الاوبرا فى القاهرة ، اذ اجتمع الاعضاء فى الصباح الباكر يوم ١٥/٨/٥١ واستقلوا السيارات (وكان عددها ست) فى تمام الساعة الخامسة والنصف صباحا ميممين نحو الاسماعيلية حيث وصلوها الساعة التاسعة والنصف ، وفى تمام الحادية عشرة بدأوا المرحلة الثانية من الرحلة من الضفة الشرقية لقناة السويس ، فى طريق مرصوف

يبلغ طوله ٢٥٠ كيلو مترا ، متجهـا نحو الشمال الشرقى ، فى سهل مموج يرتفع وينخفض ، تغطيـه الاحراش القصيرة المتنـاثرة ولا يكاد يسكنـه انسان ، ثم ارتفع الطريق فوق هضبة مترامية الاطراف ثم أخذ يتجه تدريجيا الى السهـل الشمالى ، الذى تقطعه الغرود والكثبان التى تتجه بصفة عامة من الشمال الشرقى الى الجنوب الغربى ، ثم قطع انتظام السهل جبل المغارة فى الشمال ، ثم جبل لبنى ، والجبل الاول يشغل منطقـة أوسـع ، وأكبر ارتفاعا من الثـانى . بعد جبـل لبنى (عنـد الكيـلو ١٠٠ من العريش تقريبـا) وصلنا الى أول نقطة من نقط الحـدود ، التى تدل على وجود العمران ، وهى نقطـة أبو عويقيله وهى تقع على الضفـة اليمنى لوادى العريش على بعد ٤٥ كيلو مترا من العريش ، وشاهدنا أول آثار التخريب التى أحدثها الجيش اليهودى داخل الحـدود المصرية فى الحرب الاخيرة وهى نسف كوبرى مقام على هذا الوادى ، ونسف مقر النقطة القديمة . كما شـاهدنا حطام دبابة صهيونية كانت قـد اجترأت على تدنيس أرض هذا الوطن .

ابتداء من عويقيله تبـدأ معسكرات الجيش المصرى ونقط المراقبـة حتى تشرف على العريش نفسها التى كانت تحرسها مقابر الشهداء على يمين الداخل الى الطريق المؤدى اليها مباشرة ، ويحمى العريش جسر يمتد من الشمال الى الجنوب عند مصبى وادى العريش ، الذى يفيض فترة محدودة فى الشتاء عقب سقوط الامطار .

وصلنا العريش فى تمام الرابعة والنصف مساء ، وكانت هـذه المدينة ـ عاصمة محافظة سينا ـ مقر البعثة الذى تبدأ منها نشاطها وتأوى اليها مع المساء .

فى صباح يوم ٥١/٨/١٦ اتجه الاعضاء الى الساحل الشمالى نحو رفح ثم عبر الحدود المصرية الى مدينة غزه ، مارين بخان يونس ، وقد ظهر لنا

الفرق الشاسع بين شمال سينا وجنوب فلسطين من ناحية استثمار الارض، فمنذ أن نخطو وراء الحدود الفلسطينية يتغير المنظر العـام ، من صحراء مجدبة ومراعى متناثرة الى حدائق مسورة تروى بماكينات المياه الجوفيـة وتؤتى ثمرها من أنواع الفواكه والموالح المختلفة حدائق يتلو بعضها بعضا، بينها حقول الشعير والقمح حتى نصل الى غزة . ولعل فى هـذه الجولة الاستكشافية ، ما يثير فى الاعضاء الرغبة الصادقة فى تحويل شمال سـينا الى مايشبه جنوب فلسطين . حقا هناك ظرف مناخى يجعل المقارنة غـير كاملة ، وهى أن غزة تقع شمال خط ١٠٠ مم من المطر فى العام ، الا أن هذه الكمية لاتكفى قط لرى البساتين التى تعتمد على المياه الباطنية ، وما نظن أن المـاء الباطنى ينقص السـاحل الشمالى لسينا ، أوأنه يقل جودة عن مياه جنوب فلسطين الباطنية .

منذ اليوم الثالث بدأ كل فريق يعمل فى نطاق بحثـه الخاص ، على أن السيارات انقسمت الى قسمين ، كل اثنتين مع مجموعة من البعثة ، واحدة بدأت بدراسة الساحل الشمالى دراسة منظمة ، بحيث تقسمه الى أجزاء ، تقطع فى كل يوم جزءا بعينـه ، ومجموعة أخرى كانت تعمل فى القطـاع الجنوبى .

الا أن الافراد جميعا اشتركوا فى زيارة معالم العمران فى شمال سينا ، وتشمل مشروع سد الروافعة ، ومنطقة وادى الضيقه ويزمع اقامة سـد عنده يغزى السد الاول ، ومزارع وزارة الزراعة عنـد الروافعة وفى رفح ومزارع الاهلين الاخرى وهى ملكية مبعثرة . ويحسن أن نشير الى هذه المعالم بشىء من التفصيل .

سد الروافعة :

كان الاتراك أول من فكر فى اقامة هذا السد على وادى العريش ، فى نقطة تبعد ٤٥ كيلو مترا من مصبه ، وذلك أثناء حملتهم المشهورة فى الحرب العالمية الاولى ، ويبلغ طول السـد ٥٠ مترا على قاعدة من الحجر الجيرى

ويبلغ عمق الماء فى قاعه ٣ أمتـار ويمكن تخزين ٤ مليون متر مكعب من الماء فيه ، وقد بدىء فى انشائه سنة ١٩٤٧ وهو يمتلىء بالماء بعد كل سيل ، (آخر سيل كان فى مارس سنة ١٩٥١) وقد قدر حدوث فيضان كبير مرة كل سبع سنوات وعندئذ يمتلىء بالماء أمام السد حتى حافته ويمكن خزن ٢٤ مليون مترا مكعبا من الماء .

الا أن السيل يجرف أمامه كمية هائلة من الطين والطمى مما قلل كمية الماء المخزون أمامه من ٥ مليون مترا مكعبا الى ٣ مليون مترا مكعبا ولذلك فانه يخشى أن يأتى اليوم الذى يمتلىء فيه السد بالطين والطمى وتنعدم فائدته مالم يظهر الطمى من أمامه باستمرار .

يخرج من أمام السد ترعتان لرى ٣٠٠ فدان ريا دائما من الجانبين ، ولما كان مستوى الارض أعلى من مستوى الماء المخزون فى السد (وعمقه لايزيد على ٣ أمتـار) فان الامر يتطلب رفع الماء الى الترعتين بواسطـة المضخات .

مشروع سد الضيقة :

يقع وادى الضيقة ـ وهو جزء من وادى العريش ـ جنوب الروافعه بمقدار ٢٥ كيلو مترا تقريبا وهو وادى أخدودى بين جبلى ضلفع والحلال من الشرق والغرب على التـوالى ، ويبلغ عرض الوادى ٥٠ مترا تقريبـا ويرتفع الجبـلان حوالى ٣٠٠ مترا على الجانبين ويغطى الوادى طبقـات سميكه من الطين والطمى (بلغ عمق الطين ٣٥ مترا فى احـدى الحفر دون أن يبلغ اليه مستوى الرمل أو الصخر الجيرى) .

مشروع سد الضيقة يبلغ ارتفاعه ٢٠ مترا ويمتلىء بالمـاء أمامه حتى خط كنتور ١٨٠ مترا وستكون مقدرته على الخزن حتى طاقة ١٦٠ مليـون مترا وفى هذه الحالة يستعمل سد الروافعة كمنظم للخزان الاول .

والمأمول أن يستطيع هذا المشروع رى نصف مليون فدان من التربة الرملية التى لاينقصها غير الماء لكى تجود بأجود المحاصيل .

زيارة بعض الحدائق والمزارع :

قام أفراد البعثة مجتمعين بزيارة بعض المزارع والحدائق فى منطقة العريش ، والاستغلال الزراعى فى هذه المنطقة يختلف فى طبيعته ووسائله عنه فى وادى النيل فليس هناك مساحات واسعة متصلة قابلة للاستغلال كما هى الحال فى وادى النيل ، انما الوحدة الزراعية هنا هى البقعة الصغيرة التى تتراوح مساحتها من بضعة قراريط الى عشراتها وقد لاترقى الى الافدنة وذلك طبقا لنوع التربة ولتوفر الماء الباطنى (الآبار) ونستطيع أن نقول أن التربة الرملية المختلطة بالرواسب السيلية هى السائدة فى معظم شمال سينا ، ويمكن أن تعتبر جيدة اذا توفر ماء الرى ، والماء هنا مستخرج من الآبار • ويختلف العمق الذى لابد أن تحفر اليه الآبار للوصول الى ماء « الفَجرَة » أى مستوى الماء الباطنى وهو يختلف عن المستوى السطحى الذى تتسرب اليه أمطار المطر• وهذا المستوى يتراوح بين ٢٠ متر و ١٥ متر على الساحل •

والمحاصيل كلها من التى تتحمل الجفاف ، وهى من الاشجار التى تزرع مرة وتمكث فى الارض سنوات تغل ثمرتها ، وتجود فى العريش اشجار الزيتون وأشجار الفاكهة مثل التفاح والكمثرى •

وتقدر القطعة التى يمكن أن تستغل فى جرف وادى العريش التى يصل عمق الماء الباطنى فيها ١٥ مترا ، بحوالى ربع مليون فدان • لم يستغل منها فى الوقت الحاضر سوى خمسين فدانا • ويبدو أن هذا التقدير مبالغ فيه ، ولكن المسألة هى الى أى حد يمكن الاكثار من حفر الآبار دون أن يؤثر ذلك فى مستوى الماء الباطنى ؟ فهذه نقطة تحتاج الى بحث وعلى ضوئها يمكن تقدير المساحة التى يمكن أن تستغل من جرف وادى العريش •

وقد زرنا أيضا بعض المزارع النموذجية لوزارة الزراعة فى هذه المنطقة ، وهى جميعا تدل على أن أشجار الزيتون والكروم والتين والكمثرى والتفاح والفول السودانى تجود فى هذه المنطقة ولا أمل طبعا فى المحاصيل

السنوية . وتمد هذه المزارع النموذجيـة المزارعين من الاهالى بالاشجار التى تستعمل لحماية المزارع من الرياح والتى تسـاعد على كثرة الظل فى المزرعة كما تمدهم بالمعونة والارشاد الفنى .

القصيمة والحسنة :

زار أفراد البعثة على دفعتين كلا من القصيمة والحسنة ، وهما من نقط العمران القليلة فى قسم سيناء الوسطى . وكانت كل قافلة مكونة من ثلاث سيارات قامت من العريش فى الصباح الباكر وتزود أفرادها بما يلزمهم من غذاء وشراب وغطاء ، لمدة ثلاثة أيام ، أما الغذاء فكان من الانواع الجافة أو التى تحفظ فى علب ، وأما الماء فقد ملانا الزمزميات وتزودنا بكمية كبيرة من البطيخ الذى يجود نوعه فى شمال سينا بصفة خاصة وقد أثبت أنه أفضل مايروى الغليل فى الصحراء وأضمن مايمكن أن يؤكل وبه كمية كبيرة من السـوائل . والطريق من العريش الى القصيمة تبلغ حوالى ٨٠ كيلو مترا منها ٤٠ أو أكثر فى طريق معبد ولكنه غير مفروش بالاسفلت وقـد كانت منـاظر الصخور جميلة رائعة متغيرة باستمرار جبـال ووديان وخوانق وكثبان رملية ومساحات تغطيها الصخور التى تنقلها السيول ومساحات من الحصى والحصباء ، وتلال جيرية وأخرى طباشيرية ، فكانت كأنها كتـاب من الجيومورفولجيا ـ مفتـوح عن فصـل التعرية فى البـلاد الجافة لمن يعرف قراءته ، وكنا نتبع فى ذلك طريق الملاحظة المبـاشرة والتصوير من مواضع مختلفـة لاظهار ظواهر السطح المختلفـة ومعرفة ميل الطبقـات وتتابعها واتجاه الثنيات المحدبه والمقعره وامتدادها ، ولاسيما فى منطقـة الضيقة التى زرناها فيما بعد زيارة خاصة .

أما القصيمة فهى قرية صغيرة لايزيد عدد منازلها عن عشرين منزلا من ذات الطابق الواحد وبها مسجد صغير واستراحة حكومية كان قد بنـاها الاتراك أثناء حملة مصر المشهورة فى الحرب العالمية الاولى وأمامها حاميـة مصرية صغيرة ، وليس فى الاستراحة مايدل على اسمها ، فهى مجرد مبنى

حجرى جميل ولكنه خال من الأثاث تماما ، حتى من الكراسى الخشبية فيما عدا حجرة لضابط الحامية وما ذلك الا لان البدو انتهزوا فرصة توغل اليهود من العوجه الى القصيمة ، وهى أول مركز على الحدود المصرية الى أبو عويقيله ، على أبواب العريش ، فهجموا على الاستراحات الحكومية كلها فى شمال سينا ، فى القصيمة وأبو عويقيله والحسنة ونهبوها نهبا تاما ، فهم فى الواقع لايشعرون بأى نوع من أنواع الشعور الوطنى ، ولايرتبطون بأى رابطة غير الرابطة القبلية ، فى حالة فقر مدقع لايجدون مايقيم أودهم خصوصا فى سنوات « المَحْل » التى يمرون بها الآن ، يحرثون بقع الارض المستوية أنى وجدوها فى الصحراء وينتظرون هبوط الامطار ، والا فلا محصول ولا غذاء ، الا ماشيتهم التى يقل عددها وتجف أثداؤها بمرور سنوات المَحْل ، ولم تعرهم الحكومة المصرية أى اهتمام ، ولذلك لاتعجب اذا لم يشعروا نحوها بأى عاطفة ، وظهر هذا جليا أثناء حرب فلسطين ، فقد كسبهم اليهود بينا خسرتهم مصر ، ولذلك فهم يكونون خطرا جاثما على أبواب مصر ينقلبون عليها أو يشتغلون بالجاسوسية لحساب اليهود فى وقت الخطر .

والقصيمة سوق للاعراب ، ومنهم قبيلة العزازية التى تعيش عبر الحدود الفلسطينية ، والذين يشتغلون بالجاسوسية الصهيونية ، أما الاهالى المستقرون فهم من أهل العريش هاجروا اليها منذ حوالى عشرين سنة عندما بدأ تنظيم الرى وتوزيع ماء عين الغديرات وزراعة واحتها التى تبلغ مساحتها ١٥٠ فدانا ، وعين الغديرات ، من العيون النادرة فى سينا ، تنبثق بالماء وسط تلين مرتفعين ، تكون بينهما سهل صغير منبطح اسمه وادى الغديرات ، وقد أمكن انشاء خزان صغير يشبه الحوض وتوزع الماء منه فى قنوات صغيرة من الاسمنت المسلح لايزيد عرضها عن ٣٠ سم وأمكن غرس أشجار الكافور والسرو والزيتون والليمون والرمان والعنب ، هذا عدا بعض المحاصيل السنوية مثل الذرة ، والظاهرة الجديرة بالتسجيل أن أى أرض يمكن أن تزرع وهذه لايشترط فيها سوى خلوها من الصخور

والحصى والحصباء ، وأن تكون مستوية ، مملوكة للعرايشية فهم العنصر الفلاح والتجارى فى سينا ، فهذه واحة لايزرعها أو يهتم بها البدو مطلقا ، بل يهبطون الى مائها ويحدقون فى قنواتها كانما شقت بيد ساحر ، ويزرع بعضهم الذره ، ولكنهم يكتفون بعملية وضع البذور فى الارض ثم الحصاد ، وقد بدأت الحشائش الطفيلية تزاحم الذرة غذاءها ، ولكنهم لايكلفون خاطرهم بانتزاعها وحرث الارض وقد جرت تلك المناقشة بينى وبين أحد البدو

ـ لماذا لاتنظف الارض من الحشائش ؟

ـ لا أستطيع

ـ وهل يستطيع العرايشى ؟

ـ نعم هو يستطيع ، أما نحن فلا !

هؤلاء هم البدو . يحتقرون الزراعة ، واذا اضطروا لشىء منها لايبذلون لها الا أقل عناية ممكنة ، فالبدوى دخيل على هذا الفن الراقى القديم ، ولكنه يستطيع أن يجوب الصحراء ليالى تتلوها ليالى ، بحثا عن ناقة شردت ، ويستطيع التعرف اليها بسهولة ، ويحفظ طرق الصحراء ودروبها كما يحفظ علامات كف يده . عنصر يجب أن تستفيد منه مصر ، وتضمه اليها ، وخصوصا وهناك عدو جاثم على أبوابها ، والوسيلة لذلك هى رفع مستواه ، ومده بالشعير والقمح فى سنوات « المَحْل » والعمل على رفع مستوى حيوان الرعى وتهيئة المراعى الصالحة بالطرق العلمية ، أى رفع مستوى البدوى اقتصاديا داخل حدود بيئته الطبيعية والاجتماعية ، بهذه الوسيلة تكسبه الى صف مصر ولا تخسره .

وقد لاحظنا أن رجال الجيش ينظرون بريبة وحذر نحوهم ، بالرغم من أنهم يستخدمون بعضهم فى أعمال المخابرات ، ولهم حق فى ذلك ، فقد خبروهم فى حرب فلسطين ، وهم فى الوقت نفسه لايعرفون عنهم أو عن

حقهم فى حماية مصر لهم الشىء الكثير ، أى أن مصر فى الواقع تطلب منهم أن يكونوا مواطنين صالحين وهم لايشعرون بأن مصر عملت لهم شيئا فى سبيل رفع مستواهم ، وهذه مسألة يجب أن تدرس بعناية .

والقصيمة أول نقطة مصرية على الحدود المصرية وهى على الطريق الذى يصل سينما بفلسطين ويمر بالعوجه ، ومثل هذا المركز الدفاعى الهام يجب تقويته عسكريا وتحصينه .

أما الحسنة ، أو بير الحسنة فهى الى الجنوب الغربى من القصيمة ، والطريق اليها غير معبد ووعر والوصول اليها ليس سهلا ، وهى تقع عند بئر ، المبرر الوحيد لوجود محلة فى الصحراء ، ولاتتكون مبانى هذه القرية الا من أربعة بيوت لعساكر الحدود واستراحة حكومية وبها بئر ترفع ماءه طاحونة هواء ويفيض بالماء ولا تجد من يستخدم هذا الماء !.

وقد بتنا ليلة واحدة فى الحسنة ، وكان بها بعض الأعضاء الجيولوجيين يقومون بمساحة جيولوجية لهذه المنطقة . وهناك حركة كبيرة من جانب وزارة الدفاع فى انشاء شبكة من الطرق المعبدة عبر صحراء شمال سينا لكى تشمل حركات الجيوش فيها ويقضى على اقتصار هذه الحركة فى طرق معينة قليلة ومعروفة بحيث اذا سيطر العدو عليها شلت حركة الجيش المدافع .

هذا مجمل لتنقلات البعثة فى شمال سينا .

طرق البحث والعمل :

ذكرنا أن أفراد البعثة كانوا موزعين على فروع مختلفة من العلم ، وكان الغرض من البعثة دراسة الاقليم من الناحيتين الطبيعية والاجتماعية . وقد سار العمل على النحو الآتى :

١ ـ اهتم الجيولوجيون ببحث مناطق معينة ، مثل منطقة ريسان عنيزه ، بالقرب من أولاد على ، على بعد ٤٥ كيلو متر تقريبا من العريش من الناحية

الجنوبية الغربية ، ومثل منطقة الحسنة ، وكان اهتمامهم برسم خرائط جيولوجية ودراسة الطبقات . أما الجغرافيا الطبيعية فكانت تهتم بظواهر السطح مثل الكثبان الرملية والقباب والالتواءات والوديان الجافة ومسطحات الحصاء والحصباء الى غير ذلك وكانت الطريقة هي استخدام خرائط ١ : ١٠٠,٠٠٠ والبوصلة والمشاهدة ورسم الاشكال التخطيطية والتصوير الفوتوغرافي .

٢ — كان أحد الاعضاء مهتما بدراسة الكثبان الرملية والماء الباطني ، وكان يأخذ عينات من رمال الكثبان لتحليلها ، وكان متصلا أيضا بهيئة الاغاثة التابعة للامم المتحدة التي كانت تتبع طريقة فيزيائية لتعرف الطبقات الحاملة للماء بقصد وضع مشروع لتعمير هذه الجهات واسكان اللاجئين الفلسطينيين فيها .

٣ — أستعين أيضا بمهندس سويدي في مشكلة المياه الباطنية ، وكانت طريقته السياحة في أرجاء الاقليم وأخذ معلومات عن عمق الماء الباطني (الفجره) أو المستوى الذي يوجد فيه الماء ، من الزراع الذين قاموا بحفر آبار ، ثم أخذ عينات من مياه الآبار المختلفة لتحليلها ومعرفة كمية الاملاح الذائبة فيها ، وبهذه المناسبة نلفت النظر الى أبحاث مشابهة قام بها الاستاذ بليك G.S.Blake وجولد شميت ، وهما كانا من الجيولوجيين الرسميين لحكومة فلسطين أيام الانتداب البريطاني ، وقد قاما بمساحة دقيقة للماء الباطني في فلسطين ، وكانت طريقتهما تنقيب الارض Boring في بقع مختلفة ودراسة الطبقات للوصول الى الطبقة الحاملة للماء وتعيين عمقها ، ثم تحليل الماء الباطني لمعرفة درجة ملوحته ، ثم رسم خرائط كنتورية للاعماق التي توجد بها مستويات الماء الباطني وقد تم نشر هذا البحث في كتاب وأطلس خاص تقوم بتوزيعه ادارة مطبوعات الحكومة البريطانية سنة ١٩٤٥ . ولذلك لا أعتقد أن البعثة ستصل الى ما وصلت اليه حكومة فلسطين في مساحة الماء الباطني لشمال سينا ، فهذا مجهود كبير يحتاج لوقت أطول مما قضته البعثة في شمال سينا .

٤ ــ قام علماء التربة بمساحة منظمة دقيقة للساحل الشمالى ، من رفح الى العريش ، ثم لوادى العريش كله ، وهو وادى كبير يمتد من أواسط سينا حتى يصب شرقى العريش ، ثم لبقع مختلفة من شمال سينا • وكانت الطريقة هى الملاحظة الشخصية ومعرفة البيئة النباتية و بالتعبير الدقيق المجتمع النباتى الذى يعيش على التربة ، وأخذ عينات تربة من قطاع يحفر لهذا الغرض ورسم بروفيل للتربة فى هذه البقعة ، وكان الغرض من ذلك رسم خريطة تربة لهذا الجزء من سينا ثم تقدير قيمتها الاقتصادية فى استغلالها الزراعى • وسيتم تحليل عينات التربة فى معامل كلية الزراعة بجامعة الاسكندرية •

٥ ــ كان علماء النبات يتبعون زملاءهم المشتغلين بالتربة فى تنقلاتهم ، فجابوا نفس الجهات وارتادوا ذات البقع وأخذوا عينات للنباتات الطبيعية وكان غرضهم تصنيف تلك النباتات وترتيبها فى عائلات وفصائل لاكمال البحث الخاص عن « نباتات مصر » الذى تصدره كلية العلوم بجامعة القاهرة •

٦ ــ قام مساعدان فى علم الحشرات وعلم الحيوان بارشاد أحد الاساتذة بجمع الحشرات وتحنيطها ، وتحنيط الحيوانات من أنواع الزواحف بصفة خاصة ــ التى كان يصطادها لهم البدو وستودع تلك المجموعات من الحشرات والزواحف والجرذان والخفافيش بمعهد الصحراء

٧ ــ قمت بأبحاث انتربولوجية وكانت تشمل : ــ

أ ــ التعرف الى قبائل البدو المختلفة وتوزيعها الجغرافى فى شمال سينا وقد استعنت فى ذلك برجال البوليس من أهل العريش وبمشايخ العرب أنفسهم •

ب ــ دراسة عاداتهم ونظمهم الاجتماعية والاقتصادية ، وخاصة فيما يتعلق بالرعى والزراعة ونظام الاسرة وعلاقة الفرد بالقبيلة ، ونظام التقاضى

والدية وغيره . وكان ذلك عن طريق الاتصال الشخصى والقاء الاسئلة والاستماع الى شكاياتهم وقصصهم .

حـ ـ أخذ مقاييس انترويولوجية للرأس والوجه والانف والقامة ، وتعيين لون البشرة والشعر والعين وذلك حسب بطاقات لون البشرة والشعر والعين المعترف بها والتى لاتدع مجالا للحكم الشخصى الذى يختلف من باحث الى آخر . وهذه البطاقات هامة جدا ونوصى باقتنائها فى قسم الجغرافيا . وقد استطعت جمع ١٠٠ قياس للبدو وأهل العريش وذلك بمساعدة أطباء المستشفى الاميرى وضباط سلاح الحدود ، فقد اتجهت أولا الى المستشفى لهذا الغرض ، ثم الى قسم سينا الشمالى وأخيرا الى سجن سينا الحربى .

ء ـ لاحظت أثناء اقامتى بالعريش علاقة الادارة بالبدو ، ونظام الحكم العرفى السائد ، ولاحظت أن الجريمة الشائعة هنا هى التهريب ، تهريب البضائع الى فلسطين وتهريب المخدرات وخصوصا الحشيش الى مصر .

هـ ـ قمت بالاشتراك مع الاستاذ الدكتور حسان عوض بدراسة العريش كمدينة . وذلك بالتجول فيها عدة مرات وملاحظة تقسيمها الى أحياء ، يسكن كل حى قبيلة خاصة ، اذ لايزال أهل العريش مقسمين الى قبائل ، وتوزيع الاسواق ، وملاحظة موقع المدينة القديمة وانتقال مركزها التجارى وتوسعها وعلاقة ذلك بالجيش وانشاء السكك الحديدية وقد أخذنا عدة صور لاجزاء مختلفة من المدينة من فوق احدى المآذن ، ثم صور للشوارع وصور لبيوتها ذات الطابع المعمارى الخاص .

و ـ دراسة نشاط أهل العريش الاقتصادى وعلاقة ذلك بموقعها الجغرافى ، وعلاقة العريش بفلسطين قبل الغزو الصهيونى وبعده .

هذه هى الخطوط الرئيسية للبحث الاجتماعى الذى قمت به ، ولاتزال المقاييس الانتريولوجية لدى تحتاج لوقت لحساب النسب المختلفة ولتحليلها

توطئة للوصول الى نتائج انتربولوجية أصيلة ، ونرجو أن تسنح الفرصة قريبا لكتابة هذا البحث •

توصيات :

١ ـ أرى أن يقوم قسم الجغرافيا بشراء مجموعة الصور التى أخذت فى الرحلة ، وهى صور للظواهر الطبيعية لشمال شرقى سينا ، وقد احتفظ بأصولها معهد فؤاد الاول للصحراء ، وهو مستعد لبيعها لمن يريد • وهذه الصور توضح ظاهرات جيومورفولوجية لهذا الاقليم ، وهى ذات فائدة كبرى كوسيلة للايضاح فى محاضرات الجيومورفولوجيا ومحاضرات مصر الطبيعية والاقتصادية •

٢ ـ أرى أن يستكمل قسم الجغرافيا وسائل البحث الانتروبولوجى بشراء الآلات والمقاييس الانتروبولوجية وخصوصا :

(١) لوحات قياس لون البشرة والعين والشعر Rassenkundliche Bestimmungs Taften

(٢) مقياس طول القامة ، وآلة معدنية لقياس الانف ، ومقياس فلير لقياس الرأس •

٣ ـ مما يؤسف له أن مصر ـ بالرغم من عراقتها التاريخية ووفرة الابحاث التاريخية والجغرافية عنها ، تكاد تكون مجهولة علميا من الناحية الانتروبولوجية ، فليس عندنا مساحة انتروبولوجية كاملة عنها ، وليست لدى العلماء أرقام عن مقاييس انتروبولوجية لاى جزء من مصر ، اللهم سوى مديرية الشرقية التى قدم عنها الدكتور عمار رسالته العلمية الى جامعة مانشستر ، فهذا اذن مجال بحث جديد يصح أن يفتح أمام طلبة الدراسات العليا وأقترح أن تمد جامعة الاسكندرية الباحثين فى هذا الميدان بما يلزمهم من مقاييس وآلات وآلات تصوير ، والاتفاق مع السلطات الخاصة لتسهيل أمر سفرهم وتنقلهم واتصالهم بالاهالى واقناعهم بأخذ مقاييسهم فى الاقاليم المختصة ، وليكن ذلك على أساس اقليمى ، أى مديرية مديرية،

بترتيب جغرافى ، فهذا عمل علمى جليل اذا استطاعت الجامعة أن تساعد فيه وهو من الاعمال التى لايستطيعها الباحث بمفرده دون معونة الهيئات والسلطات الادارية . والوسيلة لذلك هى التوجه الى المستشفيات أو المصانع أو المعاهد التى يزيد أعمار تلاميذها على ٢٠ سنة . ومن الصعب اقناع الافراد بقيمة هذا العمل أو أهميته ، الا بتدخل أفراد من جهات معينة ، مثل طبيب المستشفى أو مدير مصنع أو ناظر مدرسة .

وهذا العمل يحتاج الى مران من جانب الباحث أو الى لباقة وصبر ومثابرة فى ميدان العمل ، ثم الى حسابات وتحليل احصائى وقراءة فى مكتبه ، وهو من الاعمال العلمية القليلة التى يتصل الباحث فيها بالجمهور مباشرة وتحتاج لمعاونة مالية وأدبية .

٤ ـ أرى أن يشترك قسم الجغرافيا بأكثر من باحث واحد فى رحلات معهد فؤاد الاول للصحراء فى المستقبل وأن يحاول ـ اذا أمكن ـ دعوة الباحثين فى الجغرافيا من الجامعات الاخرى والقائمين بدراسات اقليمية على الطبيعة لاجزاء مختلفة من مصر ، والخروج بعلم الجغرافيا من نطاق المكتبات أو المعلومات التى تصل الينا بالواسطة ، الى حيز الحقل والوصول الى المعلومات مباشرة . فمثل هذه المعلومات ـ حتى اذا كانت قليلة ـ أفضل بكثير من معلومات كثيرة تصل الى الباحث فى صفحات كتاب .

وهذه هى الوسيلة الوحيدة التى تحتل بها الجغرافيا مكانها بين العلوم فى مصر . والتى نستطيع بها أن نخدم البحث الجغرافى ونقدم للعالم صورة حية جديدة لبيئاتنا الطبيعية والاجتماعية .
